كلمة العدد

محكمة العدل العربية

.. الضرورة والأسباب

بقلم :

سعادة الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

يعرض على وزراء العدل العرب في مجلسهم الوزاري بجامعة الدول العربية خلال سبتمبر القادم مشروع محكمة العدل العربية بعد أن أجِّل عرضه أكثر من مرة. ونحن وإن كنا نأمل ألا يتم تأجيله مرة أخرى نأمل أكثر أن يبدأ البحث فيه بجدية وأن تتخذ الخطوات المؤدية لمناقشته وإقراره وإصداره رتما أكثر تسارعاً لأكثر من سبب منها :

أولا : أن جامعة الدول العربية عباءة تضم في أعطافها كل الدول العربية. وإذا كانت الخلافات، صغرت أو كبرت أمراً وارداً، وإذا كان مجلس وزراء الخارجية يتولى معالجة بعض هذه الخلافات وتتولى القمم العربية بعض ما يستعصي منها، أو بعض ما يحوطه شيء من الحدة، أو الخطورة، أو الآنية، إلا أن هناك

بعض الخلافات ذات الطبيعة الخاصة التي تقتضي بل تستلزم إيجاد مثل هذه المحكمة .

ثانيا : أن الطبيعة العربية أقرب ما تكون لهذا النظام. فقد كان العرب ومنذ عصر البداوة يعتمدون نوعا من القضاء هو أقرب ما يكون لنظام هذه المحكمة المقترحة، فكان العرب إذا شب خلاف بين القبائل يتفقون على اختيار أحد القضاة - المعروفين يومذاك - يعرضون عليه المشكلة، ويلتزمون بالانصياع لما يصدره من حكم. وكانوا يلتزمون بذلك التزاما شديدا لدرجة أن الخروج عليه كان أمرا مشينا. وكم ساهم ذلك في حل الكثير من الخلافات، وحقن الكثير من الدماء التي كان من الممكن أن تسيل لسبب أو لآخر.

ثالثا : إذا كانت بعض المشاكل المعاصرة تتشعب تفاصيلها إلى أعماق ومسارات القوانين الدولية، فإن في العالم العربي اليوم من الكفاءات القانونية والخبرات القضائية، ما يكفي للنهوض بهذا العبء والتصدي له، خاصة وأن هذه الخبرات العربية لها سمعة دولية مشهودة، ولها حضور بارز في المحافل الدولية المماثلة، وهي قادرة إذا مارست عملها من خلال جامعة الدول العربية على معالجة أدق القضايا المعروضة، بعلم وحيدة ونزاهة.

رابعا : إذا كان النشاط البارز لمحكمة العدل الدولية يدور في معظمه حول مشاكل الحدود ، فإن هذا النوع من المشاكل متوافر في المنطقة العربية وبصورة غير عادية. ولو ألقينا نظرة على الساحة العربية من المغرب الأقصى إلى أقصى الشرق لوجدنا أنه لا تكاد تخلو منطقة واحدة من هذه الساحة الممتدة من مشكلة حدودية. هذه المشاكل التي صنعت - عمداً - في عصور الإستعمار، كان الهدف منها أن تتفجر بين وقت وآخر، وأن ينتج من تفجرها عداء يمزق الصف ويحقق الهدف الإستعماري القديم المتمثل في

مقولة " فرق تسد ". وهذه المشاكل نفسها ما زالت قائمة ولم تحسم في كثير من جوانب المنطقة العربية، وهي تثار أو تثور بين وقت وآخر، ويتم تجاوزها دون حسم مما يهدد وعلى الدوام بتفجرها، مع ما ينتج عن ذلك من انعكاسات لالزوم لها، ومع ما تجره من نتائج تؤثر سلباً على روح الأخوة العربية التي تربط الأخوة على امتداد الوطن العربي الكبير.

خامسا : أن اللجوء حاليا لمحكمة العدل الدولية يحوطه كثير من الصعوبات، فالقضاة في أغلب الأحيان، إن لم نقل في كل الأحوال من جنسيات مختلفة، والمحامون كذلك، ويكون من المفارقات الغريبة أن تكون القضية عربية، والقاضي والمحامي واللغة والوثائق والسجلات والأدلة كلها أجنبية، أو يجب أن تترجم إلى الأجنبية حتى يفهمها الادعاء والدفاع والقاضي .. كثير من الأسماء، بل كثير من الوثائق، بل كثير من الظروف المحيطة بالموضوع لصيقة أشد الإلتصاق بتقاليد عربية، أو مفاهيم عربية، أو دوافع عربية يصعب جدا مهما بلغت دقة الترجمة أن تنقل روح الموقف أو دواعيه أو أسبابه، إلى لغة غير عربية أو عقلية غير عربية. وبالتالي إلى قضاة غير عرب.

سادسا : المنطقة العربية تدين بالإسلام. والإسلام يقدم لنا قواعد كثيرة لحل الخلاف. وإذا كان اللجوء يتم حاليا إلى محكمة العدل الدولية، فإن لعلماء الإسلام تحفظات حول اللجوء إلى هذه المحكمة أولاً، وحول الإلتزام بأحكامها ثانياً، وهو أمر ما أغنانا عن الدخول في المتاهات التي قد يجرها النقاش فيه أو التعرض له.

هذه الأسباب وغيرها كثير تستلزم أن يحظى مشروع المحكمة العربية المحتمل عرضه في سبتمبر القادم بإذن الله بالاهتمام

والحماس، وأن تحشد كل الجهود لإقراره بأسرع وقت ممكن، حتى تستطيع هذه المحكمـة أن تنهـض بـالعبء الكبـير المتمثـل فـي عشرات المشاكل القائمة والتي تنتظر الحل. ونحن نثق تمـام الثقـة بأن هذه المحكمة في حالة قيامها سوف تسهم، وبدرجة كبيرة - لو خلصت النوايا - فـي حسم كثير من المشاكل حفاظًا علـى الـروح العربي الذي يربط بين الجميع في كـل الظروف. وحتـى في أحلك الظروف. والله ولي التوفيق.

عبد الله بن خالد آل خليفة

لمحات من الأحوال السياس

في عهد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة

لقد شهدت الفترة التي سبقت حكم الشيخ عيسى بن علي آل خليفة موجة من الفتن والاضطرابات والخلافات بين الحكام بتأثير الأجانب مما مهد للتدخل البريطاني في البحرين بل كانت من أهم الأسباب للتدخل الأجنبي عموماً . فقد عمت البحرين فتن داخلية وحروب ومنازعات بين الشيخ محمد بن خليفة وعم والده الشيخ عبدالله بن أحمد حتى أن الشيخ محمد أقصى عم والده في ١٨٤٣م من البحرين . عمت الفتنة مما أدى إلى التدخل العسكري البريطاني في البحرين عام ١٨٦٨م . و قبض الإنجليز على الشيخ محمد بن عبد الله والشيخ محمد بن خليفة ونفيا إلى الهند. ووسط تلك الاضطرابات استطاعت بريطانيا أن تفرض اتفاقياتها ومعاهداتها لحماية البحرين في عهد الحاكم الجديد ، عهد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة . وبدأ العثمانيون يحاولون السيطرة





بالبحرين

(١٨٦٩-١٩٣٢م)



٢

بقلم:
الدكتور علي أبا حسين





على البحرين . وشهد العام الأول من حكم الشيخ عيسى بن علي آل خليفة سلسلة من التطورات الهامة فقد أيد الشيخ زايد بن خليفة حاكم أبوظبي تولي الشيخ عيسى الحكم في البحرين فأرسل رسالة إلى بيلي المقيم في الخليج وفيها يبلغه بسروره . بتسلم الشيخ عيسى زمام الحكم . كما اعترفت بريطانيا بالحكم الجديد فأرسلت حكومة بومباي إلى وزارة الخارجية بلندن رسالة فيها اعتراف وتأييد للشيخ عيسى مادياً ومعنوياً واستعدت بريطانيا لإحباط أية محاولة تقوم ضد الحكم الجديد فأصدرت الأوامر إلى قائد السفينة الحربية (كلايد) بإطلاق النار ضد أية سفينة قد تتوجه نحو البحرين من الساحل الشرقي حيث يقيم ناصر بن مبارك . وهنا احتجت الدولة العثمانية ضد زيارة السفن الحربية البريطانية للبحرين *

وكان المسئولون لدى الباب العالي ينظرون إلى البحرين باعتبارها إقليماً تابعاً لهم وقد أعلنوا ذلك في عام ١٨٦٩م[١]. وأرسل والي بغداد إلى وزارة الخارجية العثمانية رسالة في أواخر عام ١٢٨٥ هجرية — ١٨٦٩م وردت إليه من ولاية البصرة وفيها : (أن نحو ستين سفينة تتجه من الساحل الشرقي تنوي الهجوم على البحرين) وعلى أثر سماع شيخ البحرين لهذا النبأ قام هو الآخر بجمع سفن حربية للقتال . كما بعثت بريطانيا سفناً حربية إلى مياه البحرين لحماية رعاياها في البحرين[٢] فكتب الكولونيل بيلي المقيم السياسي في الخليج العربي إلى قيادة تلك السفن يقول : **[وصلتني الأخبار بأن سفناً اجتمعت في البدعة ـ البدع ـ وأماكن أخرى تريد الزحف نحو البحرين وإني أحب أن أذكركم لما حدث في العام الماضي وفي الوقت نفسه أحذركم في حالة خرق بنود الهدنة في المياه الخليجية فإني مضطر إلى تنفيذ أوامر الحكومة وسأتولى القيام بعمليات بحرية وإن باخرة حكومية على وشك المغادرة إلى البدعة ، وعليكم أن تسلموا الزكاة وذلك حسب اتفاقية ١٨٦٨م].**[٣] وقد تلقى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة

الزكاة لعام واحد بعد توليه الحكم عام ١٨٦٩م[٤].

ولما كان الباب العالي يرغب في احتلال جزر البحرين إثر احتلاله للأحساء عام ١٨٧٠م فقدصرح مدحت باشا : أن البحرين وتوابعها كانت تابعة لقائم مقام نجد وأنها أصبحت بالتالي تابعة للإمبراطورية العثمانية[٥]. إلا أن بريطانيا رفضت ذلك واعترضت على تصريح مدحت باشا وذكرت بأن البحرين لم تكن جزءاً من الأراضي العثمانية قط وإنما هي دولة مستقلة[٦]. وفي الوقت نفسه فقد كانت العلاقات جيدة بين الشيخ محمد بن ثاني والشيخ عيسى بن علي بن خليفة وذلك في مضمون رسالة أرسلها لشيخ البحرين يطلب منه أن يخبر المقيم عن المشاكل التي تواجهه ويعرض عليه أنه صديق حميم (وفي برقية بتوقيع مدحت باشا تفيد أن النظام في نجد جيد وقد أرسلت فرقة عسكرية إلى قطر فعاد الأمن هناك)[٧].

وكان نافذ باشا يرى أن قطر جزء من الدولة العثمانية ويريد الاستيلاء عليها أما مدحت باشا فيجيبه بالتأني خوفاً من ادعاء الغرب بأنها مستقلة أو انها تابعة للبحرين ولذا لابد أن يتقرب لأهل قطر ثم يستولي عليها[٨].

وقد تم اصدار الأوامر بعدم الاعتداء على شيوخ البحرين القاطنين في قطر وذلك لمساعدتهم الدولة العليه[٩]واتجهت العساكر العثمانية من البصرة فالكويت ثم إلى القطيف في طريقها للبحرين وذلك لمنع الامير سعود بن فيصل من دخول البحرين وكان ذلك في صيف ١٨٧١م[١٠].

وفي أوائل سنة ١٨٧١م كانت محاولة يجري الاستعداد لها من جانب العثمانيين لبسط السيادة على البحرين . وسرعان ما وجد الأتراك الفرصة لتحقيق ذلك حين قدم أمير معزول من جنوب نجد طلبا إلى الحكومة العثمانية لمساعدته في العودة إلى الحكم على أن يبقى تابعا لها[١١].

وتلقى المقيم البريطاني في بغداد عام ١٨٧١م معلومات مؤداها أن الحملة المقترحة على نجد لو نجحت فستوجه تركيا اهتمامها مباشرة للبحرين وأنكر المسئولون العثمانيون هذا المخطط حين احتجت بريطانيا على خططهم الرامية إلى ضم البحرين للدولة العثمانية وذلك في إبريل ومايو عام ١٨٧١م . وفي الوقت نفسه طلبت الدولة العثمانية من قادتها عدم الاقتراب من جزر

البحرين كما قام بيلي ، المقيم البريطاني بزيارة للبحرين مع ثلاث سفن ليؤكد للشيخ عيسى بن علي شيخ البحرين التزام بريطانيا باتفاقية ١٨٦١م[١٢].

وفي الوقت نفسه أبلغت السلطات العثمانية المندوب البريطاني في القسطنطينية بأن الدولة العثمانية لاترغب في فرض سيطرتها على البحرين وجنوب الجزيرة العربية وإنما تستهدف العمليات العسكرية العثمانية إعادة الاستقرار والأمن في المنطقة كما أرسل السكرتير السياسي في بومباي رسالة إلى الكولونيل بيلي المقيم البريطاني في بوشهر يؤكد له عدم رغبة السلطات العثمانية في فرض سيطرتها على البحرين[١٣].

إلا أن القوات العسكرية البحرية العثمانية قد تزايدت في عام ١٨٧٠م في الخليج وعندما وصل قائد البحرية العثماني إلى البحرين رفع العلم العثماني وأطلقت إحدى وعشرون طلقة مدفع تحية له ، ويقول الكابتن داوتي أن هذا العمل كان بمثابة ممارسة السيادة العثمانية وبعد أن تأكدت من أن العلم كان عثمانيا اقترحت على الكولونيل بيلي أن يسأل القائد العثماني عن الإحدى وعشرين طلقة التي أطلقها ولمن كانت هذه التحية ؟ . فأجاب القائد العثماني بأنه لم يكن لديه أي علم عربي فاستخدم علمه نفسه لأنه يشبه العلم العربي كما أنه أطلق طلقات مدفعية تحية للقلاع العربية ولم يكن هذا التفسير قابلا للاعتراض عليه لكنه أشار إلى ميول الدولة العثمانية نحو تأكيد سيادتها في المياه الخليجية وإلا كيف تطلق ٢١ طلقة مدفع تحية لقلعة طينية منهدمة في حين لاتطلق عادة أكثر من خمس طلقات في تحية قلعة عربية وثلاث طلقات فقط للشيوخ[١٤].

وفي هذه الفترة حدثت (وقعة ربيجة) وسببها أن خلافا حدث بين الأخوين عبد الله وسعود ابني الأمير فيصل بن تركي وهزم سعود فاتجه للبحرين ونزل عند الشيخ عيسى بن علي حاكم البحرين مما أغاظ أخاه عبد الله فاتفق مع الشيخ قاسم بن ثاني فأغارا على قبيلة النعيم في قطر لأنها موالية لشيخ البحرين وحاصرا النعيم في قلعة ربيجة حتى نفدت منونتهم وصادر إبلهم وأنعامهم وحلالهم فاتجهوا صوب شيخ البحرين الشيخ عيسى بن علي الذي وجدوه بأسطوله قادما لنصرتهم فنقلهم إلى البحرين وسميت هذه الحادثة (بوقعة ربيجة) والتي حدثت عام ١٢٨٧هجرية ـ ١٨٧٠م[١٥]. ووصل مبعوث من الأمير سعود بن

فيصل بن تركي إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة في البحرين في ١٨ مايو ١٨٧١م بعد أن انتصر سعود على قوات أخيه عبد الله وقد أطلقت عدة طلقات مدفع في البحرين تحية واحتفالا بنصر قوات الأمير سعود وقد لجأ الأميرسعود إلى البحرين لكي ينظم قواته في البر الرئيسي[١٦]وقدم الأمير سعود إلى الشيخ عيسى بن علي هدية لمساعدته له وكانت عبارة عن سيف يسمّى (السيف الأجرب) وهو سيف الأمير تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود المتوفى ١٢٤٩ هجرية فلقد حدث خلاف بين أحفاده ومنهم الأمير سعود بن فيصل بن تركي الذي زار البحرين أكثر من مرة ، ولم تطل إقامته فخرج إلى قطر حيث واجه مقاومة شديدة من معارضيه وهم من أتباع أخيه عبد الله بن فيصل بن تركي إلا أنه غادر قطر متوجها إلى البحرين ثانية ثم إلى عمان ، ومن هناك كاتب سعود بن فيصل الشيخ علي بن خليفة بن سلمان آل خليفة الذي كان وقتئذ حاكما على البحرين كاتبه سعود يريد القدوم للبحرين فكتب له الشيخ علي بقوله حياك الله وسأكون بصفك .

ولكن صادف أن قتل الشيخ علي بن خليفة سنة ١٢٨٦ هجرية وخلفه الشيخ عيسى بن علي آل خليفة فكتب له الأمير سعود بقوله : كان لي اتصال بوالدك وإن عبد الله يرهبكم ويرغبكم . فأجابه الشيخ عيسى بن علي إذا جئت للبحرين فسوف أحميك. فقدم الأمير سعود فاستقبله الشيخ عيسى بإكرام وحماه ولما طلب من الشيخ عيسى المساعدة أمده ببعض الرجال من البحرين وكتب له مع العجمان في العقير فانتصر الأمير سعود بمعارك على أتباع عبد الله بن فيصل ودخل الإحساء وذلك سنة ١٢٨٧هجرية وحين قدم الأمير سعود بن فيصل للبحرين قدم سيف جده تركي وهو السيف الأجرب هدية للشيخ عيسى بن علي آل خليفة رمزاً للتعاون والوفاء إذ كانت البحرين في عهد الأمير سعود بن فيصل مركزاً للتشاور وتنسيق العمل مع شيخها في سبيل خطوات لاحقة استطاع بعدها الأمير سعود أن يتولى الحكم في بلاده لمدة خمس سنوات من ١٨٧١ إلى ١٨٧٦م .

أما السيف الأجرب فقد انتقل إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة . وقد اعتاد شيوخ البحرين أن يسلموا على جلالة الملك عبد العزيز حين زيارته إلى المنطقة الشرقية . وحين اتجه الشيخ حمد إلى الظهران استقبله جلالة الملك وكان الهدف من هذه

الزيارة توجيه الدعوة لجلالته لزيارة البحرين فقبلها جلالته وتمت الزيارة في مايو ١٩٣٩م . وقدم الشيخ حمد السيف الأجرب إلى جلالة الملك عبد العزيز الذي قال : (هذه ذكرى منا عندكم فابقوه لديكم) . وطلب شيخ البحرين من المقيم بيلي رأيه في فشل الأمير سعود بن فيصل أمام القوات العثمانية في الإحساء ولجوئه إلى قطر وخشي أن يتجه للبحرين في الوقت الذي يلتزم فيه شيخ البحرين بالحياد التام . وقد نصح بيلي شيخ البحرين بالحفاظ على الحياد في النزاع القائم بين العثمانيين وآل سعود وأن لايسمح للأمير سعود بن فيصل أن ينزل في البحرين[١٧]ولكن شيخ البحرين رحب بالأمير السعودي حين طلب منه المساعدة ضد العثمانيين .

وفي رسالة من دار المقيم في الخليج يذكر فيها مترجم المقيمية بأن الشيخ عيسى بن علي كتب خطاباً بتاريخ ١٩ مايو ١٨٧١م إلى الكولونيل بيلي الذي كان مقيماً في الخليج يرحب بزيارته للبحرين ويخبره أن العثمانيين يستعدون لاحتلال البحرين وفي هذه الفترة كان شيخ البحرين قد عين من قبله نائبا عنه في (البدع) وقد ضيقوا عليه فتوجه إلى البحرين فأرسل الشيخ عيسى رسالة إلى الكولونيل بيلي يقول فيها : ولما كنتَ قد طلبتَ مني أن لاأتحرك في البحر فقد لبيت الطلب ولكني الآن مضطر للدفاع عن بلادي وحمايتها وأنا على أتم استعداد للدفاع عن البلاد وختم الشيخ عيسى رسالته بأنه ينتظر الجواب من المقيم الكولونيل بيلي[١٨].

فكتب الكولونيل بيلي إلى شيخ قطر بأن تركيا لاتنوي الاعتداء على الخليج ويجب على رؤساء الخليج أن يحافظوا على تعهداتهم في إطار معاهدة السلام وأن الأسطول البريطاني يرسو بين (رأس ركن) و (رأس تنورة) لمواجهة أية مفاجآت[١٩].

وأكد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة إلى الكولونيل بيلي بأن استعدادات تجري في الساحل الشرقي ضد البحرين من قبل العثمانيين ومَن والاهم في المناطق الخليجية الأخرى[٢٠]وعلى أثر ذلك فقد قام الكولونيل هربرت بزيارة رسمية إلى مدحت باشا الحاكم العام العثماني وأكد له مدحت باشا عدم رغبة الدولة العثمانية للاعتداء على البحرين[٢١]. وفي الوقت نفسه كتب الكولونيل بيلي إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة أن السلطات العثمانية تؤكد على التزاماتها بعدم فرض

سيطرتها على البحرين أو بلدان الخليج الأخرى وتستخدم السفن لنقل الجنود إلى أقرب ميناء إلى نجد . أما إذا ارتكبت أي قوة عسكرية خرق بنود المعاهدة فإن السفن البريطانية ستتصدى لها[٢٢]. وتفيد برقية عثمانية أن رجلا قدم من البحرين إلى القطيف سرّاً وكان يتجسس للتعرف على حركات الجيش الذي ينوي غزو البحرين وبعد أن قُبض عليه ووجهت إليه بعض الأسئلة تبين من تقريراته الشفوية أن الأهالي في البحرين يظهرون التبعية للدولة العلية ما عدا رؤساء البلاد وأعيانها ويختتم القائد العثماني برقيته بأنه يريد استمالتهم بالحسنى [٢٣]وكانت القوات العثمانية وعددها حوالي ثلاثة آلاف جندي تتقدم نحو الإحساء لاحتلالها بعد أن احتلت القطيف وقد احتلتها بدون مقاومة [٢٤] وأن بريطانيا تعلم بأن الحركات العسكرية العثمانية تهدف إلى استقرار الأحوال في نجد وليس لها طموحات في بلدان الخليج العربي[٢٥].

وأرسل الكولونيل بيلي المقيم في الخليج رسالة إلى الشيخ عيسى بن على آل خليفة تتعهد فيها بريطانيا بتحمل مسئولياتها تجاه البحرين ومناطق الغوص التابعة لها على أن يتمسك شيخ البحرين بمعاهدة السلام المبرمة بين بريطانيا والبحرين[٢٦].

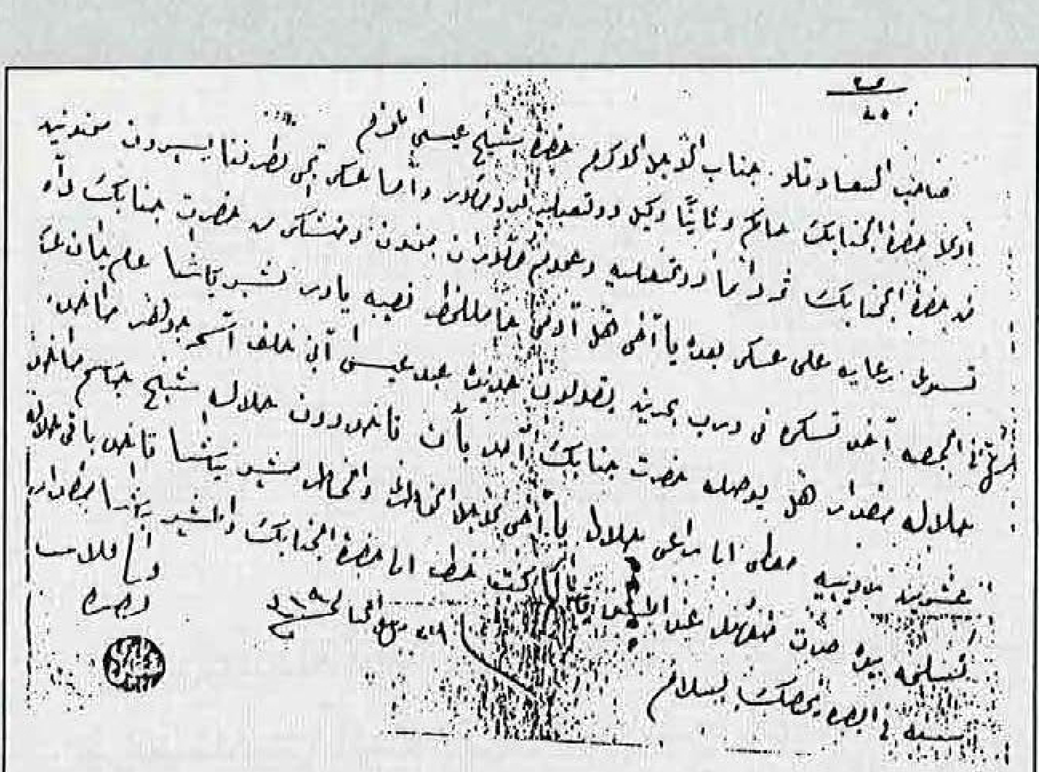
وقد أجاب الشيخ عيسى بن علي آل خليفة الكولونيل بيلي بأنه حريص على تطبيق المواثيق والعهود السابقة التي تمت بين شيخ البحرين وبريطانيا واستطرد الشيخ عيسى بقوله : وقد نقلت ذلك للأشخاص الذين يستفيدون من مغاصات اللؤلؤ[٢٧]. وكانت وجهات النظر مختلفة بين نافذ باشا الذي كان يريد احتلال قطر باعتبارها جزءاً من نجد ومدحت باشا الذي يرى بأن لايُسمح لأحد أن يسيطر على قطر وأن يستخدم السياسة مع سكانها وفي الوقت نفسه أن لايتعدى أحد على البحرين وبهذه الطريقة يمكن تحقيق الهدف لاحتلال قطر وانتزاعها من السيطرة الأجنبية[٢٨].

وقد رفض شيخ قطر أي تعامل مع العثمانيين لكن ابنه جاسم وعدهم بالتعاون معهم حتى أنه رفع العلم العثماني على قصره[٢٩] في البدع بينما يرفرف العلم العربي على قصر والده الشيخ محمد بن ثاني فأرسل العثمانيون علما عثمانيا إلى شيخ قطر لكي يرفعه وقد قبله باعتبار بلاده جزءاً من البر الرئيسي التابع للعثمانيين[٣٠].

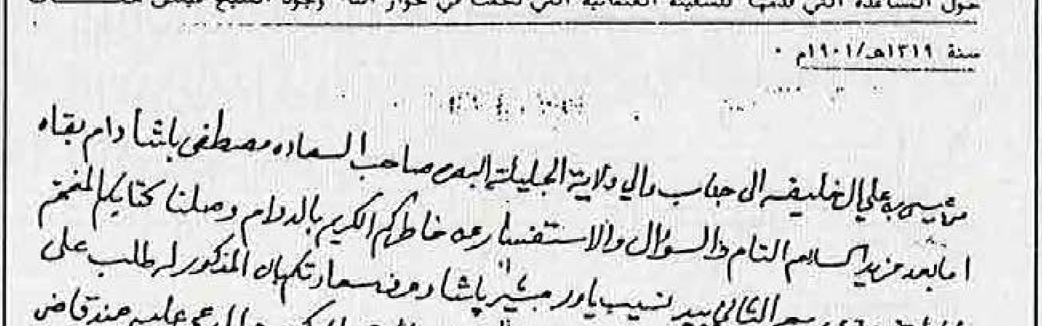
وقد اعترضت بريطانيا على رفع العلم العثماني في قطر لكن مدحت باشا ادعى أن التأكيدات التي قطعتها الدولة العثمانية هي بعدم التدخل في شئون البحرين دون أن تتعهد بعدم التدخل في شئون قطر[٣١].

وكانت بريطانيا تراقب السفن العثمانية التي تتزود بالماء والتموينات من البحرين فقد وصلت سفينة عثمانية إلى البحرين وربما هي التي أشار إليها وايتمن حيث أصابها عطب في (حوار) وكان شيخ البحرين هناك فأمر شيخ البحرين بإصلاحها وأكرم الجند العثماني الذين كانوا على متنها وقدم لهم المئونة والماء وأوصلهم إلى العقير ووردت إلى شيخ البحرين رسالة شكر من الدولة العثمانية[٣٢] ولما زار الأمير عبد العزيز بن سعود بن فيصل بن تركي البحرين واجتمع مع الشيخ عيسى بن علي آل خليفة اعترض الإنجليز على تلك الزيارة وطلبوا من شيخ البحرين أن لايتدخل في الخلافات القائمة وقتئذ بين العثمانيين وآل سعود وقد برر الشيخ عيسى بن علي زيارة الأمير السعودي بأنه ينوي اتخاذ البحرين مقراً له وأن يعيش فيها بأمان لكي يزاول التجارة[٣٣]وكان كاتب الأخبار ميرزا أبو القاسم قد التحق بالسفينة الحربية (هوغ روز) منذ وصولها للبحرين ويقول ميرزا : وفي كل يوم أنزل في الصباح الباكر من السفينة إلى جزيرة البحرين في جولة استطلاعية وأرجع إلى السفينة عند المغرب لأخبر القبطان (غوتري) بما حصلت عليه من معلومات كالعادة . وعندما نزلت اليوم رأيت زحاما حول منزل الراحل الشيخ علي بن خليفة بن سلمان آل خليفة بالمنامة حيث يعيش فيه الشيخ الحالي ابنه عيسى بن علي وكان الأمير عبد العزيز قد ركب حصاناً ومعه عشرة من الخدم يسيرون خلفه وأربعة يسيرون أمامه وعبد العزيز شاب طويل القامة حسن الطلعة وعليه ملامح القيادة وله شخصية وقد دخل الأمير عبد العزيز بن سعود بن فيصل في بيت الشيخ عيسى بن علي آل خليفة[٣٤].

وجدير بالذكر فقد منع شيخ البحرين البدو من دخول البحرين وربما كان ذلك بسبب سوء الأحوال الصحية في القطيف وانتشار الأمراض المعدية كالكوليرا والسل في البدع وفي حالة إصابة شخص بمرض الكوليرا أو السل فإنه ينقل إلى خارج المدينة ويترك هناك لمصيره المحتوم دون أية رعاية[٣٥]وأن هذه الأمراض تنتشر



وسالة شكر من والي ولاية البصره (نوري مصطفى) الى الشيخ عيسى بن علي آل الخليفه حاكم البحرين حول المساعدة التي قدمها للسفينه العثمانيه التي لحمت في حوار اثناء وجود الشيخ عيسى هناك سنة ١٣١٩هـ/١٩٠١م .



حضرة صاحب السعاده مصطفى باشا دام بقاه
من عيسى بن علي الخليفه الى جناب والي ولاية الجليلة البصره صاحب
اما بعد مزيد السلام التام ذا السؤال والاستفسار عن خاطركم الكريم بالدوام وصلنا كتابكم المنعم
المؤرخ [illegible] الثاني بيد [illegible] باشا [illegible] المذكور لطلب على
عبد خلف [illegible] من اهالي الجهره فقد امرنا باحضار المدعي المذكور والمدعى عليه عند قاضي
الشرعيه وبموجب ما ثبت لزم الحق امرنا بتسليمه بيد صاحبه ليحيط علمكم بذلك
ودمتم سالمين والسلام [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلس وزراء سلطنة عمان

نمرة ٣٦٧ تاريخ ... ١٣ الموافق ... سنة ١٩٢

من مجلس وزراء السلطنة مسقط وعمان

الى الجناب الأجل الامجد حميد الشيم الشيخ الافخم عيسى بن علي آل خليفة المحترم.

بعد اهداء تحية الله تعالى سلام عليكم ورحمة الله وبركاته انّنا نحمد الله اليكم لا برحتم محروسين والموجب لتحرير
كتاب الصفا هو السؤال عن كيفية احوالكم ونرجوا انكم في حال اليسر ولا زاد بهذه الأطراف ما
يلزم رفعه لجنابكم الا الخير من فضل الله وهذا الواصل المحب الوالي سعود بن سليمان بن سويلم
لاجل المعالجة عند الحكيم الذي بطرفكم فنؤمل حلول انظاركم عليه كما انتم من اهله والرجاء
دائما تشرفونا باخبار سلامتكم وكل ما يبدو لجنابكم من غرض ودمتم بخير والسلام على انجالكم
الكرام كما منّا هنا كافة

٢٦ صفر ١٣٤٣
٢٩ سبتمبر ١٩٢٤

سيد نادر بن فيصل ومحمد بن احمد الغشام (وزير المالية) وراشد بن عزيز (كبير القضاة) والشيخ زبير (مسئول عن العدلية) والشيخ راشد. المصدر: معالي السيد محمد بن احمد البوسعيدي مستشار جلالة السلطان قابوس لدى زيارته لمركز الوثائق التاريخية بالبحرين.

عادة عقب نضوج التمور وتفتك بالسكان ومن أعراضه انتفاخ في المعدة ويدوم أربعين يوماً ثم يظهر دمّل على الجسم ويؤدي غالبا لوفاة المريض . ولايصاب البحرينيون بهذا المرض إلا نادراً وقد حدث في البحرين في عام ١٢٨٨هجرية ــ ١٨٧١م مرض شديد يسمونه (الضرب الثاني) . أما (الضرب الأول) فحدث عام ١٢٣٦هجرية الموافق ١٨٢٠ ـ ١٨٢١م[٣٦].

وحدث خلاف بين شيخ البحرين الشيخ عيسى بن علي وبين أخيه الشيخ أحمد وحاول الشيخ عيسى أن يذهب إلى المقيم في الخليج ولكن لم تسنح له الفرصة وربما أن الخلافات بين الحاكم وأخيه قد زالت بعد مجيء المعتمد السياسي للبحرين الرائد سمث[٣٧].

وكان الشيخ عيسى حذراً لايريد أن يورط نفسه في الشئون التي تدور في الساحة المجاورة لبلاده ويقول في رسالة كتبها إلى المقيم أنه قد جعل جلّ اهتمامه لشئون بلاده وسكان جزيرة البحرين فحسب ولما ترددت الأنباء عن قدوم سفينة عثمانية على متنها مدحت باشا لزيارة البحرين طلب شيخ البحرين من المقيم أن يوضح موقفه حين قدومه ويبدو أن هذه الأنباء ليس لها أساس من الصحة[٣٨].

وقد أجاب المقيم أنه إذا قامت سفينة عثمانية بزيارة البحرين فعليها أن ترفع العلم البحريني وتطلق خمس طلقات تحية له أولا وأن يرد عليها التحية وحاول العثمانيون أن يجعلوا شيخ البحرين حليفاً لهم وأن يتنكر للإنجليز لكنه رفض ذلك لأنه لايريد أن يخالف العهود والمواثيق التي عقدها هو وأسلافه معهم وقد زاره شخصية محترمة قادمة من البصرة ويرتدي زياً ممتازا وله خادمان ويقول الشيخ عيسى بن علي آل خليفة أن لديه فرسّان يريد أن يهديهما إليه وأن هذه الشخصية تحاول أن تمهد لزيارة شخصيات عثمانية[٣٩]ولكن الكولونيل بيلي قد أشار على شيخ البحرين بأن لاتتورط البحرين في المعارك التي تجري خارج حدودها خاصة وأن الأمن يسود البحرين ومحصول اللؤلؤ قد زاد في هذا العام ١٨٧١م . وقد أجابه حاكم البحرين بأنه يحافظ على حياد بلاده ولا يتدخل في شئون المتحاربين[٤٠].

وفي ٢٨ أغسطس وليس في سبتمبر ١٨٧١م كما أورد لوريمر وصل إلى البحرين مبعوث من بني هاجَر ومعه ست رسائل من حاكم

الإحساء العثماني ومن ناصر بن مبارك إلى الشيخ جاسم بن محمد وقد لقي المبعوث مصرعه في البحرين لأنه ممن اشتركوا في قتل الشيخ علي بن خليفة ، وتبدي محتويات الرسائل اهتمام العثمانيين بالبحرين ، اما رسالة حاكم الإحساء فلم تفتح بل أعيدت للحاكم نفسه[٤١]خشيت بريطانيا أن تتخذ الدولة العثمانية من هذا الحادث ذريعة للتدخل في شئون البحرين فأرسل المقيم مذكرة إلى مدحت باشا يذكره بوعد الدولة العثمانية بعدم التدخل في شئون البحرين كما أكد شيخ البحرين عدم تدخله فيما يجري على الساحة العثمانية في الأحساء . وقد سويت القضية بأن طلب مدحت باشا من شيخ البحرين مبلغ عشرة آلاف درهم من الفضة كدية للقتيل وانتهت القضية[٤٢].

وقرر الشيخ عيسى بن علي فرض حظر على تصدير المواد الغذائية من البحرين وتوابعها كمبدأ للحياد الذي وقفه شيخ البحرين بين العثمانيين والسعوديين وهو يتجنب أي عمل قد يستغله طرف أو آخر ليورطه في صراع لايعنيه على الإطلاق[٤٣]وقد أصدرت الدولة العثمانية أمراً بعدم الإعتداء على شيوخ البحرين القاطنين في قطر وذلك لمساعدتهم الدولة العلية[٤٤]واستمر العثمانيون يواصلون اتصالاتهم في البحرين فقد وصل قائد عثماني إلى البحرين ومعه سفينتان وقد رفع العلم العثماني على سفينته وأطلق إحدى وعشرين طلقة مدفع تحية للقلاع الواقعة على الساحل على حسب ادعائه وأنه ليس لديه علم عربي ، لذلك فقد رفع العلم العثماني على سفينته التي هي من طراز (كورفيت) وقال القائد بأن السفينة ستقوم بدوريات في مياه البحرين لمدة اثني عشر يوما[٤٥].

وفي ديسمبر ١٨٧١م طلب القائم مقام التركي في القطيف من شيخ البحرين تسليم قاربين كان الأمير سعود بن فيصل بن تركي قد قدمهما لبعض أهل البحرين قبل وصول الأتراك إلى الإحساء فما كان من شيخ البحرين إلا أن أعاد القاربين خشية أن تتخذ الدولة العثمانية من ذلك ذريعة للتدخل في شئون البحرين . ولما طلب مدحت باشا في عام ١٨٧٢م من بعض وجهاء تجار اللؤلؤ في القطيف أن يقدموا طلبا بتوقيعهم بضم البحرين للدولة العثمانية ، اعترضت بريطانيا وأمرت ببعض السفن أن ترابط في الخليج وعلى مقربة من البحرين حتى حصلت بريطانيا من الباب

العالي على تعهد بعدم إحداث أي تغيير في سياستها بالمنطقة(٤٦).

وربما أن سبب ذلك ناتج من اضطراب الأمن والفوضى السائدة في ساحل قطر وكان شيخ البحرين قد أرسل مندوباً عنه إلى ساحل قطر ليلتقي بالأمير سعود ولكنه عاد دون أن يجده(٤٧).

أما الصلات بين الشيخ عيسى بن علي آل خليفة والسيد تركي إمام مسقط فكانت ودية حيث يتبادلان الهدايا بينهما ، فقد أرسل شيخ البحرين فرسين على سبيل التبادل والإهداء للسيد تركي إمام مسقط فبعث السيد تركي جملين هدية لشيخ البحرين ومعهما مائة كيس من الأرز وخنجران عربيان(٤٨).

وفي رسالة من الشيخ عيسى بن علي آل خليفة إلى مدحت باشا مؤرخة في ١٦ رمضان سنة ١٢٨٨هجرية الموافق نوفمبر ١٨٧١م حول وصول قومندار الدولة العلية لبندر البحرين وقد عين الشيخ عيسى أخاه لاستقباله وتهنئته بالوصول واجتمع مع القومندار ودار الحديث حول وفاة الرجل الهاجري الذي قتل في البحرين من مدة كم شهر وإنه جاء للتحقيق حول ذلك وقال الشيخ عيسى : والمعلوم لدينا أن الرجل كان طارش أو مرسول من مأموري الدولة العثمانية في الإحساء وتكدرنا لما حدث له وإن المذكور جاء من العقير ودخل قرية جنوبي البحرين واعترف لبعض أهل البحرين أنه من طائفة بني هاجر ومنسوب لناصر بن مبارك وثبت أن الهاجري له يد في قتل المرحوم الوالد فلأجل ذلك اهل البحرين بموجب القانون الذي نتداوله في كل مكان بين البدوان فقتلوا الرجل المذكور وبعد تفتيش جسده حصلوا على بعض الخطوط والأوراق فجلبوها لي وكان أحد الخطوط (الرسائل) من الدولة العلية وقد حفظته بدون أن نفتحه وحافظت عليه من أن يعلم به الإنجليز في البحرين وأرسلته إلى المرسل إليه.

ومن جهة الكتاب الثاني المتضمن أخذ جزائر الفقير إلى الله إلى الدولة العثمانية فتعجبنا ونحن نأسف للحادث الذي حدث في بلادنا من قتل أحد رعاياكم خاصة وأن المرسول من طائفة المنسوبين لناصر بن مبارك وهو معروف بأنه سبب في قتل المرحوم حاكم بندر البحرين ثم أن هذا الطارش لم يكن معه خط توصية وتذكرة تبين أنه خادم دولة جنابكم وثانياً إن المرسول من كبير عسكر الدولة العلية في الحسا وصل البحرين ثلاثة أيام دون أن نعلم أنه

بسم الله الرحمن الرحيم

من [illegible] بن فيصل

الى حضرة الاجل الافخم المحترم الوالد العزيز الشيخ عيسى بن علي آل خليفه

سلمه الله تعالى ورعاه سلام عليك ورحمة الله وبركاته نحمد الله ونشكره

على كرمه الوافر ومدده المتواتر لا تزال بكمال الصحة والعافية واتم النعمة

والبهجة ومن هذه الاطراف لا زاد علمهم الا الخير والمسرة ومما وجدنا الوالي

مظفر بن سلطان متوجهاً الى اطرافكم للمعالجة وجب تحرير احرف السلام والتحية

لذلك اننا الولد لا زال محروساً بعناية الربانية مأنوساً بالعناية الصمدانية

والامل استمرار المواصلة بالبيان عن كيفية الحال وكل غرض او خاطر بالبال

كما هو من لوازم الوداد هذا ما لزم بيانه والسلام سلم لنا على الانجال الصنو

سلم عليكم الصنو والاولاد حرر في آخر [illegible]

٣٠ صفر ١٣٤٣

محب [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

من حمد بن فيصل الى جناب الاجل الاكرم الامجد الشيخ العزيز الوالد عيسى بن علي آل خليفة المحترم

لازالت ايامه مشرقة بطالع الاسعاد سلام عليك ورحمة الله وبركاته نحييك بحمد الله
اليك ونشكر على سوابغ وتتابع الاياد ونعم ارجو من المولى انك في اكمل المسرة والاسعاد
بطرفكم هذا العام نرجو به التحرير لجنابك الا ما يسر الخاطر من حول طرفكم امن المخاوف
ولما اتينا لخاطركم بحيث قادما لطرفكم رسولا من الاخ السلطان تيمور وجب
علينا تحرير هذه العريضة ابلاغ السلام وسؤال عن حالكم والرجا ان تكون طرفكم
المودة ولا حرج الينا فيما يبدو من علم او غرض وعليك السلام وعلى المشايخ
الاخوة حمد ومحمد واخوانهم ومن هنا حضرة الاخ السلطان تيمور وكافة الاخوة حمد
في يوم ١٧ شهر جمادي الاخر سنة ١٣٤٣

كتبه بامر ...

الحامل للخط الذي يخاطب قطر ويتضمن إرادة الدولة العلية أن تأخذ مملكة الفقير إلى الله(٤٩) وختم الشيخ عيسى بن علي هذه الرسالة بختمه كما ختمها أبو القاسم بن عباس المنشي .وجاء من قيادة الفرقة العسكرية العثمانية تقرير إلى مقام الولاية : إن الإنجليز يحاولون الاستيلاء على البحرين وقد باشروا بإنشاء ميناء في جزيرة البحرين وذلك بتركيز الأعمدة على الساحل وإقامة بناء ضخم كمركز تجاري وأسسوا مخفراً عسكرياً أمام باب الحكومة (باب البحرين) لقصد حفظ الأمن والحراسة وفي هذا المخفر قوة نظامية تتألف من عشرين جندياً .

واستطرد كاتب التقرير بقوله : ولمّا كانت البحرين تدار من قبل قائمقامية نجد خاصة وأن أهالي البحرين من المسلمين المتمسكين بدينهم وعلى أبواب قلاعهم وأبراجهم ومدافعهم المركزة فوق القلاع حفرت وكتبت الطغرة العثمانية وفي البحرين مدارس وجوامع تقام فيها الصلوات ويدعون للسلطان العثماني في أيام الجمع والأعياد وهذا دليل على الرابطة الدينية والميل والولاء للسدة العلية وأكثر سكانها في حالة البداوة وهم محرومون من عدالة الدولة العثمانية حين يشاهدون السفن البريطانية الكثيرة حول سواحل بلادهم فيزداد قلقهم وقد صادر الإنجليز بعض السفن الشراعية التجارية بتهمة التهريب وأخذوا ما فيها من مال ومتاع فإذا أهمل ذلك ستكون النتائج وخيمة(٥٠) وقد أرسلت ولاية بغداد إلى الباب العالي هذه الرسالة وأكدت بأن قيام الإنجليز بحركات عسكرية ضد البحرين وعمان مما يجلب الاهتمام والخطر الداهم (٥١).

وقد أكدت بريطانيا بأنها لاتعترف بمطالب الدولة العثمانية للسيادة على البحرين وإنها لاتنوي التدخل في شئون الخليج أكثر مما تقتضيها بنود الاتفاقيات من أجل حفظ السلام في مياه الخليج العربي(٥٢).

وكتب المقيم السياسي إلى سكرتير حكومة بومباي بأنه على الضباط الذين يتحملون مسئولية الحفاظ على المصالح البريطانية في البحرين أن يحترموا مكانة شيخ البحرين كحاكم مستقل ذي سيادة وذلك بدقة تامة وعليهم أن يعلموا بأن أي انحراف عن هذا الموقف بمثابة خرق لأوامر الحكومة البريطانية(٥٣).

وكان بعض أهالي البحرين يقطنون في البصرة وقد أعفوا من الخدمة العسكرية بناءً على قرار خطي من وزير الخارجية العثمانية

صفوت باشا ثم حصلت مكاتبات تفيد أنهم هاجروا منذ نحو ٤٦ عاماً وسكنوا البصرة ولهم أملاك فيها فهم خاضعون للتجنيد في الجيش العثماني ولكن انتهت المكاتبات بإعفائهم من الخدمة العسكرية[٥٤]. وفي نهاية عام ١٨٧٣م اعترضت الدولة العثمانية على بريطانيا حول تعدي الإنجليز على السفينة العثمانية (أنور) عند سواحل البحرين ومصادرة ماعليها وسجن بعض ركابها[٥٥].

وكتب كاتب الأنباء في البحرين مذكرة وقعها مساعد المقيم (فرايزر) بأن معتمد شيخ البحرين وصل من أم حويز وهي إحدى توابع (العقير) ومعه ١٤ شخصاً من مرافقيه وكان الغرض من زيارته للعقير هو لزيارة أفراد من قبيلة المرة لأنه برزت بعض الخلافات ما بين القبائل في الزبارة فهجموا على الزبارة بمساعدة علي بن راشد (من الهواجر) وهو من أقارب جاسم بن ثاني واستعد بنو هاجر لمحاربة معتمد شيخ البحرين وتابعيه إلا انهم لم يستطيعوا إدراكهم. وكان الشيخ عيسى بن علي ينفق بين ٣ـ ٤ آلاف قران شهرياً من أجل سكان الزبارة كما يدفع ٣٠٠ قران شهرياً إلى ناصر بن جابر اعتباراً من عام ١٨٧٤م حيث تم فيها احتلال الزبارة. وفي ٢١ مارس ١٨٧٥م قام الحاكم ومعه أحد أتباعه بزيارة الشيخ أحمد أخ الحاكم في البركة بالبحرين وعاد في ٢٣مارس كما قام الشيخ بزيارة مماثلة ويقال أن الثلاثة قاموا بمشاورات مع بعضهم البعض وتأكدوا من انضمام البعض إلى المتولي من قبل شيخ البحرين هناك[٥٦].

وكانت سلطة شيخ البحرين تشمل علاوة على جزر البحرين ، القبائل القطرية القاطنة في الساحل الشرقي وقد استحسنت بريطانيا على لسان الكولونيل روس : أن يتجنب حاكم البحرين إحداث أي تعقيد في شئون البر الرئيسي وأن بريطانيا تحافظ على البحرين ضد أي اعتداء خارجي براً أو بحراً[٥٧].

وقد أجاب الشيخ عيسى بن علي آل خليفة بأننا لانحتاج أن نتدخل في شئون البر الرئيسي إلا أن (ألزبارة) مدينتنا ومن ملكيتنا وتعتمد الزبارة علينا ونحن نأمل من حكومة بريطانيا أن لاتسمح لأحد بالاستيلاء عليها كما لانوافق أن نتنازل عن حقوقنا في ملكيتنا للزبارة وما فيها لنا من أملاك[٥٨].

وقد حدث هجوم على الزبارة من قبل شيخ الدوحة وناصر بن مبارك وحين سمع الرائد روس أبحر من

بوشهر بسفينتين نحو البحرين ثم ذهب إلى الزبارة في ١٨ نوفمبر ١٨٧٨م وزار معسكر شيخ الدوحة الذي يقع على بعد نصف ميل من حصن مرير الذي حاصر فيه قبيلة النعيم الموالية لشيخ البحرين وعددهم نحو خمسمائة شخص وكان شيخ البدعة (الدوحة)معه نحو ألفي شخص كلهم مسلحون وقد هدموا المباني في الزبارة ماعدا قلعة مرير حيث تم محاصرة النعيم فيها فما كان من الشيخ عيسى بن علي آل خليفة إلا أن سار بأسطول من السفن الشراعية محملة برجاله وذلك لنصرة رعاياه من النعيم ومن معهم ولما وصل الموضع المسمى (القليعة) جاءتهم بارجة بريطانية ومنعتهم من الحرب في البحر حيث أن السلطة في الخليج كانت وقتئذ للإنجليز فظلوا متحيرين هناك مدة خمسة عشر يوماً والمذاكرة جارية بين شيخ البحرين والقنصل الإنجليزي في خصوص المهاجمة البحرية حتى انتهاء الحصار وذلك في عام ١٢٩٥هجرية ـ ١٨٧٨م وتسمى هذه الحادثة (شد لقليعة) والشد معناه المحاصرة البحرية. ويبدو أن مدينة الزبارة أصبحت مهدمة تماماً ولم تعد الزبارة مكاناً آهلاً بالسكان بعد[٥٩]وقد عقدت اتفاقية بين الشيخ عيسى بن علي آل خليفة والكولونيل (راي) عام ١٨٨٠م ويتعهد بموجبها شيخ البحرين بأن لايوقع أي اتفاقية أو معاهدة مع أية دولة أخرى[٦٠].

وكان الشيخ عيسى بن علي يساعد بعض رعاياه للدفاع عن أنفسهم فقد قام بدفع أربعة آلاف قران سنوياً لسكان الفويرط كمساعدة لهم للدفاع عن بلدهم[٦١]وتلقى الشيخ عيسى من الشيخ جاسم بن ثاني رسالة يقول فيها : تلقيت رسالتكم بالامتنان وأدعو الله أن يمنحنا اليمن والأمان وربما تعلمون بأن آل محمد هاجموا ولاية البوعينين وقتل بنوهاجر محمد ابن حاكم الوكرة فأمرنا لله ، وإننا نعتمد على مساعدتكم ولا يمكن أن نستغني عنكم. وعين للشيخ قاسم بن ثاني معاش من الدولة العثمانية قدره إثنا عشر ألف قرش وصدر بإعطائه إكرامية سنوية لأنه خدم الدولة العلية فعين قائمقاماً فخرياً لقطر للمحافظة على الأمن والنظام. وفي ١٣١١هجرية ـ ١٨٩٣م طلب الشيخ قاسم آل ثاني إعفاءه من وظيفة قائمقام ويقول أنه أصبح شيخاً كبيراً في العمر ويضع أخاه أحمد بن ثاني ويستطرد بقوله : إنه خدم الدولة العلية ٢٤ سنة وكان في سن الأربعين وأصبح في الخامسة

والستين من العمر وكان له ثروة من التجارة ثم ذهب المال والشباب في سبيل خدمة الدولة العلية وليس له دخل من الولاية القطرية ويطلب الاستعفاء منها وقد أوضح ذلك لوالي البصرة حمدي باشا وقد أخذ منه الإنجليز أربعة عشر ألف روبية وأربعمائة روبية ظلماً ويرجو إرجاع هذا المبلغ من الإنجليز وأن تعطيه إياه الدولة العثمانية وقد سلم السندين إلى حافظ باشا دون أن يعيدهما والشيخ قاسم يطالب بحقه أو بتسليمه السندين[٦٢].

ولم تشغل الشيخ عيسى بن علي هذه الأحداث عن مواكبة التطور الحديث فقد اهتم بتاريخ بلاده ففي مستهل عام ١٨٨٩م سمح الشيخ عيسى بن علي للأثري (بنت وزوجته) بحفر تلين من تلال (عالي) تحت رعاية المتحف البريطاني[٦٣] وعثر على بعض الآثار فيهما إلا أنهما بعد أن فتحا قبرين كبيرين لم يجدا ما يشير إلى تاريخ الدفن[٦٤].

ثم عقدت اتفاقية بين شيخ البحرين و (تالبت) في ١٨٩٢م وفيها أن لايفاوض أي دولة أجنبية ولايسمح لسكنى بلاده وكيل دولة أجنبية كما لايسمح ببيع أو رهن أو تصرف لأحد من رعايا الدول الأخرى[٦٥].

وقعة الزبارة :

أو (كسارة الزبارة) حدثت في ٨ ربيع عام ١٣١٢هجرية ـ ١٨٩٤م وسببها شجار وقع بين خدم آل خليفة مع خدم آل بنعلي وانتقل الشجار إلى خلاف بين أولي الأمر فظعن آل بنعلي من البحرين ونزلوا الزبارة كما طلبوا من متصرف لواء نجد في الإحساء أن يرسل لهم الراية العثمانية فجعلوها فوق أعلامهم وحاول الشيخ عيسى بن علي أن يسترضيهم ليعودوا للبحرين فأبوا ، لا بل اجتمعوا تحت قيادة الشيخ سلطان بن سلامة آل بنعلي وانضم إليهم آخرون ونزلوا عند قلعة مرير التي بناها آل خليفة في الزبارة قديماً وعزموا للعبور على البحرين فتصدى لهم الشيخ عيسى والمعتمد البريطاني (كاسكين) واتجه لهم بأربع بوارج إنجليزية ولما رفضوا الانصياع عن فكرتهم لغزو البحرين ضربهم بالمدافع ففرقهم ودمر بعض أجزاء مدينة الزبارة وساق نحو ٩٥ سفينة من سفنهم وأحرقها وسلم رجالهم أسرى للشيخ عيسى الذي خلى سبيلهم وعفا عنهم فذهب الشيخ سلطان بن سلامة ليقدم شكوى ضد كاسكين لدى الدولة العثمانية ولكن في رأس تنورة قتله أحد أعدائه طلباً

لثأر قديم ، وسبب ذلك أنه حدث في عام ١٣١٨ هجرية ـ ١٩٠٠م أن قتل رجل في بر الظهران فذهب ابن عم المقتول واسمه (غيث) للأخذ بثأر ابن عمه فقتل واحداً من أهل القاتل ورجع إلى البحرين فلما جاء والد المقتول واسمه (أبومفتاح) طالباً القاتل من حاكم البحرين امتنع أن يسلم الشخص الذي دخل في حمايته كعادة العرب وإنما أعطى لوالد المقتول دية من المال وفرساً وحُلة ووعده بالكرامة في كل عام فرجع الوالد مظهراً السرور ومبطناً الحقد. وكان الشيخ سلمان بن دعيج في بر الظهران وقد ذهب إليها للقنص ومعه كعادته ٢٥ من معيته ومنهم (غيث) المذكور فهجمت عليهم سرية من أهل المقتول وهم نيام فقتل الشيخ سلمان بن دعيج وابنه دعيج وابن أخيه الشيخ عبد الرحمن بن راشد بن دعيج ومعهم ٢٢ شخصاً ولم ينج منهم إلا بشر ابن الشيخ سلمان بن دعيج الذي قتل اثنين منهم وكان أحدهما ابن مفتاح وعاد إلى البحرين ليخبر عن مقتلهم وظعن العدو خوفاً من أخذ الثأر ولم يعرف محلهم وسميت هذه بذبحة سلمان بن دعيج. وطلب الشيخ عيسى بن علي من الباليوز في البحرين (مكنزي) أن تكون محاكمة الأجانب من قبل الباليوز أما القضايا التي تكون بين الأجانب والرعايا البحرينيين فيلزم المناظرة بين الشيخ والباليوز. وفي ١٣٢٣هجرية ـ ١٩٠٥م نفي الشيخ علي بن أحمد بن علي بن خليفة آل خليفة وهو ابن أخ الحاكم وذلك بسبب تافه وهو نتيجة لمشاجرة حدثت بين خادم الشيخ علي وخادم لتاجر ألماني يعمل في البحرين ولما نظر الشيخ علي في قضية الخادمين رأى أن خادم الألماني مخطئ فضربه الشيخ علي فاستغاث خادم الألماني بصاحبه فجاءه الألماني وأساء الأدب بلسانه مع الشيخ علي حتى أغضبه فلطمه الشيخ فعظمت المسألة فرفع الألماني شكايته إلى المعتمد البريطاني في البحرين وتوجه الشيخ علي إلى قطر كعادته وبعد التحقيق حكم المعتمد على الشيخ علي غيابياً بعدم دخوله البحرين لمدة خمسة شهور ولم يبلغ الشيخ علي بالحكم وقد عاد إلى البحرين فرآه الألماني ورفع شكواه إلى دولته وتخابرت السفراء وقررت بريطانيا نفي الشيخ علي خمس سنوات فذهب الشيخ علي إلى قطر ولكن المعتمد (كاسكين) دخل بيت الشيخ علي بدون إذن الحاكم وأحرق أثاثه وأحرق سفنه وصادر أسلحته وخيله وإبله وأنعامه وعرضها للبيع

في البحرين فلم يشترها أحد فأمر المعتمد بإرسالها إلى بر عمان فبيعت هناك وجاءت ست بوارج لحصار البلد ولما خشي الشيخ علي من الفتنة سلم نفسه للمعتمد فأركبه ومعه ثلاثة من حاشيته في بارجة حيث سجنوا فيها شهراً ثم أنزلوا في بومباي وبقوا ثلاث سنوات حتى أذن لهم بالرجوع فقابل أهل البحرين الشيخ علي بالترحاب والهدايا وسميت هذه الظلامة (سنة علي بن أحمد) وكانت عودته في رجب ١٣٢٦هجرية ــ ١٩٠٨م[٦٦].

وأعلن شيخ البحرين منع دخول وبيع الأسلحة للبحرين وأن جميع السفن المتجهة للبحرين معرضة للتفتيش وستصادر الأسلحة إذا وجدت فيها . وفي ٢٩ يوليو ١٩١٣م قدم مشروع اتفاق إنجليزي ـ عثماني خاص بمنطقة الخليج وبموجب ذلك فقد نصت المواد الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة من الاتفاقية المذكورة على أن تنفي الحكومة العثمانية جميع مطالبها على جزيرة البحرين بما في ذلك جزيرتي لبينة العليا والسفلى وتعترف باستقلال مقاطعة البحرين وتعلن بريطانيا من جانبها بأنه ليست لديها أية رغبة في ضم جزائر البحرين إلى مقاطعاتها . ويؤكد الجانبان العثماني والبريطاني على أن شيخ البحرين لايأخذ من الرعايا العثمانيين ضرائب في مصايد اللؤلؤ التابعة له وأن يعتبر رعايا شيخ البحرين أجانب في الممتلكات العثمانية .

المعتمدون السياسيون البريطانيون

المعاصرون لحكم الشيخ عيسى بن علي آل خليفة

(في البحرين)

كاسكين جون كالكوت ١٩٠٠ ـ ١٩٠٤م .

بريدو فرانس بلفيل .

الوكيل السياسي في البحرين ١٩٠٤ ـ ١٩٠٩م .

المقيم في بوشهر ١٩٢٤ ـ ١٩٢٧م .

تاريخ الميلاد ٢٦ نوفمبر ١٨٧١م .

إسم أبيه إف دبليو بريدو أندي كان مقيماً بين ١٨٧٦ و١٨٧٧م متخرج في كلية مارلبورو .

دخل الجيش الهندي في ١٨٩٠م .

اسم زوجته كونستانس ميري .

توفّى في لندن في ٦سبتمبر ١٩٣٨م .

ماكنزي شارلس فريزر .

الوكيل السياسي في البحرين ١٩٠٩ ـ ١٩١٠م .

تاريخ الميلاد ٢١ سبتمبر ١٨٨٠م .

انضم إلى المدفعية ١٨٩٩م في الهند .

أحيل إلى المعاش ٢٧ أغسطس ١٩٢١م .

توفى ٥ سبتمبر ١٩٥٥م .

ألف كتاباً باسم (قصص إيرانية غريبة) .

نوكس ستيوارت جورج .

الوكيل السياسي في البحرين ١٩١٠ - ١٩١١م .

المقيم المؤقت ١٩٢٣م .

ولد في ٧ أكتوبر ١٨٦٩م .

مؤلف ممتاز في المواضيع القانونية .

درس في كلية إليزابث وتخرج في كلية ساند هيرست .

توفًى ١١ ديسمبر ١٩٥٦م .

لوريمر دافيد لوكهارت روبرتسون (ليس هو مؤلف دليل الخليج) .

ولد في ٢٤ ديسمبر ١٨٧٦م .

دخل الجيش ١٨٩٦م .

الوكيل السياسي في البحرين ١٩١١ - ١٩١٢م .

توفى ٢٦ فبراير ١٩٦٢م .

تريفور آرثر بريسكوت .

الوكيل السياسي في البحرين ١٩١٢ - ١٩١٤م .

توفى ٤ إبريل ١٩٣٠م .

كيز ترنس همفري .

الوكيل السياسي في البحرين ١٩١٤ - ١٩١٦م .

ولد في ٢٨ مايو ١٨٧٧م .

تخرج في كلية ساند هيرست ١٨٩٧م .

توفي ٢٦ فبراير ١٩٣٩م .

ستيوارت هيوغ .

الوكيل السياسي في البحرين ١٩١٦م .

سريع الغضب لدرجة الجنون المؤقت .

توفى ٢٦ يونيو ١٩٣١م .

فول ترنشارد كرافن ويليام .

الوكيل السياسي في البحرين ١٩١٦م .

الف كتاباً باسم الأسفار في الشرق الأوسط .

توفى ٢٣ فبراير ١٩٤٠م .

لوخ برسي جوردن .

الوكيل السياسي ـ البحرين ١٩١٦ ـ ١٩١٨م ، المقيم في البحرين ١٩٣٢ ـ ١٩٣٧م، ولد ١٨٨٧م .

تخرج في كلية ساند هيرست ١٩٠٥م .

توفي ١٥ سبتمبر ١٩٥٣م .

براى نورمن فيبير إيفلين .

الوكيل السياسي ـ البحرين ١٩١٨ ـ ١٩١٩م .

تقاعد في ١٩٢٣م .

ديكسون هارولد باتريك .

الوكيل السياسي ـ ١٩١٩ ـ ١٩٢٠م .

ولد في ٤ فبراير ١٨٨١م .

ألف عدة كتب .

توفى ١٤ يونيو ١٩٥٩م .

ديلي كلايف كيركبا تريك .

الوكيل السياسي في البحرين ١٩٢١ - ١٩٢٦م .

ولد في ٣ إبريل ١٨٨٨م .

توفى في ١٧ سبتمبر ١٩٦٦م .

مالم جورج ليزلي .

الوكيل السياسي ١٩٢٥م .

ولد في ١٨٩٥م .

توفى ١٧ أكتوبر ١٩٧٨م .

باريت شارلز جونسون .

الوكيل السياسي ١٩٢٦ - ١٩٢٩م .

ولد في ٢٦ مايو ١٨٨٤م ، توفى في ١٢يوليو ١٩٣٣م بسبب السرطان .

إلبن ريجينالد جورج إيفيلين .

الوكيل السياسي من ١٩٢٧ -١٩٢٧م و ١٩٤٠ - ١٩٤٢م .

تقاعد في ١٩٥٠م .

برايور شارلز جوفري .

الوكيل السياسي من ١٩٢٩ -١٩٣٢م .

المقيم من ١٩٣٩ - ١٩٤٦م .

ولد في ٩ ديسمبر ١٨٩٦م توفى في ١١ أكتوبر ١٩٧٢م .

المعتمدون السياسيون البريطانيون

المعاصرون لحكم الشيخ عيسى بن علي آل خليفة

في البحرين للفترة ما بين ١٩٠٠ - ١٩٣٢م

جون كالكوت(جاسكن)	معتمد مساعد	فبراير ١٩٠٠ - أكتوبر ١٩٠٤م
كابتن فرانس بريفل(بريدو)	معتمد	أكتوبر ١٩٠٤ - مايو ١٩٠٩م
كابتن شارلز فريزر(مكنزي)	معتمد	مايو ١٩٠٩ - نوفمبر ١٩١٠م
ميجر ستيوارت جورج(نوكس)	معتمد	نوفمبر ١٩١٠ - ابريل ١٩١١م
كابتن دافيد لوكهارت روبرتسون (لوريمر)	معتمد	أبريل ١٩١١ - نوفمبر ١٩١٢م
ميجور آرثر بريسكوت(تريفور)	معتمد	نوفمبر ١٩١٢ - مايو ١٩١٤م
كابتن ترنس همفري(كيز)	معتمد	مايو ١٩١٤ - مارس ١٩١٦م
ميجور هيوغ(ستيوارت)	معتمد	مارس ١٩١٦ - مايو ١٩١٦م
كابتن ترنشاردكرافن(فول)	معتمد	يوليو- نوفمبر١٩١٦م (بالنيابة)
كابتن بيرسي جوردون(لوخ)	معتمد	نوفمبر ١٩١٦ - فبراير ١٩١٨م
جورج الكسندر(منغافين)	معتمد	مارس ١٩١٨ - ديسمبر ١٩١٨م
كابتن نورمن نابير إيفلين (بزاي)	معتمد	ديسمبر١٩١٨ - يونيو ١٩١٩م
ميجر هارولد ريشارد باتريك(دكسون)	معتمد	نوفمبر ١٩١٩ - نوفمبر ١٩٢٠م
ميجركلايف كيركباتريك(ديلي)	معتمد	يناير ١٩٢١ - سبتمبر ١٩٢٦م
كابتن جورج لزلي(مالم)	معتمد	مايو- نوفمبر١٩٢٥م (بالنيابة)

ميجر شارلز جونسون(باريت)	معتمد	سبتمبر ١٩٢٦ ـ أبريل ١٩٢٩م
كابتن ريجنالد جورج إيفلين(إلبن)	معتمد	أبريل ١٩٢٧ ـ نوفمبر ١٩٢٧م
كابتن شارلز جوفري(برايور)	معتمد	أبريل ١٩٢٩ ـ نوفمبر ١٩٣٢م
ليفتنانت كولونيل برسي جوردن(لوخ)	معتمد	نوفمبر ١٩٣٢ ـ أبريل ١٩٣٧م

المعتمدون والمقيمون البريطانيون
المعاصرون للشيخ عيسى بن علي آل خليفة
في الفترة ما بين ١٨٦٩ - ١٩٣٢م في بوشهر

الكولونيل لويس (بيلي) من نوفمبر ١٨٦٢ - أكتوبر ١٨٧٢م .

الكولونيل ادوارد شارلز (روس) من اكتوبر ١٨٧٢ - مارس ١٨٩١م .

الكولونيل وليم فرانسيس(بريدو)من مايو١٨٧٦ - ١٨٧٧ معاون للمقيم (بالنيابة) .

الكولونيل صموئيل باريت (مايلز) ١٨٨٥ إلى أكتوبر ١٨٨٦ (بالنيابة) .

الكولونيل أدلبرت سيسل (تالبوت) من ١٨٩١ - مايو ١٨٩٣م .

الكابتن ستيوارت هل (جودفري) من مايو ١٨٩٣ - يونيو ١٨٩٣م .

الميجر جيمس هايس (سادلر) من يونيو١٨٩٣ - يوليو ١٨٩٣م (بالنيابة) .

جيمس آدير (كراوفورد) من يوليو ١٨٩٣ - ديسمبر ١٨٩٣م .

ميجر جيمس هايس (سادلر) من ديسمبر ١٨٩٣ - يناير ١٨٩٤ (بالنيابة) .

كولونيل فردريك الكسندر (ولسن) من يناير ١٨٩٤ - يونيو ١٨٩٧م .

ليفتنانت كولونيل مالكولم جون (ميد) من يونيو ١٨٩٧ - أبريل ١٩٠٠م .

ليفتنانت كولونيل شارلز آرنولد (كمبل)من أبريل١٩٠٠- أبريل١٩٠٤م (بالنيابة) .

ميجر بيرسي زكريا (كوكس) من أبريل ١٩٠٤ - ديسمبر ١٩١٣م .

ميجر آرثر بريسكوت (تريفور) من أغسطس ١٩٠٩ - مارس ١٩١٠م .

جون جوردن (لوريمر) من ديسمبر ١٩١٣ - فبراير ١٩١٤م

الكابتن ريشارد لوكنجتون (بردوود) من فبراير ١٩١٤ - مارس ١٩١٤م

ميجر استيوارت جورج(نوكس) مارس ١٩١٤ - نوفمبر ١٩١٤م

ميجر برسي زكريا (كوكس) من يناير ١٩١٥ - أبريل ١٩١٥م

ميجر آرثر بريسكوت (تريفور) أبريل١٩١٥- نوفمبر١٩١٧م (معاون مقيم)

جون هيوغو هيبرن (بل) من ديسمبر ١٩١٧ - سبتمبر ١٩١٩م (معاون مقيم)

ميجر سيسل هاملتون(جابرييل) سبتمبر١٩١٩- نوفمبر١٩١٩م(معاون مقيم)

ليفتنانت كولونيل آرثر بريسكوت (تريفور) من نوفمبر ١٩١٩ - أكتوبر ١٩٢٠م (معاون مقيم)

ليفتنانت كولونيل السير أرنولد تالبوت (ولسون) من أكتوبر ١٩٢٠ - نوفمبر ١٩٢٠م (بالنيابة)

ليفتنانت آرثر بريسكوت (تريفور) من نوفمبر ١٩٢٠ - أبريل ١٩٢٤م

ليفتنانت كولونيل ستيوارت جورج (نوكس)أبريل١٩٢٣- أكتوبر١٩٢٣ (بالنيابة)

ليفتنانت كولونيل فرانس بيفل (بريدو) من أبريل ١٩٢٤ - يناير ١٩٢٧م

ليفتنانت كولونيل شارلز جلبرت (كروستويت) من يونيو ١٩٢٥ - أكتوبر ١٩٢٥م (بالنيابة)

ليفتنانت كولونيل السير ليونل باركلي(هاورث)من يناير١٩٢٧ - نوفمبر١٩٢٨م

السير فريدريك وليم (جونستن) من نوفمبر ١٩٢٨ - أبريل ١٩٢٩م

ليفتنانت كولونيل سيرل شارلز جونسون (باريت) من أبريل - نوفمبر ١٩٢٩م

ليفتنانت كولونيل هيوغ فنسنت (بسكو) من نوفمبر ١٩٢٩ - يوليو ١٩٣٢م

ليفتنانت كولونيل ترنشارد كرافن (فول) من يوليو ١٩٣٢ - أغسطس ١٩٣٩م

الهوامش

(*) رسالة من شيخ أبوظبي إلى بيلي رقم ١٩٤/٨٥ أ /ص١١ مؤرخة في ٧ديسمبر ١٨٦٩م و١٩٤/٥٧٨/ص١٢ من المقيم إلى قائد السفينة كلايد مؤرخة في ١٣ ديسمبر ١٨٦٩م و١٩٤/٥٠ ـ٥١/ص٣ مؤرخة في ٢٨ يناير ١٨٧٠م .

(١) لوريمر ١/٢٧٠ (القسم التاريخي)

(٢) الرسالة من ولاية بغداد مؤرخة في ٤ ذي الحجة ١٣٨٥ هجرية الموافق ١٨ مارس ١٨٦٩م .

(٣) ار/١٥/٢/٢٩/ مؤرخة في ٣مايو ١٨٧٠م .

(٤) ار/ال/بي/اس/١٠/٦٠٦/ص٣ /١٤عام ١٨٦٨م/وانظر آر/١٥/٢/٢٤ اي/٦/ ص١٣.

(٥) لوريمر ص١٣٦٠ .

(٦) ١٩٤/٥٠ ـ ٥١ / ص٣ مكتب الهند بلندن إلى الحاكم بالهند بتاريخ ٢٨ يناير ١٨٧٠م ورسالة من الكولونيل هربرت إلى حكومة بومباى ١٩٤/١٣٢/٤ ـ٥/ ص٢١ مؤرخة في ١٤ أبريل ١٨٧٠م .

(٧) آر/١٥/٢/٢٩ اي/٦ رسالة مؤرخة في ١٠ مارس ١٨٧٠ الموافق ٧ ذو الحجة ١٢٨٦هجرية . وبرقية رقم ٤٤٨٢٢ دفتر ٣٩٩/٢ مؤرخة في ٦ كانون الثاني ١٢٨٧ هجرية .

(٨) دفاتر إرادة داخلية تلغراف رقم ٤٤١٤٢ مؤرخة في ١٥ ربيع الآخر ١٢٨٨هجرية

(٩) ٣٣٧ ا/ في ٦ جمادى الأولى ١٢٨٨هجرية

(١٠) دفتر العينيات ٨٥١ رقم ٤/٢١١ بتاريخ ١٥ رجب ١٢٨٨هجرية

(١١) لوريمر ١/٣٧٠ [القسم التاريخي]

(١٢) لوريمر ٣/١٣٦٠

(١٣) ١٩٤/٤٤/ ص٣٥ بتاريخ ١١مايو ١٨٧١م و١٩٤/٢٢١/ ص٥١ في ١٦ مايو ١٨٧١م ورسالة من دائرة الهند إلى الخارجية رقم آر/١٥/٥/٢٦٧ ص٦٠٥ مؤرخة

في ١٩ مايو ١٨٧١م . ورسالة مؤرخة في ٢٤ مايو ١٨٧١م/ ص٤٥/١٩٤/١٥٣/١٧

(١٤) ملاحظات الكابتن ت ـ داوتي / الفصل السادس ص٦٥ سنة ١٨٧١م

(١٥) التحفة النبهانية ص٢٣٩ ـ ٢٤٠ وانظر ١٩٤ /٢١٦٩/١٤٧/ ص٤٢ بتاريخ ٢٦ مايو ١٨٧١م

(١٦) ١٩٤/٢٢٤/ ص٥٢ رسالة في ١٨ مايو ١٨٧١م من هربرت إلى الكولونيل بيلي ١٩٤/١٤٧/٢١٦٩/ص٤٢ بتاريخ ٢٦ مايو ١٨٧١م. وفي العام١٢٨٨هجرية حصل الضرب الثاني وهو مرض الطاعون الذي انتشر في البحرين. [التحفة النبهانية ص٢٤١]

(١٧) أمين سعيد / تاريخ الدولة السعودية ١٧٢/٢ وتحفة المستفيد ص١٦٨ وبرقية رقم ٣٢٨ ميك ١٩٤ و لوريمر ٣/٧ رسالة رقم م /٢١٤ ص٧٢/٢٣/١٦٣/١٩ سي ٢٠٠ آ . ومقابلات شخصية . و/٣٥ ـ ب ر ـ ٢ ص ١٠٢٦ فلم ١٥٥/١٢٥٥/٣٦٩/١٨٧١ في ١٣ نوفمبر ١٨٧١م ـ ٢٩ شعبان ١٢٨٨هجرية

(١٨) ال/بي/اس/٥/٢٦٧ مجلد ٩/ص٣٧٨ في ١٩ مايو ١٨٧١م الموافق ٢٠ صفر ١٢٨٨هجرية

(١٩) ١٩٤/٢٥٩/ ص٦٢ بتاريخ ٢٦مايو ١٨٧١م

(٢٠) ١٩٤/ الملحق ٢٥٥/٢/ ص٥٨ بتاريخ ١٩ مايو ١٨٧١م

(٢١) ١٩٤/١٥٣/١٧/ ص٤٥ من الكولونيل هربرت إلى حكومة الهند في ٢ مايو١٨٧١م

(٢٢) ١٩٤/٢٥٨/ ص٦١/ بتاريخ ٢٦ مايو ١٨٧١م

(٢٣) البرقية رقم ٤٤١٩٦/ إرادة داخلية بتاريخ ١٩ ربيع أول ١٢٨٨هجرية الموافق ٢٦ مايو ١٢٨٧م ـ ش ق/١٠/٦/١٨٧١م

(٢٤) من اسكنجي إلى السلطات العثمانية ١٩٤/٢٢٥/ ص٣٨ في ٢٦ مايو ١٨٧١م و١٩٤/١٥٧/ ص٤٦ في ٢٧ يونيو ١٨٧١م و ١٩٤/٢٨٠/ ص٦٤/ في ٧ أغسطس ١٨٧١م

(٢٥) من سكرتير حكومة الهند إلى الكولونيل بيلي ١٩٤/٢٣٦/ ص٥٧/ في ٢٧ مايو ١٨٧١م

(٢٦) من بيلي إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة ١٩٤/٢٩٩/ ص٦٣/ في٣١ مايو ١٨٧١م

(٢٧) ٣٦ ـ ي ر ـ ٢ ص ١٧٣ فيلم ١٥٥/ ٥٩/ بتاريخ ١٣ يونيو ١٨٧١م ـ ٢٤ ربيع أول ١٢٨٨هجرية

(٢٨) إرادات داخلية /تلغراف من نافذ باشا إلى مدحت باشا برقم ٤٤١٤٢/ في ١٥ ربيع آخر ١٢٨٨هجرية ـ يوليو ١٨٧١م

(٢٩) من حكومة الهند إلى حكومة بومباي ١٩٤/٢٧/ ص٦٧ في ١٨ يوليو ١٨٧١م

(٣٠) من المقيم إلى بيلي ٣٠٧/١٩٤/ ص٨٠ في ٢٠ يوليو ١٨٧١م
(٣١) من حكومة بومباي إلى سكرتير الحكومة البريطانية ٣٢١٤/١٩٤/ ص٤١ في ٣٠ يوليو ١٨٧١م
(٣٢) من الكولونيل بيلي إلى القبطان دوتي ٣٤٦/١٩٤/ ص٩٥ في١٩ أغسطس ١٨٧١م
(٣٣) رسالة من ميرزا أبو القاسم إلى المقيم ٢٩٥/١٩٤/ في ٢٢ أغسطس ١٨٧١م الموافق ٥ جمادى الثاني ١٢٨٨هجرية
(٣٤) نص رسالة ميرزا أبو القاسم إلى المقيم ٢٩٧/١٩٤/ في ٢٦ أغسطس ١٨٧١م الموافق ٩ جمادى الثاني ١٢٨٨هجرية وانظر دفتر العينيات ص٨٥١ رقم ٣٧٣ من الباب العالي إلى والي بغداد بتاريخ ٦ جمادى الأولى ١٢٨٨هجرية
(٣٥) من غوتري إلى بيلي ٢٩٩/١٩٤/ ص٧٥ في ٢٧ اغسطس ١٨٧١م و١٩٤/ ٢٩٥/ ص٧٢ في ٢٨ أغسطس ١٨٧١م
(٣٦) ٣٥/ ب ر /٢فيلم ١٥٥ ص٨٦٠ في ١٤ سبتمبر ١٨٧١م والتحفة النبهانية ط١/١٣٣
(٣٧) ٣٥ ـ ب ر/٢/ ص٨٦٥ فيلم ١٥٥ في ١٦ سبتمبر ١٨٧١م
(٣٨) ٣٥ ب ر/٢/ ص٨٤٩ فيلم ١٥٥ في ٢٢سبتمبر ١٨٧١م ـ ٧ رجب ١٢٨٨هجرية
(٣٩) ٣٥ ب ر /٢ / ص٨٧٣ فيلم ١٥٥ في ٢٦ سبتمبر ١٨٧١م
(٤٠) من بيلي إلى حكومة بومباي ١٥٥/ ص٨٥٦ /١٩٤/٣٥٠/ ص٩٦ في ٢٩ سبتمبر ١٨٧١م و١٥٥/٩٢٩/ في ٣٠ سبتمبر ١٨٧١م
(٤١) من حكومة بومباي إلى حكومة الهند ٥١٧٣/١٩٤/ ص١٠٠ في ٢٧ أكتوبر ١٨٧١م وانظر: لوريمر/ ص١٣٦١ وانظر: رسالة من الشيخ عيسى إلى مدحت باشا رقم ال بي اس ١٩/٩/ ص٤٣٥/٧/١٧٨٧ في ٢٦ نوفمبر ١٨٧١م
(٤٢) لوريمر / ص١٣٦٢ و ١٥٥/١٠٢٧/ ص١٣٣ في ١٤ نوفمبر ١٨٧١م
(٤٣) ٣٥ ب ر /٢ فيلم ١٥٥ ص٩٨٣ /١٢٢٧ /٣٥٦/ في أول نوفمبر ١٨٧١م الرسالة من بيلي إلى حكومة بومباي
(٤٤) ٣٣٧/أ/ أمر سلطاني صادر بتاريخ ٦جمادى الأولى ١٢٨٨هجرية الموافق ٢٥ يوليو ١٨٧١م
(٤٥) ٣٥/ب ر /٢ فيلم ١٥٥ / ص١٠٣٢ ـ ١٠٣٣/١٢٥٧/٣٧١/ من الكولونيل بيلي إلى حكومة بومباي ٢٣ نوفمبر ١٨٧١م وانظر الوثيقة رقم ال بي اس/٩/١٩
(٤٦) لوريمر أ/١٣٦٣
(٤٧) من كاتب الأنباء إلى المقيم ٢٧٠/٥/ ص٢٥٣ بتاريخ ١٢ ذي الحجة ١٢٨٨هجرية ـ ٢٢ فبراير ١٨٧٢م وانظر الوثيقة ال بي اس /٩/١٩
(٤٨) من كاتب الأنباء إلى المقيم ٢٧٠/٥/ ص٢٥٤ بتاريخ ١٤ ذي الحجة ١٢٨٨هجرية ـ ٢٤ فبراير ١٨٧٢م

(٤٩) ال /بي /اس /١٩/٩/ ص٤٣٥ من الشيخ عيسى بن علي آل خليفة إلى مدحت باشا بتاريخ ١٦ رمضان ١٢٨٨هجرية ـ ٢٢نوفمبر ١٨٧١م / ورسالة مؤرخة في ١٢ رمضان ١٢٨٨هجرية ـ ٢٦ فبراير ١٨٧١م

(٥٠) خارجية ٦/ في ٢١محرم ١٢٨٩هجرية / الموافق في ١أبريل ١٨٧٢م

(٥١) ١٦ خ/في ٢٩ صفر ١٢٨٩هجرية ـ ٩مايو ١٨٧٢م

(٥٢) ال بي اس /٨٢/٣/ ص٩٣ من دائرة الهند [غرانت دوف] إلى خارجية لندن في ٣٠ يوليو ١٨٧٢م

(٥٣) ال بي اس /٢٧٢/٥/ المجلد ١٤ الجزء ٣ بي٥٤٧/ رقم٤٧ ـ ١٠ في ٢٥ يناير ١٨٧٣م

(٥٤) ٣٥/خ/ في ٣١ تشرين أول ١٨٧٢م ـ ١٢٨٩هجرية و٣٤/خ و ٣٣/خ

(٥٥) ٢٢/خ/٣١٤ في ١٨٧٣م

(٥٦) ال/بي/اس/٩/٦٢ في ٢٦ مارس ١٨٧٥م

(٥٧) سالدانها القسم الثاني ص٥٦ في ٢٧ أكتوبر ١٨٧٣م و١٢٨ و١٢٩ ورسالة رقم ١١٩١ ـ ١٤٧ في ١٩ سبتمبر ١٨٧٣م وانظر الرسالة المؤرخة في ١٢ ديسمبر ١٨٧٤م من [روس] إلى شيخ البحرين . ومن سجلات أخبار قطر رسالة من روس إلى حاكم البحرين مؤرخة في ٢٢ فبراير ١٨٧٥م

(٥٨) رسالة من شيخ البحرين إلى الكولونيل روس مؤرخة في ٤ مارس ١٨٧٥م

(٥٩) لوريمر ٢٤٠/٣ القسم التاريخي . و ال بي اس/٦٤/٩ ص١٢٩٢ في ٢٦ نوفمبر ١٨٧٨م . و التحفة النبهانية ص١٣٣ و ٢٤٢ و٢٤٣

(٦٠) ٧/ع آ في ٢٢ديسمبر ١٨٨٠م ـ ١٩ محرم ١٢٩٨هجرية

(٦١) أي/أو/آر/٢٩/٢/١٥ ملف أي ٦ ص٩٤ المذكرة التي قدمها المعتمد السياسي في البحرين إلى المقيم في الخليج في ٧مارس ١٨٨١م

(٦٢) أي/أو/آر/٦/٢٩/٢/١٥ ص١٢١ في ٤مايو ١٨٨٤م / داخلية ٢٦٥/١٨١٦ الشورى في ١٩ رجب ١٣٠٨ هجرية

(٦٣) آر/١٨٤/١/١٥ في ١٩ جمادى الثانية ١٣٠٦هجرية ـ ٢٠ فبراير ١٨٨٩م

(٦٤) ٨/٤/آ في ١٣ مارس ١٨٩٢م ـ ١٤ شعبان ١٣٠٩هجرية

(٦٥) ١٥/٤/آ في ١٦ يوليو ١٩٠٩م ـ ٢٨ جمادى الثانية ١٣٢٧هجرية . التحفة النبهانية ص٢٤٤ و٢٤٦ ـ ٢٤٨

(٦٦) ٩/٤/آ في ٣٠ أبريل ١٨٩٨م ـ ٨ ذوالحجة ١٣١٥هجرية

البحرين ** ميناء

مينارد أوين وليامز (ديسمبر ١٩٤٤)



من جنوب عبدان في إيران حلقنا فوق الخليج حيث بدأت الملاحة فيه لأن تاريخ الملاحة فيه أقدم من البحر المتوسط.

ورأينا من نوافذنا المخدوشة بالرمال، المياه المالحة ممزوجة بمياه الأنهار التي جرت عن طريق عدن.



رحلات

اللؤلؤ والبترول



وكان الرقيب الأول نائما على أرض الطائرة المصنوع من الألمنيوم وكان عريف متين جالساً أمامي وهو يقرأ باهتمام كتاباً في التاريخ كان قد أعد لاستخدام الجيش. وكان هذا الجندي الحديث يقرأ عن انصراف جيش الإسكندر الأكبر من الهند قبل ٢٢٧٠ سنة، وكان ذلك حدثا تاريخيا في الملاحة.

مالت الطائرة إلى جانبها قليلا وهبت الريح وشعر الجميع باليقظة ورأينا جزيرتين من جزر البحرين .

تقع المنامة، عاصمة البحرين في الركن الشمالي للجزيرة وتشرف عبر ممر مائي ضيق على المحرق وهي مدينة رئيسية تقع على جزيرة تحمل نفس الإسم وتقع غربها أم النعسان ومعظمها صحراء. وتساعد سترة المغطاة بالنخيل في مد الأنابيب إلى رصيف جديد في عرض الخليج.

وهناك جزر صغيرة أخرى تكاد تصبح غير مرئية عند ارتفاع المد، وهي شبه تكملة للأرخبيل وتقع داخل إبهام حمائي لقطر وهي غنية بالنفط.

وتعكس المياه حول البحرين تفاوتا كبيرا في لونها بسبب تباين الأعماق، ولا تصل المياه إلى عمق ١٠٠ قدم إلا خارج نطاق ٦٠ ميلا من سواحلها ورأينا مدينتين لامعتين تبدوان بيضاوين يربطهما ممر معبد طوله ميلان لمرور السيارات. وكانت المنامة خلفنا إلى حد ما ورأينا طائرة مائية بريطانية تسير بالقرب من خور القليعة كأنها حلية تجري على سطح من الزجاج.

وإلى الأمام قليلا كانت مدينة المحرق المكتظة بالسكان.

مهبط الطائرات المرجاني

كنا نتوجه إلى ميدان واسع من الرمال، ناعم كالفرش يقسم المحرق إلى قسمين. وقبل أن يتعلم الإنسان الطيران كانت الطبيعة قد أعدت هذا المهبط المرجاني على طريق نشط بين أوروبا الصناعية والشرق.

وأحيانا يظل هذا المهبط الطبيعي مغلقا لعدة أيام متتابعة بسبب المطر أو الرياح أو المد. وفي ديسمبر ١٩٤٤م كان يعمل لمدة ١٣ يوما فقط في الشهر.

ذات يوم رأيت جنودنا يدقون عمودا معدنيا كهربائيا وعثروا على الماء مباشرة. وتوجد لوحة أمام مبنى المطار تقول "الارتفاع قدم واحدة".

وكانت حول المبنى عدة ثكنات للجنود وحظائر للطائرات ومستشفى وكنيسة وبدالة وصالة للأكل وحظيرة للسيارات للمفرزتين، إحداهما للإنجليز، والأخرى للأمريكان. وجلس المتفرجون في المسرح الميداني في العراء وقد تغطوا بالبطانيات من مخازن الشعبين العظيمين وفي الصيف لم يظهر أي فرق بين الجنود الأمريكيين والطيارين البريطانيين في زيهم العسكري الخاكي المليء بالعرق.

من المطار ذهبنا بالسيارة على طريق ساحلي تحفه الأشجار بالمحرق وتنتشر على جانبيه برك

الماء الناتجة عن الأمواج المدية. وأثناء المد العالي تلقي البيوت خفيفة اللون ظلالها على الماء، كما توجد مراكب صغيرة ملونة أمام واجهات القصر. واثناء الجزر تظهر هذه المناظر كمقلب النفايات للمدينة.

عبرت الممر إلى البحرين. وحتى قبل مجيء النفط الذي حل محل اللؤلؤ مصدرا للدخل، اشتهرت البحرين كأغنى بلد من حيث دخل الفرد ، فلا يزيد عدد سكان الأرخبيل على ١٢٠،٠٠٠ نسمة، في حين بلغ دخل اللؤلؤ فقط ٩ ملايين من الدولارات سنويا.

والآن أصبحت البحرين أغنى من السابق بسبب عائدات النفط.

عرضت على السيدة جورج طلية الحجاب البحريني وهي التي صممته وقالت إن المرأة البحرينية تلجأ إلي السفور داخل بيتها فحسب.

الماء العذب

من البحر المالح

جلست في مكتب مذيع الأنباء وشربت الماء العذب الطازج المسحوب من البحر المالح. وشرح لي المذيع بأن البحرين تعني بحران لأن الماء العذب يوجد في أعماق البحر لكن البعض يفضلون كلمة البحرين. ويتدفق الماء العذب في قاع البحر بقوة، ويمكن للغواص أن يغوص إلى قاع البحر بكيس من الجلد، يملؤه بالماء العذب وفي الحقيقة فإن الماء الخليجي ليس مالحاً بنفس الدرجة كالماء في أعالي البحار. إذ تصب في الخليج مياه الرافدين ولا تدخل الملوحة إلى الخليج من هرمز بسبب ضيق مضيق هرمز وانحنائه.

أضاف المذيع قائلا بأنه قدم لي هذا الماء للشرب لأنه متأكد من نظافته، وإلا ماكان يعطيه لي كي أشربه، لأن الغواصين لايمارسون الإحتياط اللازم ويمزجون الماء بماء البرك، مثلما يعمل بائعو اللبن.

وهناك أسلوب آخر لجمع الماء العذب بواسطة البامبو، وهو اسطوانة من الخيزران تمد إلى مصدر تدفق الماء العذب في عمق البحر، وتنقل الماء إلى السطح.

أنا وجورج طلية كنا زميلي صف في الجامعة وكان يحمل في وسطه ساعة يدوية دقيقة وقد رتب لي أن أحضر المجلس الصباحي وأصور صاحب السمو الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة وهو يحمل خنجرا رسمياً مذهباً وفيه ساعة صغيرة دقيقة.

تغيرت الأوضاع منذ الانتصار في الحرب في أوروبا وشعرت ناقلات النفط بالطمأنينة. وأصبح خط الأنابيب بين كلكتا وكونمنج الذي نقلت أجزاؤه عبر جبال الهملايا عقارا فائضا لايملكه أحد لكن الملايين من الموتورات لاتزال تطلب الوقود ولا يمكن فصل الملكية من الضريبة الملكية، والويل لمن يحاول ذلك !

الشرفة الداخلية لمجلس صاحب السمو

أعرب لي صاحب السمو عن تقديره للصداقة مع الإنجليز والأمريكان، خاصة مع وصول أنابيب النفط من الشواطيء العربية إلى البحرين وكان عمال البناء يعملون من أجل مضاعفة سعة مصنع التكرير إلى ٦٠،٠٠٠ برميل يومياً، وذلك بالقرب من مبانٍ إدارية وسكنية في عوالي بجانب القبور المقببة الغامضة لأشخاص ماتوا في زمن ما قبل التاريخ.

لم يكن صاحب السمو مستعجلا، وكان مجلسه الأسبوعي متسماً بالوقار والهيبة. وعقد في الشرفة العليا في مبنى بلدية المنامة في مكان عالٍ ولكنه متصل بالسوق. ويلقى حتى الفلاحين الفقراء عناية منه.

وتجولت بين البائعين في السوق تحت نظر تابعي الشيخ سلمان فور خروجي من المجلس، وبعد أن صورت صاحب السمو. ولكن تصرفي هذا لم يكسبني معاملة متميزة من عامة الناس وعلى العموم ينظر المسلمون إلى التصوير بقدر من الشك والريبة.

ومن بين المبيعات المقبولة لدى الناس في السوق يمكن ذكر المنسوجات الملونة، سواء كانت قديمة أو جديدة وسعف النخيل لصنع مصائد السمك وجدران الأكواخ والصناديق المصنوعة من سعف النخل والدواجن ومستحضرات التجميل والتوابل عطرية الرائحة وبطاقات البريد التي تحمل صور روزفلت وتشرشل.

ومن بين الصناعات اليدوية تُذكر الحصر والطاولات وأغطية المائدة والفخار.

توجد شوارع جيدة في هذه الجزيرة النفطية تلائم السيارات والباصات وتكاد الحمير البيضاء لاتجد من يركبها.

ورأيت العمليات في مصنع التكرير واللهب المخيف الذي لايتعدى حدود الخطر بسبب عدم وجود الأكسجين فيه، وإلا حدث انفجار عنيف في المعمل. وبالعكس تستخدم الطاقة لتسيير الملايين من

المكابس وبعيدا في عرض البحر عُبئت السفن بالنفط بواسطة أنابيب تحت الماء. وفي جزيرة ستره الواقعة بين مصنع التكرير والناقلات كانت تعمل شاحنات عديدة لتمهيد ممر مرصوف إلى الرصيف في البحر.

العوالي المكيفة

زرت مدينة عوالي حيث يوجد رجال النفط ويصف الزوار من البلدان الباردة هذه المنطقة بأنها حارة للغاية تجتازها رياح شديدة الحرارة.

ويصف ماركو بولو مضيق هرمز قائلا أن «سكانه يغمرون أنفسهم في الماء حتى الذقن ويبقون في هذا الوضع حتى تتوقف الرياح.

توجد إمكانات كثيرة في العوالي مثل ميدان الجولف وملعب الكرة اللينة التي يلعبها الناس في الليل حتى في الصيف وهناك نادي بابكو وتوجد فيه مجلة " ناشيونال جيوجرافيك " التي تخبر العمال بما يحدث عبر العالم.

يمضي آلاف الأمريكيين فترة الصيف في المنامة أو المحرق دون آثار سلبية على صحتهم. وأنشأت شركة بابكو تسهيلات عديدة لتخفيض حدة الحرارة وجعل الحياة مريحة في هذه الجزر الحارة.

وبخصوص عائدات النفط يتم توزيعها مثلما توزع في أوكلاهوما في أمريكا. ويخصص نصيب للشيخ ويغطي هذا مصاريف ضيافته وهي بمثابة الضمان الإجتماعي عند العرب. ويعتبر الشيخ زعيما للمجتمع وعليه أن يوزع الهدايا على تابعيه وخدمه الذين يزيد عددهم على الآلاف وهم يتطلعون إليه للمساعدة في الأوقات القاسية.

ويخصص الثلث لاستثمارات دولة البحرين طويلة المدى ويخصص الباقي للمصاريف الإدارية مثل الشرطة والشوارع والتربية والتعليم.

يعتقد البعض بعد صناعة النفط أن البحرين قد تواجه مشكلة الانفجار السكاني يوما ما بسبب انخفاض الوفيات والتحسن في الأوضاع الصحية عموما والرخاء الاقتصادي في حين كانت البحرين في الماضي تستورد حتى الكيروسين والماء العذب وكانت إمكانياتها في الزراعة محدودة.

وقال لي أحدهم إن النفط سوف ينفد من البحرين يوما ما وقبل أن

نغادرها نريد أن نتركها في وضع أحسن مما كانت عليه.

سر القبور المقببة

لم يبدأ تاريخ البحرين بعد اكتشاف النفط فيها في عام ١٩٣٢م، فقد أبحر السندباد إلى هنا، وجاء هنا "ماركو بولو بالعروس الفاتنة "كوكاشين" التي أبحرت من كاتي لمدة عامين ثم تزوجت من ابن أخ خان إيران وهي في التاسعة عشرة من عمرها.

وبالقرب من مدينة النفط الحديثة تقع القبور المقببة لعصور ما قبل التاريخ التي ربما تعود إلى زمن قبل مغادرة أجداد الفينيقيين إلى صيدا من البحرين غير أن بعض المؤرخين يعارضون هذه النظرية.

وتشبه آلاف القبور قبور القرطاج المبكرة. ولم يوجد في القبور الصغيرة أي مصنوع معدني، ويبدو أن هؤلاء الأشخاص من صانعي القبور الغامضين كانوا يملكون الأسلحة البرونزية ويعتقدون باستمرارية الحياة بعد الموت.

رأيت آنية حجرية يعود تاريخها إلى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد حسب رأي المتخصصين في المتحف البريطاني، وكذلك وجدت داخل القبور نماذج من الزجاج من العصر الإسلامي للقرن العاشر. ولايوجد أي تفسير لتواجد أشياء في القبور يتفاوت تاريخها هذا التفاوت الكبير.

يعتقد البعض أن البحرين كانت مقبرة في فترة من الزمن، ويقول أن المنامة هي محل النوم، و"العوالي" تعني المرتفعات، و"المحرق" مكان للإحراق، وكلها تتعلق بطقوس الدفن.

وما يهمنا في العصر الحديث هو وجود الكائنات الحيوانية الميتة التي أدت إلى تكوين النفط والمحار الميت الذي شكل اللؤلؤ، والتكوين المرجاني الذي شكل مواد البناء.

يتم بناء جدران المنازل والحدائق بالألواح المرجانية المتواجدة في قاع البحر، وهكذا تحاصر العائلات نفسها بالهياكل المرجانية.

ولايوجد الخشب بكميات كافية لأغراض البناء، وهو غالٍ جدا لأغراض الوقود. وتشير الخرائط إلى النفط بصورة ماكينات الرفع ويوجد بعضها في وسط الجزيرة نصفها تحت الأرض وصماماتها لاتبدو بوضوح مع أنها تشير إلى آبار نشطة.

وتظهر بالقرب من مصنع التكرير تجمعات من فحم الكوك كحصيلة ثانوية من المصنع دون الدخان أو الرماد ولكنها مليئة بوحدات حرارية توفر الراحة والدفء في أيام الشتاء شديدة البرودة.

إن الاهتمام بتصدير النفط أدى إلى تجاهل تسويق الفحم، ونظرا لوجود مناطق واسعة خالية من الأشجار والفحم بالقرب من موانيء الشرق الأدنى توجد سوق للفحم.

ويصنع السماكون الفقراء أكواخهم من سعف النخيل.

وشاهدنا من الطائرة قطعاً زرقاء هي الحدائق حول الآبار في كل من المحرق وشمال البحرين. ونطاق الزراعة محدود جدا وتطعم الأبقار بالسمك.

وبالقرب من المطار في المحرق يسكن أحد إخوان الحاكم في بيت متواضع يشبه كابينا بجانب البحر. وهو معجب بجنودنا ويزور القاعدة الجوية رقم ١٢٦٧ كثيرا وعندما يقوم بجولة في البلد يدعو جنودنا ليركبوا معه كي تتاح الفرصة لإبنه راشد ذي اللحية ليتعلم النطق بالإنجليزية.

"أبوي"

قام راشد بدور المترجم بكل بساطة وكان جنودنا يخاطبونه "أبونا".

وكان راشد يخطط للمغادرة لينتسب للجامعة الأمريكية ببيروت عندما شاء القدر أن يتوفى سكرتير أبيه فاضطر أن يغير خطته ويتولى مهام السكرتير.

وعندما زارت الفرقة الموسيقية الأمريكية البحرين رحب بها الاثنان، الشيخ خليفة وابنه راشد وعرض كلاهما على أفراد الفرقة مرافقتهم في جولة في السوق.

والبحرين بلد يلبس فيه الرجال العباءة في حين أن بناتنا يلبسن البنطلون . وكانت الشقراء "جودي لين" تلبس عقالاعربيا على رأسها مع تاج مصنوع من فرو الكبش . وعندما ذهبت هذه البنت من الفرقة الموسيقية إلى السوق ، ابتسم التجار المسلمون ذوو الوقار ابتسامة عريضة. وتابعها طابور من البنين المعجبين بها وكأنهم ذيل وراء مذنب، وكان يبدو عليها الابتهاج وهي تساوم على شراء حذاء ملون وأحد الشالات المصنوعة من الكشمير.

عملية الغوص

من أجل اللؤلؤ

يكثر السمك في البحرين خاصة الروبيان لكن الصيد الذي يستحوذ على البحرينيين هو من أجل اللؤلؤ، ولقد علمت عندما وصلت إلى هنا بأنه يمكن للغواص في بعض الأحيان أن يحصد المحار في مياه لايزيد عمقها على الركبة. ويمارس البحرينيون صيد اللؤلؤ عندما يكون الماء دافئا وكانت قد مضت ستة شهور على موسم الصيد عندما وصلت إلى البحرين.

ولم تتح لي فرصة رؤية كمية من اللآليء ما عدا في أعناق المهراجات الهنود وهنا في البحرين يرجع الفضل إلى الراقصة "جودي لين" الجميلة التي اشترت منها وأعطت لي فرصة رؤيتها بكميات كبيرة.

أنا "وجودي" تسلقنا سلماً مهتزاً إلى مكان حيث عرض علينا تاجر كمية من اللآليء اللامعة في يده السمراء وقد أسقطتها "جودي" على مهل على قطعة من القماش الأحمر الذي كان في الأسفل في حين التقطت بعض الصور لها. إن حبة اللؤلؤ تنتج من احتكاك بين المحارة ودودة طفيلية أو أي دخيل خارجي وقد تصل قيمتها إلى ٤٠،٠٠٠ دولار.

وفي بعض الأماكن خاصة في اليابان يدخل الناس إلى المحار مادة مثيرة للأنفعال آملين أن تصبح حبة لؤلؤ، والنتيجة هي لؤلؤ صناعي. ولا يمكن إلا لقليلين من المهرة التميز بين اللؤلؤ الحقيقي والصناعي.

مرة استخدمت البحرين ١٠٠٠ سفينة و٢٠،٠٠٠ غواص، ونظرا لهذا الحجم الضخم فلا عجب أنها منعت استيراد اللؤلؤ الصناعي أو دخوله إلى البحرين.

وقد تعب الغواصون من حياتهم البائسة بسبب ديونهم المستمرة والفقر والاستغلال وأملهم العقيم في الحصول على الثروة، فالتحقوا بشركة النفط حيث يحصلون منها على رواتب منتظمة وانخفض عدد السفن المستخدمة لصيد اللؤلؤ إلى أقل من ٣٠٠ سفينة.

إن البحرين جزيرة منخفضة وأعلى مرتفعاتها يسمى جبل الدخان ولا يزيد ارتفاعه على العمود التذكاري في واشنجتون، وقد تسلقت منارة جديدة لامعة وعليها أشكال تشبه أحجية الكلمات المتقاطعة ومن هناك استطعت أن أنظر إلى معظم

الجزيرة وفي أسفلها المنامة المكتظة بالسكان والبيوت.

ورأيت هنا وهناك أبراجا عالية شيدت لتهوية البيوت في الصيف. وعندما شاهدتها تذكرت ملاحظات ماركو بولوعن هرمز فقال: "رأيت في كل بيت أبراجا لتهوية طوابقه المختلفة متى ما أرادوا ذلك".

وبعد الأبراج الصحية الهوائية هذه زرت مكانا صحيا آخر للدكتور بول هاريسون الذي يعالج الفتق بعملية خاصة في أصل الفخذ.

وشاهدت أثناء العملية أسلوبا حديثا يعتمد على استخدام نسيج رفيق محروق بالبترول في المكان المصاب، وكان ممرض محلي حافي القدمين يساعد الدكتور بإلقاء قطرات الكلوروفورم المخدر على نسيج القناع.

إن الدكتور عضو جمعية "ناشيونال جيوغرافيك" ويوجد في البحرين ٢٦ عضوا للجمعية، وقام الدكتور بتدريب عدد من مساعديه من بين المحليين والأصدقاء والأقارب على التمريض وإطعام المرضى ..الخ. ويترك البحرينيون أحذيتهم خارج المستشفى مما يساعد على الاحتفاظ بالهدوء وعدم الضوضاء وتساعد البيئة العائلية السائدة في المستشفى على الشفاء العاجل وفضلا عن ذلك يتعلم عدد من البحرينيين أهمية النظافة ومباديء التمريض.

ويجتمع الأصدقاء المثقفون عادة على مائدة الشاي لدى السيدة هاريسون وقد تعلمت نطق بعض الكلمات العربية بالحروف اللاتينية . وقد زارني أحد أصدقاء السيدة هاريسون ولديه دولاب ارتفاعه ٥ أقدام وفيه مجلدات من مجلة "ناشيونال جيوغرافيك" واسمه أحمد فخرو وأتذكر اسم ضيف آخر وهو "حسين يتيم".

شعبية الصناعات الأمريكية

يحسد التجار تاجر الجملة حسين يتيم الذي يتمتع بحق مطلق في استيراد البضائع الأمريكية ومنها مصنع الثلج وأجهزة التكييف والراديو والجرارات والبضائع الأخرى . ويقول يتيم أن البحرينيين يفضلون السلع الأمريكية مثل البرادات ويعرب عن أمله ألا يحدث شيء قد يعرقل هذه التجارة .

قام حسين يتيم بزيارة للولايات المتحدة مصطحباً أحد شيوخ البحرين وهو يسكن في مبنى وسط حديقة مظللة بالقرب من قلعة برتغالية تعود

للقرن السادس عشر. وقد وزع هذا الأب الكريم كافة ثروته بين أبنائه. واحد منهم في شرطة البحرين، وعند زيارتي له في مكتبه الواقع في برج عالٍ أبيض اللون شعرت بالطمأنينة على الرغم من أن حارسا يلبس عمامة حمراء كان واقفاً منتصباً متصلبا. ولم يكن هذا الانجذاب نحوه مجرد وجود أصدقاء مشتركين لنا في بيروت، بل كانت زمالتنا ناشئة عن تشابه أفكارنا وتطابق رؤيتنا.

يسكن الشيخ محمد بن خليفة آل خليفة في بيت بالقرب من البحر. والشيخ حديث في أفكاره ومتخرج في الجامعة الأمريكية ببيروت. وهو لايقبل النظرية المبسطة بأن الرمال المرجانية لاتنبت الأعشاب والأزهار والخضراوات. يقوم الشيخ بجولات سريعة عبر المغاصات الشهيرة ويجيء بسماد من إحدى الجزر وينشره في حديقته ويجتهد فيها كرياضة بدنية.

وقد قمت بزيارة أبيه بمرافقة أخيه، واسم الأب الكامل هو صاحب السمو الشيخ محمد بن عيسى آل خليفة.

تجولنا في حديقته وفيها أنواع من الفواكه اللذيذة ، ثم تناولنا الغداء وقد شرح لي هذا الشيخ الجليل تفاصيل زيارته لأمريكا التي قصرت بسبب نشوب الحرب، وأضاف بأنه في تلك البلاد البعيدة صادف أكبر حدث في حياته فقد التقى بالرئيس روزفلت في هايد بارك.



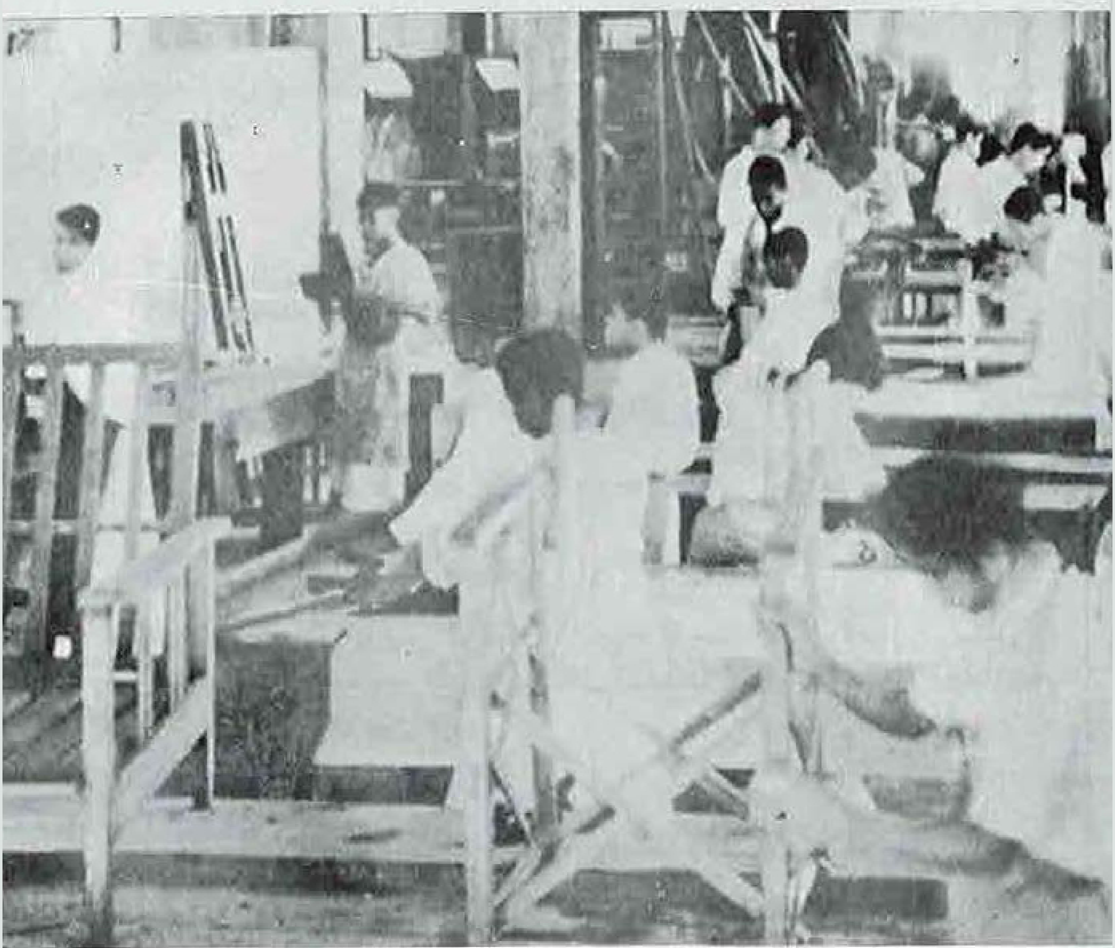
تقرير عن

التعليم الفني في البحرين

مع توصيات لتوسيع نطاقه

رفع إلى صاحب السمو

الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة



إعداد:

ج. ف. هوشنغس

مارس - ١٩٤٠م

أعد هذا التقرير في مارس ١٩٤٠م لرفعه إلى صاحب السمو الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة، حاكم البحرين آنذ. ونظراً لأن التقرير قُدّم في وقت كانت قد بدأت فيه الحرب العالمية الثانية منذ بضعة شهور فإن المقترحات اتي تضمنها التقرير اعتبرت طموحا وباهظة التكاليف.

مقدمــة

التأثيرات الثنائية في البحرين

====================

المدرسة الصناعية الحالية

هيئة الموظفين وتدريس الأعمال اليدوية، الرسم، إهمال العمل الأساسي، مبنى المدرسة، المعدات، التدريس داخل الصف، تطوير المدرسة الصناعية مستقبلاً.

أهداف المدرسة الصناعية

الاحتياجات الصناعية في البحرين، الأوضاع في شركة النفط، صناعات السوق والخدمات العامة، الخبرة الصناعية للطلاب.

البرنامج التدريبي المقترح

المجموعات المهنية، الصفوف المدرسية، الإنجليزية، الرياضة، الرسم، الدورة الإبتدائية، ساعات التدريس في الورشة، التمارين في الورشة، العمل التعاقدي في المدرسة، (أ) الحرف الهندسية، (ب) الحرف الخشبية، (ج) التمرين في حرفة البناء، (د) الحرف الكهربائية، استخدام مؤقت للطلاب السابقين في ورش المدرسة .

خلاصة المشروع وموجز المناهج

==========================

طلاب المدارس الصناعية

المؤهلات الدراسية عند الالتحاق، العمر ومستوى الذكاء، المدرسة الصناعية في إطار المشروع التربوي الجديد، توفير الطعام للطلاب، مزايا ترتيب الطعام، الطلاب من خارج المنامة، الانضباط، تكاليف الطعام، خصائص الطلاب العرب، برامج الإلتحاق والتخرج.

مدير المدرسة :

مؤهلات المدير، مرغوبية تعيين رئيس بريطاني للمدرسة.

هيئة التدريس :

ساعات الدوام، أسبقيات وواجبات هيئة التدريس، عدد الموظفين، الرواتب، الهند، مصر، سوريا، فلسطين.

توسعة مباني المدرسة :

حاجة ملحة للتوسعة، المخططات، مباني المدرسة، الورش، المثوى.

معدات المدرسة الصناعية :

معدات الورشة، الأثاث ومعدات المدرسة.

خاتمة

....

صاحب السمو

أتشرف بتقديم هذا التقرير حول التعليم الصناعي في البحرين مع اقتراحاتي لتطوير نظام للتدريب الفني يتمشى مع الحاجات الإقتصادية للبلاد، ويلائم النظام الجديد في التربية والتعليم الذي تم نفاذه أخيراً.

لقد علمت أن المطلوب في البحرين هو مساهمة أكثر من رعايا سموكم في الحياة الصناعية المتنامية في البلاد والانتفاع الأكثر من خيرات البلاد التي يحتكرها الأجانب حالياً.

إني في موافقة تامة مع اقتناع سموكم بأن توسيع التعليم الفني في أقرب وقت ممكن هو أحسن وسيلة لتحقيق هذا الهدف. ونظراً لأنني قد أكملت دراستي أخيراً عن جوانب التعليم الصناعي والتربية والتعليم في البحرين ذات صلة بالموضوع أستطيع أن أرفع لسموكم الاعتبارات والاقتراحات الآتية :

التأثيرات الصناعية في البحرين

أثناء العقدين الماضيين تعرضت الحياة الاجتماعية والاقتصادية في عدة بلدان في الشرق الأوسط إلى تغييرات جذرية يرجع فضلها إلى توفير تسهيلات جديدة ومصادر جديدة للطاقة وأنماط جديدة في الصناعة . وكانت هذه التغييرات بصفة عامة ، مفيدة للغاية، لكنها طرأت بشكل سريع مفاجيء حيث لم يستطع سكان هذه البلدان استيعاب العوامل الجديدة التي أثرت على أساليب حياتهم كثيراً ونظراً لعدم معرفتهم خلفية هذه التغييرات فلم تلعب شعوب الشرق الأوسط إلا دوراً صغيراً في الصناعات الجديدة والمشروعات التجارية التي أنشئت في بلدانهم. وإن كان هذا لا يتضح كثيراً في البحرين حيث تطورت عملية تشييد المباني والأشغال العامة وأدخلت الحرف الفنية إلى السوق ، وفوق كل هذا أبرزت النشاطات الواسعة لشركة النفط طلبات لخدمات عديدة لا يمكن للسكان المحليين أن يوفروها لأنهم ينقصهم التدريب والخبرة. فاستخدم الأجانب بأعداد

ضخمة في المهن المربحة التي تتطلب مهارات فنية وكفاءات تنفيذية ويشغل البحرينيون المناصب الصغيرة غير الفنية بمكافآت ضئيلة .

وإذا كنا نريد أن يلعب البحرينيون في المستقبل دوراً مهما في النشاطات الصناعية الحديثة فلابد من تدريب كوادرهم دون تأخير لأن التدريب يأخذ وقتا طويلاً في حين يستمر تجنيد الأجانب على قدم وساق. وهناك طلب متزايد لمهن فنية، وباستطاعة دائرة التربية والتعليم في حكومة سموكم أن توفر فرص التدريب عن طريق المدرسة الصناعية المقترحة. وإذا بذلنا الاهتمام أولا بأول بإعداد الطلاب البحرينيين في المهن الميكانيكية والكهربائية والنجارة والبناء فذلك يمهد مستقبلا الطريق إلى ترقيتهم إلى المناصب العليا كتطور طبيعي. ويمكن توفير التدريب العالي في المناصب التنفيذية والإدارية في مجال الصناعة دون عناء، ما دام يوجد أساس متين في أول الأمر لتوفير التدريب الصناعي الابتدائي في الدولة.

ومما يبعث بالطمأنينة أن موضوع التدريب الفني حصل فعلا على بعض الاهتمام في البحرين. وأن المدرسة الفنية الصغيرة في المنامة نالت نجاحاً لحد ما. ونظام التدريب فيها دوّن على أساس سليم غير أن عوامل مختلفة حالت دون أن يتطور التعليم والتنظيم بشكل سليم. وقد ساعدتني نتائج هذه التجربة الصغيرة في تقديم توصية لتوسعة المشروع لحد كبير وإني واثق بأن المشروع سينجح حتما في نهاية المطاف.

المدرسة الصناعية الحالية :

نظرا لعدم وجود مدير مستقل للمدرسة الصناعية، تدار المدرسة الكائنة في المنامة تحت إشراف المهندس الحكومي الذي بسبب ضيق الوقت المتاح له، اكتفى بتزويد المدرسة ببعض المعدات المفيدة للورش والقيام بالإشراف على الطلبة أثناء عملهم الصناعي. وهذا هو ما يحتاج إليه الطلبة في ممارسة حرفهم عملياً. ويرجع الفضل إلى جميع المسئولين المعنيين لعدم ضياع وقت الطلبة في أشغال تنقصها قيمة تدريبية أو فائدة مالية في منتجاتهم. وربما هذا هو السبب وراء الحماس والاجتهاد الذي تبديه أكثرية الطلبة في المدرسة. يظهر أن الطلبة يدركون فائدة عملهم ويمارسونه بجدية تامة رغم الأوضاع الغير مريحة حولهم، ورغم نقص المعدات في المدرسة. تستغرق الدورة التدريبية سنتين

ويلتحق الطلبة بالمدرسة في أي وقت في العام الدراسي. وقد أكمل عدد قليل منهم دوراتهم التدريبية ويظهر بأن مخدوميهم مرتاحون منهم.

هيئة التدريس وتعليم الأعمال اليدوية

تتكون هيئة التدريس من ثلاثة مدرسين سوريين، واحد منهم مسئول عن الأعمال المعدنية والميكانيكية والآخرين عن النجارة. ورغم أنهم على إلمام بحرفهم إلا أنهم يتجاهلون الترتيب والنظام الذي هو مطلوب في الحرفيين الأكفاء ويهملون الأعمال الوضيعة المتعلقة بالورش مثل الحرفيين الشرقيين الآخرين ولا يهتمون بها في تدريسهم . كما لايشجعون المتدربين علي الاهتمام بالنظافة والنظام. وإن عدم وجود المنظفين والعمال لايبرر تكديس القمامة والقذارة خاصة في الأماكن التي يتدرب فيها الشباب. وأن مستوى البراعة الحرفية في المدرسة لايستهان به رغم عدم توفير تمرينات مدرّجة لديهم.

ويبرهن هذا على أن المدرسين يعملون بإخلاص والشباب البحرينيين مثل شباب أي مكان آخر قادرين على ممارسة أعمال تتطلب المهارة.

يعلّم مدرس الهندسة الميكانيكية في دائرته كافة الحرف المعدنية مثل التطريق والتركيب والخراطة الخ. وليس عدد الطلبة في هذا القسم إلا قليلا ولكن إذا توسعت المدرسة فعلى المدرس أن يهتم بحرفة واحدة فحسب يختص فيها أكثر من غيرها. وفي حالة التحاق عدد كبير من الطلبة بالمدرسة يمكن استخدام مدرس عمل في كل حرفة متخصصة على حدة . وبالنسبة لمدرسي النجارة أيضاً من المفضل أن يكون أحدهما مسئولا عن نجارة الأثاث (تصنيع الموبيليا) والثاني عن أعمال البناء (النجارة).

وقد ذكرت في سياق آخر فائدة تعيين مدرس ثالث ذي خبرة في النجارة قادر على تدريب المبتدئين وتدريس تكنولوجية النجارة والرسم.

الرسم :

لقد خصص بعض الوقت في المدرسة للرسم الميكانيكي لكن دون نتيجة مرضية ويرجع سبب ذلك إلى عدم توافر تمرينات مدرّجة. يتوقع من المتدربين أن يرسموا أشكالا ورسوماً لقطع غيار معقدة للمكائن وذلك قبل إطلاعهم على مباديء علم الهندسة والإسقاط. لذلك لايعني هذا شيئاً بالنسبة لهم. ولابد أن

يكون لدى الحرفي الصناعي الحديث إلمام جيد بفن الرسم. فلهذا السبب وكذلك بسبب عدم ميل العرب إلى الفنون التخطيطية ، يجب أن يكون المدرس في الرسم ماهراً في تدريسه.

إهمال العمل الأساسي

يميل المدرسون إلى إهمال التمرينات الابتدائية البسيطة سواء كانت في الرسم أو في الحرف رغم أنها ضرورية لتحقيق الدقة في العمل . يكره المدرس الشرقي على العموم التمرينات الابتدائية ويعتقد بأن التمرينات المتقدمة حتى إذا نفذت بشكل سيء جداً يدل على مستوى عال في التدريس . وفي الحقيقة فإن الإهمال في التمرينات البسيطة هو السبب وراء فشل التدريس المتقدم . ويتضمن التقرير عن التربية والتعليم في البحرين حول الدراسات الأكاديمية هذه النقطة بالذات التي شرحها كاتب التقرير ببراعة. وتنطبق هذه الملاحظة على تدريس الحرف الفنية بصورة مضاعفة.

مبنى المدرسة

يشتمل مبنى المدرسة كله على الورش التي تتكون من غرف صغيرة جداً ولا تلائم التدريب العملي خاصة في النجارة. لذلك تظهر غرفة النجارة مزدحمة ومرتبكة ليس بسبب ضيق المكان فحسب بل بسبب عدم تواجد الدكك أيضاً. ولا يوجد مكان للصف إلا في مهجع صغير معد ليكون مكتباً لأمين المخزن، ولا يوجد مرحاض في المبنى أو بالقرب منه. وقد أوصيت في مكان آخر من هذا التقرير باستخدام المبنى الحالي كصفوف الدراسة والمكاتب ونقل الورش إلى مبان جديدة ملائمة للغرض من حيث الحجم.

المعدات

إن المكائن والأدوات المستخدمة في المدرسة ملائمة للتدريس والتدريب الحرفي ولكنها غير كافية حتى لتدريب العدد القليل الحالي من الطلبة. وأذكر على سبيل المثال تيسير مخرطة واحدة فقط في الورشة الهندسية دون أدوات ملائمة أخرى . وعلى الرغم من أن معدات الورشة هي غالية الثمن ، إلا أن سعر التكلفة لكل طالب يكون أقل نسبياً إن زاد عدد الطلبة الذين يتدربون في نفس الوقت .

ومن هذا المنطلق لو تدرب ٢٠ طالباً على إجراءات الورشة الهندسية (أي أعمال التجهيزات وأعمال الميكانيكا) فيتطلب هؤلاء معدات أكثر بقليل من ١٠ طلاب يتدربون على نفس الدورة التدريبية. وتكون الاحتياجات الإضافية عبارة عن المناضد وأدوات المكائن وأماكن المكائن والمعدات الثقيلة فعددها في كلتا الحالتين يكون متساوياً. وإن كان عدد الطلبة ٤٠ فيمكن ترتيب صفين بعشرين طالباً في كل صف يتدربون في ساعات مختلفة باستخدام نفس المعدات. ولا ينطبق هذا الاعتبار على الحرف التي تستخدم فيها الأدوات اليدوية ولا يمكن عقد صفوف بالتناوب في حالات حيث تحدد المدرسة أكثر من نصف ساعات التدريب للتدريس في الورش.

التدريس في الصف

لا يوجد في الوقت الحاضر مكان مناسب للتدريس في الصفوف الدراسية. وإذا أردنا تنظيم تدريس في المواد مثل الإنجليزية والرياضة والرسم فيجب أن تكون الصفوف الدراسية بعيدة عن ضوضاء الورش. وقد يرجع سبب المستوى الضئيل في التدريس إلى عدم وجود المكان المناسب في المدرسة وكذلك توجد دلائل لعدم أخذ المواد الدراسية بمحمل الجد بسبب المستوى التعليمي المتدني للطلبة الذين يدخلون إلى المدرسة. ومن المتفق عليه على مستويات مختلفة أنه من الضروري لطلبة المدرسة الصناعية على الأقل أن يدرسوا الإنجليزية والرياضة مستوى الإبتدائي خاصة لمن يتطلع إلى الالتحاق بصناعة النفط. وعلى الرغم من أن المستوى المقصود لايكون متساوياً مع مستوى التعليم العام في المرحلة النهائية، إلا أنه لايجوز قبول الإهمال وعدم الكفاءة في التدريس في المدرسة الصناعية.

تطور المدرسة الصناعية مستقبلا

يتضح من فقرات التقرير الذي رفعته لسموكم بأن المدرسة الصناعية الحالية مبنية على أسس سليمة فيما يخص الأهداف العامة. والفترة التدريبية التي تمتد إلى سنتين تعتبر كافية من حيث التدريب الحرفي لكنها قصيرة من حيث تزويد الصناعة بالحرفيين المدربين بمعدل سريع. ولاشك أن الدورات التدريبية مبنية على أعمال الورش والاتصالات التي أقيمت بين المدرسة الصناعية والمؤسسات الصناعية مفيدة للغاية وتبشر بالخير. ومن الصعب علينا أن نحكم على فائدة

مؤسسة أقيمت حديثاً لكن خريجيها يبدون حماساً واستعداداً ليكيفوا أنفسهم وفقاً لمتطلبات الأوضاع الصناعية السائدة، فيمكن للحكومة أن تستخدم المدرسة الحالية كقاعدة لتوسعها كمّاً وكيفاً لتوفر التربية الصناعية في البحرين بدون أدنى شك في نجاحها في نهاية المطاف.

أهداف المدرسة الصناعية

ولكي تنتفع الدولة لأقصى حد يجب على المدرسة الصناعية أن تنظم دورات تدريبية جيدة في مباديء حرف مختلفة محددة وتطبيقات عملية لها وألا تبذل اهتماماً كبيراً بالمواضيع التي هي مجرد مواضيع أكاديمية. ويجب تعليم الإنجليزية والرياضة الابتدائي والرسم الفني في المدرسة لكن في إطار الصلة المباشرة بالعمل الصناعي في البلاد . وأن نهتم بالتعبير الثقافي للتعليم الصناعي أو التعليم الصناعي المتقدم في الوقت الحاضر . وإنشاء مدرسة مهنية بسيطة تكون قاعدة لتطويرها إلى مستويات عليا في المستقبل لكن الحاجة الملحة في الوقت الحاضر هي إنشاء مدرسة مهنية لتوفير الأيدي العاملة الماهرة للدولة .

الحاجات الصناعية في البحرين

====================

١ - صناعة النفط

==========

أ - الهندسة الميكانيكية :

عامل التجميع والتركيب

الخراط

الميكانيكي

الحداد

ب - حرف الموتورات

ميكانيكي الموتور

نجار لهيكل الموتور

ج ـ الحرف الهيكلية

اللحام

عامل التركيبات الحديدية

عامل تركيب الأنابيب

عامل الصفائح

د ـ الهندسة الكهربائية

المشتغل بالكهرباء حسب التخصصات

عامل الأسلاك والكابلات

مركّب الأسلاك الكهربائية

٢ ـ الخدمات الحكومية والحرف السوقية

==========================

أ ـ حرف البناء

عمال الحجر والجبس إلخ ...

النجارون

السمكري والمهندس المنزلي

ب ـ صانعو الدواليب

منجد الأثاث

ج ـ حرفة المحركات

ميكانيكي المحركات

د ـ الحرف الكهربائية

عامل تركيب الأسلاك الكهربائية

الأوضاع في شركة النفط

يوجد سبب قوي لفصل طلبات صناعة النفط عن متطلبات الخدمات الحكومية والحرف السوقية. تستخدم شركة النفط عدداً كبيراً من المتخصصين الفنيين من أمريكا وأوروبا الذين يمارسون الإشراف على المحليين عن كثب ويهتمون كثيراً بتدريبهم في تخصصات مختلفة. وفي حرف فنية تنظم الشركة نفسها دورات تدريبية للمبتدئين. وفي فروع عديدة تحتاج الشركة إلى بنين بإلمام بسيط بالتعليم العام واللغة الإنجليزية ومباديء العمل في الورشة كقاعدة أساسية لتلقي التدريب التخصصي في أعمال الشركة. وإن تدريب المتدربين قبل توظيفهم بهذا الشكل يجعلهم واسعي الحيلة وقادرين على التكيف وفقاً للظروف بدلاً من أن يكونوا مَهَرَة في فرع من فروع حرفة.

الصناعات السوقية والخدمات العامة

إن موضوع توظيف الشباب في المهن الفنية خارج شركة النفط يختلف نوعاً لأن الخدمات العامة والأسواق ينقصها عدد كافٍ من الإخصائيين والعمال المهرة ليقوموا بتدريب المبتدئين. فعلى المدرسة الصناعية أن تتحمل مسئولية تدريب الشباب إلى مستوى أحسن، إما قبل تخرجهم في المدرسة الصناعية، أو في المرحلة الابتدائية لتوظيفهم كعمال مَهَرَة. وعليها على الأقل أن تؤهلهم قدر الإمكان لتأدية واجباتهم بصورة مستقلة ، ومن المعروف بأنه خارج إمكان أية مدرسة صناعية أن تعد الحرفيين والميكانيكيين المحنكين. لأن المهارة تأتي بعد خبرة عملية طويلة في بيئة صناعية ملائمة. ولا تستطيع أية مدرسة بطبيعة الحال، مهما كانت متقدمة أن تجهز المتدربين بالخبرة أو الحنكة ويكفي لها أن تدرس المباديء وأساليب العمل وتعطي لهم قسطاً من التمرينات العملية. وإذا كان الوضع يتطلب تزويد أيدٍ عاملة مدربة بصورة عاجلة مثلما هو في البحرين فلابد من تخفيض فترة الدراسة المدرسية إلى أقل مايمكن. وهناك طريقة فعالة لمعالجة هذا النقص فيما يتعلق بالتدريب في المدرسة الصناعية وفيما يلي بعض المقترحات بهذا الشأن.

الخبرة الصناعية للطلبة

يمكن تغطية حاجات كل من شركة النفط والصناعات الخارجية بإدخال دورة تدريبية أساسية في المدرسة الصناعية مدتها سنتان. وبخصوص الطلبة الذين يلتحقون بشركة النفط كالمتدربين المبتدئين، أو العمال تحت الاختبار، أو الحرفيين المبتدئين لايكون للمدرسة الصناعية أي دور في تدريبهم بعد. والذين ينتمون إلى المؤسسات الخاصة فتوفر لهم المدرسة فرصة إشراف لمدة عام آخر. ولايعني هذا بأن المتدربين يمضون عاماً آخر في المدرسة الصناعية. وفي معظم الأحيان فهم يعملون في أعمال البناء أو في الورش جنباً إلى جنب مع العمال المَهَرة غير أن مدرسي المدرسة يشرفون على عملهم ويرتبون لهم عند الاقتضاء دروساً خاصة في المدرسة. إن هذا الترتيب في الحقيقة ليس إلا تعديلا للنظام الحالي لإيفاد متدربي المدرسة الصناعية إلى الدوائر الحكومية أثناء الدورات التدريبية التي جرت لمدة عامين. وعندما تتوسع المدرسة الصناعية في تقديمها هذه المساعدة للمؤسسات الخاصة لن تعود هناك أي مشكلة. وهناك مزايا في تأخير إعطاء فرصة العمل الخارجي في السنة الثالثة، لأنه لايستلزم سحب الطلبة أثناء السنتين للدورة التدريبية وثانيا لايكون الطلبة من دون مهارة أوخبرة عبئاً على المؤسسات الخاصة. وإذا تأخر التحاقهم بالعمل الخارجي فيكون أداؤهم نافعاً أكثر للمؤسسات التي تدفع لهم الأجر بصفتهم عمالا مَهرة تحت الاختبار.

نظام التدريب المقترح

==============

مجموعات الحرف

إنه لايكون مرغوباً فيه إن لم يكن مستحيلاً للمدرسة الصناعية التي تنظم دورات تدريبية تدوم سنتين أن توفر تدريباً خاصاً في كل حرفة ذكرت في الفصل السابق لهذا التقرير. وتقسم هذه الحرف إلى خمس فئات حسب المعدات والأدوات والأساليب المستخدمة في تدريسها والمباديء العلمية التي تحكمها. وفيما يلي جدول الفئات التصنيفية لتلك الحرف :

مجموعة الحرف	الفروع المتخصصة
الهندسة الميكانيكية	عامل التجميع والتركيب عامل المكائن ميكانيكي المحركات عامل الأنابيب
الأعمال المعدنية	الحـــداد اللحـــام ناصب الأشغال الحديدية عامل الصفائح السمكـري
الهندسة الكهربائية	عامل الكهرباء عامل الأسلاك والكابلات عامل الأسلاك الكهربائية
الأعمال الخشبية	النجـــــار صانع الدواليب صانع هيكل المحرك
أعمال البناء	عامل الحصى والخرسانة عامل الجبس

صفوف المدرسة

يجب تنظيم صفوف المدرسة وفقـا للمجموعـات الحرفيـة الأساسـية المذكـورة أعلاه وإن كان عدد الطلبة ١٠٠ فيمكن تنظيم الصفوف حسب الإقتراح التـالي. تشير الأرقام إلى عـدد الطلبـة فـي كـل صـف أو مجموعـة. وفـي ضـوء اختبـار تطبيق هذا الآقتراح قد يحتاج إلى بعض التعديل مستقبلا :

الصف		المجموعة الحرفية
العام الأول (٥٠)	١ أ (٢٦)	الهندسة الميكانيكية (١٠) الحرف المعدنية (٨) الهندسة الميكانيكية (٨)
	١ ب (٢٤)	النجارة (١٢) أعمال البناء (١٢)
العام الثاني (٥٠)	٢ أ (٢٦)	الهندسة الميكانيكية (١٠) الحرف المعدنية (٨) الهندسة الكهربائية (٨)
	٢ ب (٢٤)	النجارة (١٢) أعمال البناء (١٢)

الإنجليزية والرياضة والرسم

تنظم أربعة صفوف لتدريس الإنجليزية والرياضة والرسم وفي كل صف تدرس أربعة دروس في الإنجليزية وثلاثة دروس في الرياضة كل أسبوع.

[حددت ٣ دروس فقط في الرياضة أسبوعياً بناءً على الافتراض أن الطلبة الذين يدخلون المدرسة الصناعية مستقبلا يكون لديهم بعض الثقافة العامة والإلمام بالرياضة الابتدائي]

ونظراً للأعداد المقترحة للطلبة يمكن لنفس المدرس أن يدرّس الطلبة في المدرسة في هذه المواضيع. يجب أن يعلم مدرس الحرف مادة الرسم كما يجب أن يكون اثنان من المدرسين مؤهلين ليقوما بهذا العمل وليس من الضروري أن تعلّم مادة الرسم للمجموعات الحرفية على حدة.

حسب الجدول الذي عرض آنفاً يمكن تدريس هذه المادة في صفوف المدرسة ككل دون الإخلال بمصالح مجموعات حرفية كفرق الهندسة والبناء . ويجب أن تستغرق الحصة الدراسية فترة مزدوجة تدوم حوالي ثلاث ساعات من حيث المجموع كل أسبوع طوال الدورة التدريبية في المدرسة.

الدورة الابتدائية

قبل تفويض المستجدين إلى الصفوف والفرق الحرفية يجب عليهم أن يجتازوا دورة تدريبية فنيةابتدائية تدوم حوالي ٣شهور، ولهذا الغرض يمكن تقسيم المستجدين أى حوالي ٥٠ طالباً إلى مجموعات مؤقتة للتدريب الحرفي المبدئي كي يتعلموا إجراءات النجارة والأعمال المعدنية واستخدام الأدوات الرئيسية. يساعد هذا التدريب الحرفي المبدئي في تقييم ملاءمتهم للحرف المتخصصة التي ينتمون إليها كما أنهم يتعلمون في نفس الوقت الإنجليزية والرياضة والرسم كيلا يحصل أي انقطاع في دراستها بعد ثلاثة شهور عندما يتم تقسيم الصفوف بصفة مستقلة.

ساعات التدريس في الورشة

تتوقف ساعات التدريس في الورشة لحد ما على نظام الدوام المتبع في مدارس البحرين. غير أنه يجوز تمديد ساعات العمل في المدرسة الصناعية لأن العمل في الورشة والحرف يعطي مجالاً للعمل البدني الحر مقارنة بالنشاط العادي في المدارس. ويمكن تخصيص الجزء الأكبر من العام الدراسي أي ٣٦ ساعة أسبوعياً للتدريس في المدرسة الصناعية ومنها بين ٨ و ١٢ ساعة للتدريس في الصفوف. وقد يمكن توجيه نقد بأن ٢٠٠٠ ساعة للتدريب المهني في الورشة في مدة سنتين غير كافية بالمقارنة إلى الطلبة في البلدان الصناعية الغربية حيث فيها تخصص التدريس لمدة تصل إلى ٥ أو٦ مرات للحرف الميكانيكية. ويمكن الرد على هذا النقد بملاحظة أن الطلبة في المدرسة الصناعية يتعرضون للتدريب أو التدريس والمراقبة طول الوقت في الورشة في حين يمضي المبتدئون في المصنع معظم الوقت في الأعمال الإنتاجية وليس له فائدة من ناحية التدريس إلا قليلا. فالتدريب في المدرسة يكون مكثفاً أكثر من تدريب المبتدئين الإختياري في الحرف ويغطي عملاً أوسع بأسلوب جاد ومنتظم.

التمارين في الورشة

ماهو نوع العمل الذي يجب علي الطالب أن يقوم به أثناء مدة التدريس في الورشة ؟ إن أساس التدريب في معظم الحرف يجب أن يكون سلسلة من التمارين المتدرجة بهدف معين لكل واحد منها ويجب أن تخلو عن أي عبث، وعلى المدرس أن يخطط مدى التدريب اللازم لكسب المهارة في مادة التدريب. وعلى الرغم من أن الدقة والضبط ضروريان للحرفة إلاأنه على المدرس ألا يطلب من المبتدئين معدلات عالية في الإتقان وتكرار العمل التدريبي من جديد إذا حصل بعض الخطأ البسيط لأن الدقة مثل أي مهارة أخرى تتطلب الوقت لتنضج إلى الكمال من بداية متواضعة.

ويجب أن تؤدّى التمارين التدريبية قدر الإمكان إلى إنتاج أشياء مفيدة حتى إذا كان المنتَج شيئاً بسيطاً كصمولة أو جوزة لأنه يلهم المتدرب أكثر من شيء غير مفيد يحوّل إلى المهملات أو يوضع في خزانة العرض. وبخصوص الحرف الهندسية فإن تصنيع الأدوات يعطي مجالا واسعا للتمرين على المنضدة والمكائن ويسهل تصنيع الأشياء المفيدة في العمل الخشبي مع التمرين العملي في صنع المفاصل وتعلم أساليب البناء المختلفة.

العمل التعاقدي في المدرسة

إضافة إلى التمارين التدريبية المنتظمة يجب على كل فرع لورش المدرسة أن يتولى قسطا لايستهان به من الأعمال التعاقدية على المستوى التجاري. وإن مشاركة الطلبة في الأعمال التجارية تجعلهم واعين بمسئولياتهم كعمال مَهَرة وتساعدهم في التغلب على حاجز نفسي بين مجرد أعمال مدرسية وأعمال حقيقية.

(ا) الحرف الخشبية

ومن السهل تفويض الأعمال التعاقدية المفيدة لورشة الخشب بصفة مستديمة مثل تصنيع الأثاث للدوائر الحكومية والمدارس والمنازل ودائرة الأشغال العامة

مما يجعله ممكناً استخدام المبتدئين والآخرين على السواء والحصول على تعاون المدرسة في إنجاز الأعمال التعاقدية.

(ب) الحرف الهندسية

وبالنسبة لطلبة الهندسة لايكون أمامهم نفس الفرص للمشاركة في الأعمال التعاقدية لأن تصليح وفحص المحركات والمكائن عمل يحتاج إلى استخدام أشخاص قليلين ذوي خبرة واسعة. وأن تصنيع قطع غيار جديدة للمكائن عمل لايتكرر كثيراً ويحتاج إلى عمال مَهَرة وليس على المبتدئين إلا أن يشاهدوا العمل فقط. ورغم ذلك لاينبغي على الورش الهندسية أن تظل عاطلة إن كان لديها مدرسون متحمسون ومعدات جيدة لأن المستوى الفني المتوافر في المراكز الأخرى ليس على مايرام ولابد من اللجوء إليها لهذا السبب. وعلى الرغم من أن شركة النفط لديها ورش ممتازة إلا أنها قد تحتاج أحياناً إلى مساعدة المدرسة الصناعية لبعض حاجتها التي قد لايكون إنتاجها عندهم إقتصادياً. وإذا وجد مسئول الشركة بأن مستوى جودة أعمال المدرسة الصناعية جدير بالتقدير فيشجعون متدربيها.

ونظرا لأنه توجد فروع عديدة متخصصة للحرف الهندسية وهي مفتوحة أمام طلبة المدرسة الصناعية للتدريب فيها فيجب أن تكون الدورات التدريبية في الحرف الميكانيكية ذات طابع عريض وعام. ويجب أن يتدرب الطلبة في هذه المجموعة في العمل على المنضدة والماكينة على السواء.

إن الطالب الذي يصبح خراطا في نهاية المطاف يستطيع أن يستفيد من تدريبه التخصصي أكثر مما إن كان لديه إلمام بأشغال الميكانيكا وبالعكس يجب أن يكون الميكانيكي مألوفابالعمل على المكائن.

(ج) تمارين حرف البناء

من الطبيعي أن تتم معظم الأشغال المتعلقة بحرف البناء خارج ساحات المدرسة وتتكون من تشييد المباني. وبطبيعة الحال فإن مواد البناء كبيرة الحجم وثقيلة ولايصلح استخدامها لمجرد اختبارات معمارية تدريبية. فيكون التدريب المعماري مرتبطاً بأعمال مفيدة من بناء الأسوار إلى السقوف ذات السراديب ورواقات الخرسانة المسلحة. ويتطلب هذا تعاوناً حميماً ما بين المدرسة وبين دائرة الأشغال العامة كي يتم إنجاز معظم الأعمال العامة على الأقل في بداية

المشروع. ويجب أن يتعلم متدرب أعمال البناء ليس فقط استخدامات الأحجار المختلفة وأساليب استخدام الحجر والخرسانة في البناء بل والرسم والقياس والتدريبات المتعلقة بهما وكذلك مباديء النجارة بهدف تطبيقها على الهياكل الحجرية والخرسانية. ويجب أيضاً توجيه بعض الاهتمام لعنصر التجميل لأن البناء الحجري في البحرين يقوم دون توجيه من المهندس المعماري فيعتمد منظر وشكل المبنى أساساً على ذوق العمال المَهَرة الذين يبنونه.

(د) الحرف الكهربائية

وبالنسبة إلى فئة الحرف الكهربائية أيضاً تتم معظم أعمالها ضمن المقاولات خارج المدرسة في أعمال إنشاء التوصيلات الكهربائية في المباني ويجدر الملاحظة بخصوص دورات الحرف الكهربائية بأن الطلبة الملتحقين بها يجب أن يكون لديهم الإلمام بالنظرية العلمية التي تشكل قاعدة للحرف الكهربائية وفي الحقيقة يتوقف نجاح الكهربائي على اطلاعه على النظرية أكثر من مهارته اليدوية. ويجب الاهتمام بهذه النقطة عند انتخاب طالب ليلتحق بالدورة الكهربية.

توظيف الطلبة السابقين مؤقتاً في ورش المدرسة

ومن سلبيات قبول المدرسة الأعمال التعاقدية احتمال عدم فائدتها من ناحية التدريس أو أنها تتطلب وقتا واهتماما زائداً للمدرسين حين يكون حجم العمل للطلبة قليلا. وللحفاظ على مشروع التدريب يمكن توظيف عدد قليل من الخريجين السابقين بأجور لتسيير أنشطة الورش العادية ولتنفيذ الأعمال الخارجية خارج نطاق التدريب المعمول به، إن هذا الاقتراح لايعني بأنهم ينضمون إلى هيئة تدريس المدرسة. بل يكون هذا التوظيف مؤقتاً مغطياً الفترة بين التخرج ونقلهم إلى المؤسسات الصناعية. ويجب ألا ننسى في هذا الشأن بأنه بصرف النظر عن حجم الطلب على الأيدي العاملة الماهرة فإنه ليس من السهل توفير ٤٠ أو ٥٠ خريجاً لشغل المناصب المناسبة في المؤسسات الصناعية في آن واحد. تخلو الوظائف في المؤسسات الصناعية في فترات غير منتظمة ومن الأفضل للمدرسة أن توظف خريجيها مؤقتاً لمنعهم من انضمامهم إلى أعمال غير ملائمة لهم بصورة عشوائية.

وإن كان لدى المدرسة عدد من العمال المهرة الإحتياطيين فقد يفيد ذلك ليس العمال فحسب بل ورش المدرسة أيضاً لأنه يمكن تسييرها على نحو مؤسسات صناعية وذلك بقبول حجم أكبر من الأعمال التعاقدية الرفيعة.

خلاصة المشروع والمواد الدراسية

========================

العام الأول: الدورة الابتدائية (١٣ أسبوعاً)

يتم تقسيم الطلبة إلى الفصلين المؤقتين لتدريس اللغة الإنجليزية والرياضة والرسم وإلى ٤ فئات مؤقتة للورش وتشغل كلها دورات تدريبية متوازية كالآتي:

١ ـ الدراسة في الصف :

ا ـ الإنجليزية (٤ حصص دراسية في الأسبوع)

الكلمات والجمل والمكالمات والقراءة والكتابة *

ب ـ الرياضة (٣حصص دراسية في الأسبوع)

استخدام الأرقام الأوروبية والمباديء الأربعة للرياضة وأمثالها المبنية على أعمال الورش.

ج ـ الرسم (حصتان دراسيتان مزدوجتان في الأسبوع)

*** وفي تعليم اللغة الإنجليزية يجب التركيز على الحوار المباشر البسيط ودقة التعبير كما يجب تجنب النصوص المعقدة أو الأساليب التاريخية في القراءة ومن المفضل أن تختار الكتب عن الأسفار والسيرة والصناعة والحياة الإجتماعية التي تستخدم لغة بسيطة بدلا من الكلاسيكيات الإنجليزية. ومن سلبيات التعليم في البلدان الشرقية كثرة الكلام من قبل المدرسين وكثيراً ما لايقدر الطالب أن يعبر عن نفسه كتابة أو شفهياً حتى جملة واحدة.**

استخدام أدوات الرسم. مباديء علم الهندسة ورسم الأشكال الهندسية على الورق.

٢ ـ الأعمال الحرفية الابتدائية

ا ـ الأعمال الخشبية. اختبارات في الأعمال الأساسية : نشر الخشب والسحج والقياس ووضع العلامات ، وصنع النماذج بناءً على هذه العمليات والمفاصل الخشبية البسيطة.

ب ـ الأعمال المعدنية : تمارين المبرد والتركيبات. صنع النماذج البسيطة من الصفائح المعدنية بلحام أملس والتمارين الابتدائية بالحديد.

الدورة الكاملة للعامين الأول والثاني

(٢٦ أسبوعاً في العام الأول و٣٩ أسبوعاً في العام الثاني)

يتم إعادة تقسيم الطلبة إلى ٥ مجموعات حرفية متخصصة وفقاً لمستوى أدائهم في الدورة الابتدائية كما يجب أن يتم إعادة تكوين الصفين الأكاديميين كالآتي :

الصف ١٠ ـ ا (المجموعات الحرفية الميكانيكية والمعدنية والكهربية)

الصف ١٠ ـ ب (مجموعتان حرفيتان من أعمال الخشب وأعمال البناء)

تواصل هذه الفصول الدورة الابتدائية في الإنجليزية والرياضة والرسم غير أن الموضوعين الآخرين ينفرجان من الآن حسب الاهتمامات الخاصة لحرفتي الهندسة والبناء على التوالي. وفي العام الثاني تستمر نفس الفصول وتسمّى ٢ ـ ا و٢ ـ ب والاقتراح للمناهج الملائمة عن المواضيع المدرسية في العامين الأول والثاني للدورة الكاملة كما يلي :

١ ـ العمل المدرسي :

ا ـ الإنجليزية (٤ حصص أسبوعيا) ـ القراءة والكتابة والحديث

ب ـ الرياضة (٣ حصص أسبوعيا) ـ قياس الطول حسب النظامين الإنجليزي والمتري والكسور والكسور العشرية وقياس السطوح والمجسمات

وحسابات الورش والتخمينات والنسب المئوية والنظام الوحدوي والصيغ والمعادلات المتعلقة بالتصنيع.

(يمكن إدخال بعض التعديلات البسيطة في المناهج للصفين غير أن مباديء الرياضة المذكورة تبقى كماهي لأهميتها لكليهما)

ج - الرسم (فصلان مزدوجان أسبوعياً)

الصف " أ " - تمارين البناء في هندسة سطح مستو وهندسة المجسمات البسيطة. إسقاط وتطوير أشكال المجسمات ومقاطع المجسمات ورسم المكائن وإعداد رسم تخطيطي حسب أبعاد معينة

الصف " ب " - الهندسة كالمذكور أعلاه بإضافة المنحنيات المستخدمة عادة في النجارة والبناء والرسم المعماري البسيط ورسم المجسمات المنظورية والرسوم المائلة والرسم اليدوي للشكل والتصميم في الحِرف البناءة.

٢ - التمرين الحرفي :

إنه ليس من الضروري أن نقدم المناهج للتمرينات الحرفية وقد عالجنا بعض النواحي الهامة لها آنفا ولكل دورة تدريبية ٣ فروع خاصة وهي :

التمارين المتدرجة في الورش

تكنولوجيا الحرف

التوظيف على الأعمال الإنتاجية

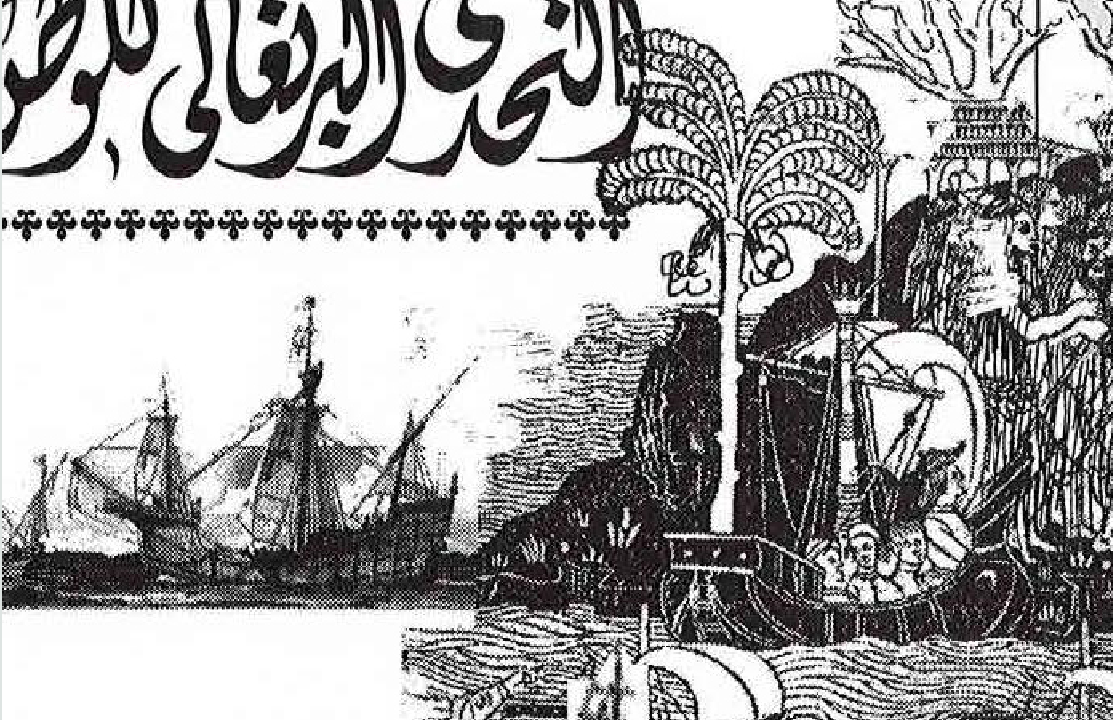
وعلى العموم تلقى التمارين في بداية الدورة اهتماماً أكثر والأعمال التعاقدية فيما بعد. وتختلف الفائدة التعليمية للأعمال الإنتاجية من حين لآخر ولايمكن التنبؤ بها فيجب تنظيم التمارين بشكل يغطي أكثر الأساليب والعمليات اليدوية الخاصة بالحرف المعنية . كما يجب أن تكون متعددة ومتدرجة وغير مطولة أو مضنية. وكما قلنا سابقاً إن أعمال البناء لها إمكانات محدودة من ناحية التمرين.

ويجب أن تكون الدروس في تكنولوجيا الحرف قصيرة وتعالج الأدوات والمواد والأساليب ...الخ ويمكن إلقاء المحاضرات عنها في الفصول أو في الورش في أوقات مناسبة ويجب على كل طالب أن يكون لديه كراسة عن الحرفة المعنية وموضوع الدرس والأشكال والملاحظات.

التعليم الخاص في العام الثالث

وقد تقتضي الظروف ترتيب دروس خاصة صباحا أومساءً للطلبة الذين يكملون دورة العامين التدريبية ويتم توظيفهم في المؤسسات الصناعية أو في ورش المدرسة. وقد يأتي الطلب لمثل هذه الدورة من الخريجين أنفسهم أكثر من مستخدميهم. ويستحق الصف الدراسي التطوعي اهتمام المدرسة الصناعية إلى حدٍ كبير. وقد يكون ترتيب بعض الدروس الخاصة في ساعات محددة في بعض الحرف أو لبعض المجموعات من الطلبة لابد منه وحضورها يكون إلزاميا لمن أكمل الدورات العادية وفضلا عن ترتيب الدروس الخاصة ويجب على رئيس المدرسة وأعضاء هيئة تدريسها أن يكونوا على اتصال بخريجيها السابقين كما يجب عليهم زيارتهم بانتظام في مواقع عملهم في أول عام من توظيفهم والاطلاع على أدائهم وما من شك بأن المشرفين عليهم ومستخدميهم يرحبون بهذا الاهتمام وقد يقدمون توصياتهم للمدرسة الصناعية.

التحدى البرتغالى للوطـ



عربي ووسائل التخلص منه

الدكتور طارق نافع الحمداني

تعرض الوطن العربي - بجناحيه الغربي والشرقي - لأعظم هجوم استعماري في مطلع العصور الحديثة، ذلك هو الهجوم البرتغالي الذي استهدف القضاء على كافة المعالم الحضارية للأمة العربية، سواء أكانت سياسية أو اقتصادية أو دينية، فكيف استطاعت هذه الأمة أن تواجه هذا التحدي، وما هي الوسائل التي مكنتها من إبعاده والتخلص منه؟ الواقع ان هذا السؤال يتطلب التعرف أولا على أسباب ودوافع هذا التحدي، ومعرفة أبعاده ونواياه، كما يتطلب التعرف على مواطن ضعف وقوة هذه الأمة العربية، ذلك لأن العدو أراد أن يستغل الأولى للانقضاض من خلالها على الأمة العربية، وأن يقضي على الثانية لأنها طريق هذه الأمة في القضاء عليه. إلا أن صمود أبناء هذه الأمة، ورغبتهم الصادقة في الدفاع عن تربتهم، قد مكنهم من توجيه كل طاقات الأمة في طريق واحد، هو طريق التحرير فالنصر.



كان من الأسباب التي جعلت أقطار الوطن العربي موضع اهتمام البرتغاليين في عصر توسعهم الاستعماري في نهاية القرن الخامس عشر وخلال القرن السادس عشر، هو وقوع تلك الأقطار على طريق التجارة العالمية آنذاك في البحر المتوسط ثم بعد انتقالها نحو المحيط الاطلسي والبحار العربية الجنوبية، وكان أشد ما يخشاه البرتغاليون هو ان يستمر العرب بنفس دورهم الحضاري في نقل تلك التجارة التي أصبحت الحلم الذي يراود أذهان البرتغاليين. فالمغرب العربي كان يتحكم بالجناح الغربي للطرق التجارية، ذلك لوقوعه على البحر المتوسط وعلى المحيط الاطلسي، الذي انطلقت منه أساطيل الأوروبيين الضخمة الى الشرق فالهند، والى الغرب فالعالم الجديد (الامريكتين) أما المشرق العربي فقد كان يحتل هو الآخر موقعا جغرافيا فريدا في ذلك الجزء المتوسط من العالم، وفيه يرتبط بمنفذين رئيسيين من منافذ التجارة العالمية وهما البحر الأحمر والخليج العربي، جعلاه معبرا لمعظم هذه التجارة المارة الى أوروبا خلال العصور الوسطى، وهو ما كان موضع حسد البرتغاليين وحقدهم(١).

وحدث هذا الأمر في وقت كانت فيه أقطار الوطن العربي في المغرب والمشرق تمر في فترة تراجع سياسي، مما جعلها عرضة لأطماع البرتغاليين وتوسعهم. ففي المغرب مثلاً تتابعت في حكمه عدد من الامارات العربية الضعيفة، أو أصابها الضعف بسبب تكالب القوى الأوروبية الصليبية ضدها، مثل المرينية والوطاسية. وفي بداية القرن السادس عشر بدأت هذه القوى الأخيرة بالانحطاط لأسباب عديدة، مما جعل نفوذها محدوداً في شمال البلاد، وقلّ أو انعدم كلما ابتعدت المنطقة نحو جنوب المغرب ليصير مجرد سلطة اسمية هناك، الأمر الذي سهل مهمة البرتغاليين في غزو الشواطىء المغربية واحتلال الكثير من الموانىء على ساحل المحيط الأطلسي والبحر المتوسط. وكان هذا الأمر مدعاة لقيام حركة دينية – سياسية في الجنوب الغربي من المغرب لمقاومة الاحتلال البرتغالي، انتهت باختيار أحد زعماء الأسرة السعدية، هو محمد بن عبدالرحمن الزيداني، قائدا للمقاومة منذ عام ١٥١٠(٢).

ولم يكن المشرق العربي في حالة يحسد عليها، ذلك لأنه تحمل منذ سقوط بغداد عام ١٢٥٨ أعباء الهجمات الهمجية – التخريبية التي شنها المغول، ومن أعقبهم من الأقوام المتخلفة الاخرى، التي استمرت تفعل فعلها في المشرق العربي حتى القرن

السادس عشر. وما أن صحا أبناء هذه البلاد من كبوتهم حتى وجدوا أنفسهم أمام خطر جديد أشد وأنكى من الغزو المغولي ذلك هو الغزو البرتغالي. وكان أخطر العوامل التي تعرضت لها المنطقة في هذا الوقت هو أن قواها كانت مشتتة وضعيفة، ولم يكن يجمعها تنظيم سياسي واحد يلم شتاتها ويجمع قواها. فمصر وبلاد الشام كانت تحت ظل الدولة المملوكية المصرية التي أصابها الاعياء الشديد بسبب المنافسات الشديدة بين الأمراء والمماليك، والعراق كان تحت وطأة السيطرة الصفوية، أما القوى العربية في اليمن وعمان وامارات الخليج العربي فقد كانت بنفس الصورة من الضعف والتفرق[٣]. ومع ذلك فقد كان على هذه القوى جميعها أن تتصدى للتحدي البرتغالي لأن الأمر أصبح مسألة حياة أو موت بالنسبة لها.

إذن في ظل ظروف التجزئة هذه اندفع البرتغاليون يشنون حملاتهم البحرية على أقطار المغرب العربي الواحد تلو الآخر من أجل اضعافها والسيطرة عليها مدفوعين في ذلك بدوافع دينية - صليبية، ودوافع اقتصادية - احتكارية، وقد شجعهم على ذلك تعدد الكيانات السياسية الضعيفة القائمة آنذاك. وقد طبقوا الأمر نفسه، كما سنرى، بالنسبة لأقطار الشرق العربي.

ويرجع الدافع الديني الى احتدام الصراع بين المسيحيين والمسلمين في شبه جزيرة ايبريا في العصور الوسطى وانتهائه لصالح الايبريين، الذين لم يكتفوا بهذا الحد وانما تابعوا المسلمين في السواحل الافريقية مدفوعين في ذلك بطابع استمرارية الحملة الصليبية على الاسلام. وتؤكد هذه الأمر الشعارات الصليبية للحملات الايبرية، بحيث لا تدع مجالا للشك في تلوين التدخل البرتغالي - الاسباني في أقطار المغرب العربي بهذا الطابع المتعصب ثم التوسع الاقليمي الاستعماري[٤]. الذي حمله البرتغاليون معهم في حملاتهم على الشرق العربي أيضا، والذي ظهر في محاولاتهم لتدمير الأماكن المقدسة الاسلامية في مكة المكرمة، أو الوصول الى بيت المقدس في فلسطين.

ويؤكد لنا أحد المهتمين بجمع الوثائق البرتغالية وتحليلها، وجود العديد من المراسلات بين الملوك البرتغاليين ومندوبيهم السياسيين والدينيين، وهي تحثهم على الاستمرار في محاربة الاسلام والمسلمين وغزو أراضيهم[٥]. إن هذا المنحى للملوك البرتغاليين لم يأت من فراغ، وإنما جاء من تخوفهم من مبادىء العقيدة

الاسلامية، التي تمثل عامل قوة في هذه البلاد وليس عامل ضعف.

أما الدافع الاقتصادي فيعود لأن البرتغاليين بمخططاتهم الرامية الى تطويق الوطن العربي والتقليل من موارده، انما كانوا يهدفون الى التحضير للاستيلاء عليه ويمكن أن نفهم هذا الدافع إذا ما عرفنا أن البرتغاليين قاموا في خلال ذلك بالتعرف على اقتصاديات المنطقة، لتحديد السياسة المتبعة ازاءها. ففي شمال المغرب مثلاً إتبع البرتغاليون سياسة التخريب وانتهاج سياسة الأرض المحروقة ولم يهتموا باقتصاديات هذه المنطقة، لأن وجودهم هناك كان لأسباب استراتيجية أكثر منها اقتصادية. أما في الجنوب، فقد كانت المخططات البرتغالية للاستيلاء عليه مخالفة وذلك لأسباب تجارية. فقد كانت هذه المنطقة تحتل أهمية كبيرة في تسيير التجارة مع غرب افريقيا - المعروفة بتجارة القوافل الصحراوية - ولذلك فقد حاول البرتغاليون عدم التدخل العسكري فيها، خشية أن يؤدي تدخلهم الى اضطراب هذه التجارة وانقطاع المواد الضرورية التي كانوا ينشدونها مثل التبر والمنتجات المعدنية والحيوانية(٦).

وفي هذا النطاق أيضا، حاول البرتغاليون القضاء على دعامة أساسية كان يستند اليها الاقتصاد في الشرق العربي في ذلك الوقت وهي تجارة الترانزيت Transit . وهذه التجارة تقوم على مرور أهم وأغنى ما تنتجه الصين والهند وما اليها، التي كان ينقلها التجار العرب، عبر موانيء الخليج العربي فالبحر الأحمر ومن ثم الى أوروبا فتستفيد الأقطار التي تمر بها من هذه التجارة فائدة كبيرة سواء من الرسوم الكمركية التي تحصل عليها أو في تنشيط الحياة الاقتصادية فيها(٧). ولكن هذا النشاط يتعارض مع المخطط البرتغالي المذكور، ولهذا عملوا ما بوسعهم للقضاء عليه عن طريقين:

الأول هو احتكار التجارة الشرقية ونقلها بأنفسهم عن طريق رأس الرجاء الصالح، والثاني هو منع التجار العرب - المسلمين من مزاولة نشاطهم التجاري والملاحي في البحار الشرقية، وذلك بمتابعة أساطيلهم واغراقها هناك من جهة، والسيطرة على موانئهم التجارية الرئيسية من جهة أخرى(٨).

وهكذا ربط البرتغاليون توسعهم الاستعماري بدوافع دينية واقتصادية، وقد مهدوا لذلك بحملات بحرية منظمة أخذت تطرق أبواب المغرب العربي بشدة متناهية، وتنذره

بالخطر منذ بداية القرن الخامس عشر، حيث إمتدت أيديهم الى مدينة سبتة عام ١٤١٥، ثم إمتدت بعدها على القصر الصغير والعرائش وأصيلا عام ١٤٧١، وأسفي عام ١٤٨٠. وكان الغرض العام لتلك الحملات هو وضع تلك المدن تحت السيطرة البرتغالية واتخاذها نقاط انطلاق للتوسع في غرب افريقيا من جهة، واحتكار ما فيها من موارد أساسية من جهة أخرى(٩).

إما بالنسبة للاسبان الذين لم يقلوا نزعة توسعية عن البرتغاليين، فقد كانوا يفكرون أيضا بالحصول على موطىء قدم في المغرب العربي، الذي أصبحت سواحله عرضة لهجماتهم المتواصلة، سواء ما كان منها في الجزائر أو تونس أو طرابلس الغرب. فكيف حسم الأمر بين الطرفين، وما هي نتائجه بالنسبة للمنطقة؟ الواقع ان حالة الصدام كادت تقع بين الاسبان والبرتغاليين حول اقتسام مناطق النفوذ بالمغرب العربي، ولكن البابا تدخل في الموضوع وعقد معاهدة تورد سيلاس عام ١٤٩٥ بينهما. وبموجب تلك المعاهدة تم تقسيم العالم الى شطرين: شطر يقع تحت النفوذ البرتغالي والآخر يقع تحت النفوذ الاسباني. وتجددت صورة المعاهدة المذكورة عام ١٥٠٩، فكان ان اتفقت الدولتان على أن تختص اسبانيا بالجزائر بينما تختص البرتغال بالمغرب؟ وعندئذ انطلقتا تسيطران بأسرع ما يمكن على هاتين المنطقتين، وانصب جهد البرتغاليين على محاصرة الشواطىء المغربية ومحاولة احتلال المدن التي لم يتم اخضاعها(١٠). كما نتج عن ذلك ان راحت البرتغال تتحول نحو مرافىء المحيط الاطلسي الجنوبية الغربية، فاحتلتها واحداً بعد الآخر وأهمها ميناء أغادير عام ١٥٠٥، ثم أعادت احتلال أصيلا العاصمة عام ١٥٠٦(١١).

بهذه الصورة أحكم البرتغاليون قبضتهم على المغرب في أكثر جهاته، ولم يبق أمامهم غير مدينة أزمور، الواقعة على ساحل المحيط الاطلسي على مسافة نحو ٧٥ كيلومتراً من الدار البيضاء. وفي عام ١٥٠٨ توجه اسطول برتغالي الى أزمور، ولكنه فشل في احتلالها. وتكرر الأمر عام ١٥١٣، حيث كان عدد سفن اسطول الغزو، كما تقدر ذلك بعض المصادر، حوالي خمسمائة مركب وثمانية عشر ألف جندي، وهم يستعملون الأسلحة النارية، وقد قدّر لهذه القوة أن تقتحم مدينة أزمور في هذه السنة(١٢).

وفي هذه الحقبة بالذات كان البرتغاليون يسيرون في خطة مماثلة

بالمشرق العربي، وهي تهدف الى اضعافه اقتصاديا وسياسيا وعسكريا ومن ثم السيطرة عليه. وفي هذا المضمار كان تركيزهم منصبا على مهاجمة القوى السياسية الرئيسية الواقعة على سواحل البحر الأحمر والخليج العربي. ولما كانت دولة المماليك المصريين هي أبرز هذه القوى على البحر الأحمر فقد عمد البرتغاليون الى سد منافذ هذا البحر من أجل حرمان مصر من مصدر مالي مهم، وذلك لاضعاف امكانياتها الاقتصادية والعسكرية حتى لا تتمكن من مواصلة الحرب ضدهم، وكان هذا هو ديدن السياسة البرتغالية أيضا ازاء الدولة الطاهرية الحاكمة في اليمن[١٣].

وليس هذا فحسب بل حاول البرتغاليون احتلال الموانىء العربية الواقعة على سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي مثل ميناء جدة وعدن، إلا أن محاولاتهم في هذا المجال لم تكن ناجحة، كما سنرى.

وعندئذ اتجه البرتغاليون بأنظارهم نحو الخليج العربي، واتبع البوكيرك - القائد البرتغالي المعروف بوحشيته - سياسة انهاء دور الموانىء العربية الرئيسية على الخليج، وذلك عن طريق نهبها أو تدميرها نهائيا، وقد راح ضحية هذه السياسة كل من قلهات وقريات ومسقط على الساحل العماني في حدود عام ١٥٠٧. ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل تمكن البرتغاليون بعد ذلك من احتلالها، وكان هذا هو الشأن في البحرين أيضا عام ١٥٢٧[١٤].

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا، كيف استطاع العرب في المغرب والمشرق أن يواجهوا هذا العدو الشرس، مع العلم بأنهم لم يكونوا على أهبة الاستعداد كما كان عليه عدوهم؟ والحقيقة أن العرب رغم هذه الظروف الصعبة التي كانوا يمرون بها، فانهم لم يستسلموا وأظهروا مقاومتهم منذ اللحظة الأولى التي وطأ فيها البرتغاليون أرضهم. ولذلك فان دراسة المقاومة العربية في المغرب والمشرق هي التي ستكون موضوع اهتمامنا الرئيسي في الصفحات التالية، ذلك لأن حظها من الدراسة كان إذا ما قورن بالتفصيلات الهائلة التي أعطيت للغزو البرتغالي نفسه. وقد يرجع سبب ذلك الى محاولة بعض المؤرخين الأوروبيين اخفاء دور هذه المقاومة وأصولها رغبة منهم في قتل الروح الوطنية عند العرب، أو إضعاف الروح المعنوية لديهم.

إذا ما تصفحنا ما نشر من الوثائق البرتغالية باللغة العربية حتى الآن[١٥]. فاننا نجد فيه الكثير من الاشارات عن طبيعة المقاومة المغربية،

رغم أن هذه الوثائق نفسها - بخاصة «حوليات يوحنا الثالث» - كانت مكرسة «لتمجيد بطولات البرتغاليين في أرض المغرب العربي، والاشادة بقادتهم، واظهار قوة جيوشهم»(١٦).
ومنها يمكن التعرف على ان المقاومة المغربية للغزو البرتغالي قد بدأت مع نزول أول جندي برتغالي بسبتة عام ١٤١٥، وتوبعت طوال القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، واتخذت في ذلك صيغاً ووسائل مختلفة.

ففي الفترة الأولى من المقاومة التي ابتدأت بعام ١٤١٥ يبدو أنها اتخذت طابعا محليا، أو تحت قيادة زعماء محليين - وهذا يمكن ادراجه في عداد المقاومة الشعبية الصرفة التي لم توجه من قبل سلطة مركزية - وامتدت هذه الفترة حتى عشرينيات القرن السادس عشر، حيث اتخذت طابع المقاومة الرسمية المنظمة، وذلك بعد أن قوى نفوذ الشرفاء السعديين ودخولهم مراكش عام ١٥٢٤، حيث أخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع عن البلاد ومقاومة الغزو البرتغالي(١٧).

ويظهر من «حوليات يوحنا الثالث» أيضا، أن المقاومة الشعبية المغربية قد عرفت تطورا ملموسا مع مرور الزمن، وشمل هذا التطور تزايد الامكانيات والتنظيمات العسكرية، بخاصة في مجال استخدام السلاح. فبينما كان سلاح المقاومة في بداية الأمر يتكون من السيف والخنجر والرمح، إلا أنه أصبح في منتصف القرن السادس عشر (بالذات عام ١٥٤١) يتألف من الأسلحة النارية والمدافع الكبيرة الحجم، خصوصا بعد أن تنظمت المقاومة الشعبية في ظل السلطة المركزية للدولة السعدية(١٨).

واختلفت أساليب المواجهة الشعبية ضد البرتغاليين حسب متطلبات الموقف، ففي بعض الأحيان اعتمدت اسلوب المواجهة المباشرة الفردية أو الجماعية، وفي أحيان أخرى استخدمت أسلوب المباغتة. ولكنها قد تقوم على تضامن وتحالف القبائل تلقائيا في منطقة معينة، كما حدث بالنسبة للقبائل القاطنة في المنطقة الممتدة ما بين أزمور وأسفي في عام ١٥١٠، التي استطاعت تجميع أعداد كبيرة من المقاتلين، ففرضت الحصار على أسفي لمدة تزيد على سبعة عشر يوما(١٩).

وما هي إلا سنوات قليلة حتى أتت المقاومة المغربية أكلها، إذ تمكن الزعماء السعديون من تحرير الكثير من المناطق المحتلة. وتوجوا أعمالهم البطولية هذه بمهاجمتهم لقلعة سانتا كروز التي حصنها البرتغاليون في أغادير، وتمكنوا من طرد البرتغاليين

منها، واضطر الآخرون بعدها الى اخلاء جميع المدن المغربية التي احتلوها في أقل من عشر سنين[٢٠].

ومع ذلك فان مطامع البرتغال في بلاد المغرب لم تنته، وقد تجددت بشكل قوي في زمن ملكهم الشاب سبستيان Sebastian ، الذي حاول أن ينتهز فرصة النزاع على العرش المغربي ليعيد ما خسرته بلاده من سمعة ونفوذ في المنطقة. وقد أعد في هذا السبيل جيشا ضخما قدر بأكثر من أربعين ألف مقاتل، ويملك وسائل حربية كثيرة. فاصطدم بقوات السلطان عبدالمالك السعدي عام ١٥٧٨، التي تكونت من توافد المتطوعين المغاربة من كل حدب وصوب، الذين عرفوا غايات هذه الحملة البرتغالية وأهدافها. ودارت بينهما معركة طاحنة على وادي المخازن عرفت بـ «معركة الملوك الثلاثة»، انتهت بانتصار القوات المغربية انتصارا ساحقا[٢١]. وبفضل هذا النجاح نجا المغرب من الأطماع البرتغالية، واستعاد حرمته وهيبته لمدة طويلة، كما انه أعاد للبلاد وحدتها الوطنية بشكل أفسح المجال أمامه لأن يبني نفسه من جديد، وأصبحت الدول الأخرى تقيم معه علاقات الودّ، بدلا من نظرة الطمع والتحرش.

وإذا انتقلنا الى الشرق العربي فان العرب لم يقفوا مكتوفي الأيدي ازاء التحدي البرتغالي الذي كان يتهدد مصادر ثرواتهم وحرية بلادهم واستقلالها ولذلك فقد واجهوه في أكثر من معركة. ويقف المصريون في طليعة المتحدين للزحف البرتغالي، وهيأوا في سبيل ذلك كثيرا من المجهودات الحربية - البحرية، سواء عن طريق بناء الأساطيل الحربية أو اقامة التحصينات الدفاعية على سواحل البحر الأحمر دفعا لخطرهم. ودخلوا معه في عدة معارك في المحيط الهندي ولاحقوه الى الهند؟ بقدر الامكانيات المتوافرة لديهم. وهذا ما حدث بالنسبة لليمنيين أيضا، الذين حاولوا التصدي للهجمات البرتغالية على موانىء بلادهم رغم ضعف امكانياتهم الاقتصادية والعسكرية[٢٢]. فعلى سبيل المثال أراد البوكيرك السيطرة على ميناء عدن الاستراتيجي عام ١٥١٣، وأحس العدنيون بذلك فقرروا الاستبسال في منازلة العدو إذا ما قرر أن يطأ أرض عدن. وهذا ما حدث بالفعل إذ حالما هاجم البرتغاليون عدن، وقاموا بالتسلل الى داخل المدينة، جوبهوا بمقاومة عنيفة من قبل العدنيين، مما اضطرهم الى الانسحاب الى سفنهم بعد ان شعروا بالفشل في تحقيق هدفهم[٢٣].

وقام بمثل هذا عرب الخليج أيضا، إذ حالما وصل البوكيرك اليه بقصد الاستيلاء على مدنه الرئيسية فقد جوبه بمقاومة عنيفة من أبنائه، ونخص بالذكر عرب عمان، الذين رفضوا الخضوع له، مما أثار حنقه فتوجه نحو مسقط مستخدما المدافع والأسلحة الحديثة، مما تسبب في احراق مبانيها ومساجدها، وجميع السفن الراسية في مينائها، وعلاوة على ذلك فقد ارتكب البوكيرك ورجاله مذبحة رهيبة بين السكان رجالا ونساء وأطفالا وشيوخا. ورغم ذلك كله، فان أهل مسقط لم يستسلموا لهذه الأعمال الوحشية، وقاوموها في كل المصادمات التي جرت بينهم(٢٤).

وحين توجه البوكيرك نحو بقية موانيء الساحل العماني استعد أهلها للدفاع عنها، فواجه مقاومة شديدة، قبل ان يتمكن من أن ينال من هذه الموانيء(٢٥).

أما في البحرين ، فإذا كان البرتغاليون قد نجحوا في الاستيلاء عليها عام ١٥٢٧، فانهم لم ينعموا بالهدوء والاستقرار هناك، إذ سرعان ما قامت ضدهم الانتفاضات والثورات، وليس أدل على ذلك من قتل أخ لنائب الملك البرتغالي في الهند في البحرين نفسها عام ١٥٢٨(٢٦).

وإذا كانت محاولات عرب الخليج هذه لم تكن كافية لطرد البرتغاليين من المنطقة في القرن السادس عشر، فانها أثمرت خلال النصف الأول من القرن التالي. ففي هذه الفترة استطاع عرب عمان أن يطردوا البرتغاليين نهائيا من الخليج العربي، وبهذا يخطىء المؤرخون الأوروبيون الذين يرجعون هذا الأمر الى وصول الانكليز والهولنديين الى المنطقة، وليس لانتصار عرب عمان.

وهكذا فشل البرتغاليون في محاولتهم الرامية الى القضاء على جميع المكونات والمعالم الحضارية للأمة العربية، ذلك لأن أبناءها لم ينفكوا جيلاً بعد جيل من مواصلة النضال، الذي أثمر في رسم طريق النهاية للتحدي البرتغالي.

الدكتور طارق نافع الحمداني
جامعة بغداد / كلية التربية
قسم التاريخ

الهوامش

١) Marshall G.S. Hodgson, The Venture of Islam Conscience and history in a world civilization, Vol-III, The gunpowder empires and modern times (Chicago and London, 1974,) pp. 19 – 21.

٢) د. محمد حجي، العلاقات المغربية العثمانية في القرن السادس عشر»، السنة ١٠، العدد ٢٩-٣٠، المجلة التاريخية المغربية، (جويليه، ١٩٨٣) ص١٥٢.

٣) أنظر د. أحمد عزت عبدالكريم، «العلاقات بين الشرق العربي وأوروبا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر» في: دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة (القاهرة، بدون تاريخ) ١٩٠.

٤) للتفاصيل أنظر د. عبدالجليل التميمي، «الخلفية الدينية للصراع الاسباني - العثماني على الأيالات المغربية في القرن السادس عشر»، العدد ١٠-١١، المجلة التاريخية المغربية (يناير، ١٩٧٨) ص ص٦-١٢.

٥) أحمد بوشرب ، «مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي وما تولد عنه من رد فعل»، العدد ٢٦، السنة ١٠، المناهل (مارس، ١٩٨٣) ص ص٧٣-٤.

٦) بوشرب ، المصدر نفسه ، ص ص٧٥-٦.

٧) أنظر عن ذلك G. W. F. Stripling, The Ottoman Turks and the Arabs, 1511 – 1574 (IIIlnois, Urbana, 1942), P. 15

٨) د. طارق نافع الحمداني، «دور مصر واليمن في مقاومة الغزو البرتغالي للبحر الأحمر والمحيط الهندي في أوائل القرن السادس عشر»، العدد ١٢، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية (بغداد، ١٩٨٣) ص ص١٩-٢٠.

٩) د. محمد زنيبر ، صفحات في التضامن القومي بين المحيط والخليج، البحوث المقدمة الى: مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية (الدوحة، قطر، ١٩٧٦) ج٢ ص ص٤٧٢-٣.

١٠) أحمد توفيق المدني، حرب "ثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا،١٤٩٢-١٧٩٢ (الجزائر، بدون تاريخ) ص٣٣.

١١) الدكتور عبدالله العروي ، تاريخ المغرب : محـــاولة في التركيب، ترجمة د. ذوقان قرقوط (بيروت، ١٩٧٧) ص ص٢٣٩.

١٢) للتفاصيل أنظر الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بجان ليون الافريقي، وصف افريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر (الرباط، ١٩٨٠) ص ص١٢٤-٥، أنظر أيضا عبدالعزيز بن عبدالله، التطور الحضاري ومظاهره في اقليم الجديدة، العدد ٢٧، السنة ١٠، المناهل (يوليو، ١٩٨٣ص ص ٤٢-٣.

١٣) الحمداني، المصدر السابق، ص ص ٢١٦-٧.

١٤) نوال حمزة يوسف الصيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي (الرياض، ١٩٨٣) ص ص ١٢٠-٢٩.

١٥) أنظر على سبيل المثال بوشرب، مساهمة الوثائق البرتغالية: محمد مزين، «المقاومة الشعبية المغربية للتدخل الأجنبي في بداية القرن السادس عشر الميلادي حسب ما جاء في حوليات يوحنا الثالث»، العدد ٢٧، السنة ١٠، المناهل، (يوليو، ١٩٨٣).

١٦) مزين، المصدر نفسه، ص٢٠٨.

١٧) مزين، المصدر نفسه، ص ص ٢١٥-٢٢٢: بوشرب، المصدر السابق، ص ص ٨١-٢.

١٨) مزين، المصدر السابق، ص٢٢٢، أنظر أيضا العروي، المصدر السابق، ٢٤٨، حيث يشير الى أن الانكليز في عام ١٥٤١ قدموا مساعدات عسكرية الى ملوك الدولة السعدية بقصد تحطيم الاحتكار المفروض من جانب البرتغاليين على التجارة الافريقية.

١٩) مزين، المصدر السابق، ص ص ٢١٦-٧.

٢٠) بوشرب، المصدر السابق، ص٤٥، العروي، المصدر السابق، ص٢٤٩.

٢١) العروي، المصدر نفسه، ص ٢٥٣.

٢٢) د. طارق نافع الحمداني «السفن الحربية العربية ونشاطاتها في البحر الأحمر والمحيط الهندي في مطلع القرن السادس عشر»، المجلد الثاني عشر، العدد الرابع، المورد (١٩٨٣) ص٢١.

٢٣) عبدالرحمن بن علي بن محمد ابن الديبع، كتاب قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، حققه وعلق عليه محمد بن علي الأكوع الخوالي (القاهرة، ١٩٧٧)، ج٢ ص ص ٢١٦-٧.

٢٤) عبدالعزيز محمد الشناوي، المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرقي الجزيرة العربية، البحوث المقدمة الى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية (الدوحة، قطر، ١٩٧٦) ج٢ ص ٦٢٦.

٢٥) سليم طه التكريتي، المقاومة العربية في الخليج العربي (بغداد-١٩٨٢) ص٥١.

٢٦) الشناوي، المصدر نفسه، ص٦٣٠.



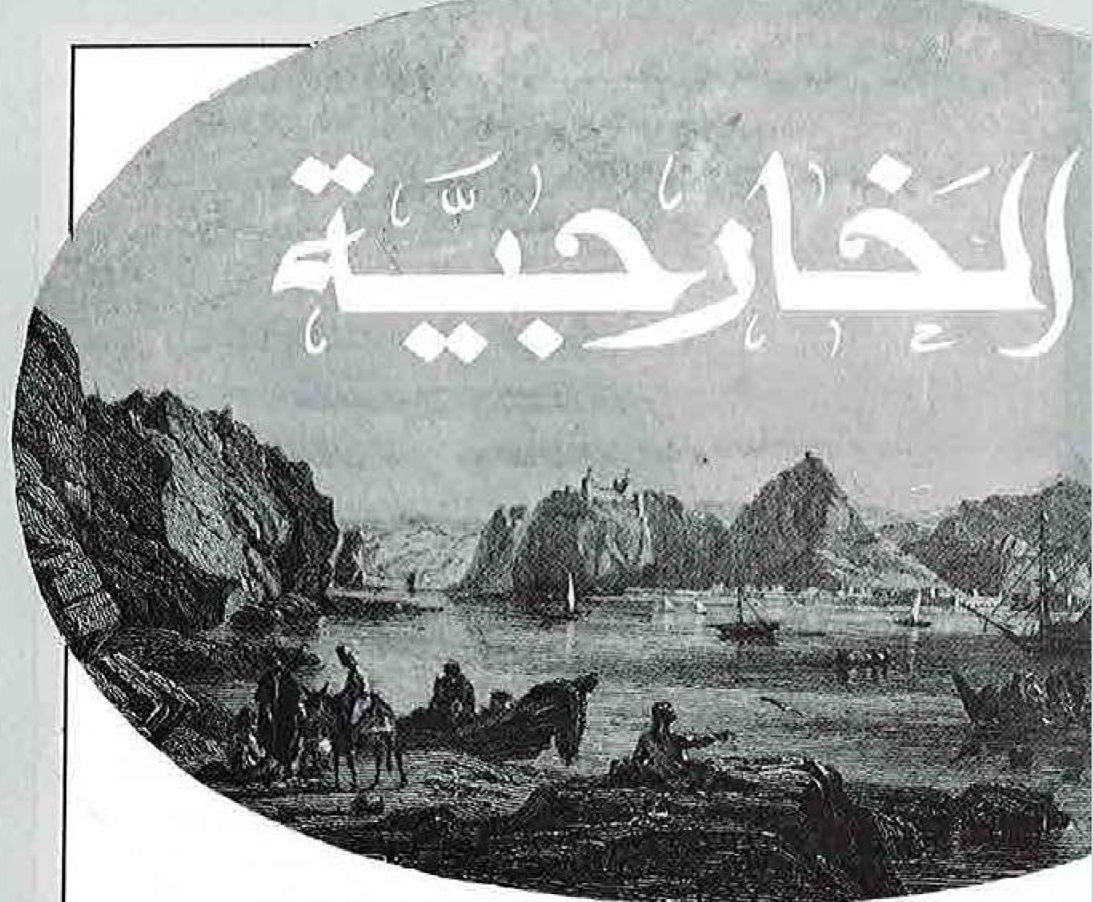
علاقات عمان

خلال عهد أحمد بن سعيد ١٧٤٩ - ١٧٨٣م

بقلم : الدكتور فاضل محمد الحسيني

تزامن عهد أحمد بن سعيد مع الصراع الحاد بين الدولتين الأوروبيتين (فرنسا وانجلترا)، إذ مرت الدولتان إبان حكمه بحربين كبيرتين أولاهما حرب السنوات السبع (١٧٥٦ م ــ ١٧٦٣م)، وثانيتهما حرب الاستقلال الأمريكية (١٧٧٥م ـ١٧٨٣م) التي وقفت فرنسا فيها إلى جانب الثوار الأمريكيين في صراعهم ضد انجلترا وتبع ذلك إعلان فرنسا الحرب على انجلترا، ولم يقتصر ميدان هذا الصراع على أوروبا فحسب بل انتقل إلى

الخارجية



المحيط الهندي، فالخليج العربي وبالذات المياه الإقليمية العمانية الأمر الذي تطلب من أحمد بن سعيد أن يتصرف بحكمة إزاء هذا الصراع لكى يحتفظ بعلاقاته الجيدة مع كلتا الدولتين المتصارعتين، وبذات الوقت يحافظ على سيادة بلاده من الانتهاك.

لذلك سيركز هذا البحث على علاقات عمان الخارجية مع هاتين الدولتين فضلا عن التطرق لعلاقات عمان الخارجية مع كل من

فارس والدولة العثمانية والهند معتمداً على أبرز الوثائق والمراجع العربية والأجنبية في هذا المضمار.

سنحاول إلقاء الضوء على علاقات عمان الخارجية خلال حكم أحمد بن سعيد من خلال المحاور التالية :

١ - العلاقات العمانية البريطانية.

٢ - العلاقات العمانية الفرنسية.

٣ - علاقات عمان مع بلاد فارس.

٤ - علاقات عمان مع الدولة العثمانية.

٥ - العلاقات العمانية الهندية.

١ - العلاقات العمانية البريطانية

كانت العلاقات العمانية البريطانية خلال العهد الذي سبق تولي أحمد بن سعيد الحكم وهو عهد اليعاربة (١٦٢٤م ــ ١٧٤٤م) يغلب عليها طابع الود أحياناً وسوء الفهم أحياناً أخرى[١]. وعندما لاحظ الإنجليزنمو القوة البحرية لليعاربة وتعاظم أمرها، أرادوا أن يحدّوا من تفوقها بحملة بحرية كبيرة، لكن الظروف حالت دون ذلك، فإلى جانب شغلهم بحرب الوراثة الإسبانية وتركيز جهودهم لتثبيت موقعهم في الهند ،فإن القوة الكبرى التي أصبحت عليها عمان في عهد اليعاربة جعلت تنفيذ مثل هذه الحملة مجازفة كبرى لم تكن بريطانيا مستعدة لها، خاصة وأن العمانيين لم يتعرضوا - حتى ذلك الوقت ـ للسفن الإنجليزية، ولهذا رفض الإنجليز أيضاً طلب السلطات الفارسية المساعدة البحرية لهم ضد عمان[٢].

وعندما مرت عمان في أواخر عهد اليعاربة بالصراعات الداخلية التي تخللتها فترات من الإحتلال الفارسي، توقفت العلاقات بين بريطانيا وعمان حتى انتهت فترة الاضطرابات بمبايعة أحمد بن سعيد بالإمامة عام ١٧٤٩م ليبدأ عصر جديد في تاريخ عمان هو عهد سلالة البوسعيد فشهدت العلاقات العمانية البريطانية مرحلة جديدة، إذ عزم الإمام أحمد منذ توليه الحكم على

اتبـاع سياسـة الحيـاد والتمسـك بالاستقلالية وعدم السماح لأية دولـة أن تنتهك سيادة بلاده.

وقد استطاع الإمام أحمد بن سعيد أن يلتزم بهذه السياسة طـوال فـترة حكمه على الرغم من الصعوبات والمواقف الحرجة التي تعرض لها بسبب تزامن الصـراع بين فرنسا وإنجلترا مع عهده وانتقال هذا الصراع إلى مياهه الإقليمية[٣]، فقد مرت الدولتان الأوروبيتان خلال عهده بحربين كبيرتين هما حرب السنوات السبع (١٧٥٦م - ١٧٦٣م) وحرب الاستقلال الأمريكية (١٧٧٥م - ١٧٨٣م) التي وقفت فيها فرنسا إلى جانب الثوار الأمريكيين، وأعلنت الحرب ضد إنجلترا[٤]، وعلى الرغم من أن حرب السنوات السبع قد أدت إلى خسارة فرنسا وتنازلها لبريطانيا عن معظم ممتلكاتها في الهند بموجب معاهدة صلح باريس عام ١٧٦٣م غير أن ذلك لم يكن نهاية المطاف للأطماع الفرنسية، إذ ما لبث الفرنسيون أن عاودوا نشاطهم الإستعماري فعملوا على توطيد علاقاتهم التجارية بعمان، مما أثار المخاوف لدى الإنجليز فجعلهم يسعون لبناء علاقات متينة مع الإمام أحمد بن سعيد بهدف إبعاد النفوذ الفرنسي عن عمان[٥].

وبذلك امتد التناحر بين الطرفين إلى منطقة الخليج العربي طيلة فترة حكم الإمام أحمد وشهدت المياه الإقليمية لعمان عدداً من المصادمات بينهما[٦]. الأمر الذي دفع الإمام أحمد إلى التشدد بالتزامه بسياسة الحياد بين بريطانيا وفرنسا في صراعهما البحري، ولكون عمان تتمتع بموقع استراتيجي مهم ومكانة تجارية متميزة، فقد أصبحت مهيأة لتكون حليفاً محتملا في الميدان السياسي لأي من الطرفين المتصارعين[٧]، كما أن مسقط نفسها غدت مركز جذب لكل من بريطانيا وفرنسا تأمل كل منهما الحصول على مركز أفضلية فيها[٨].

لقد رفض الإمام أحمد طلباتقدم به الإنجليز لإنشاء وكالة لهم في مسقط[٩]. كما رفض الدخول في أى اتفاق مع انجلترا، وكانت سياسته هذه امتداداً للسياسة التي اتبعها اليعاربة في عدم السماح للإنجليزبإنشاء وكالة لهم في عمان وهو الهدف الذي ظلت بريطانيا تحاول جاهدة تحقيقه دون نجاح[١٠].

إن موقف الإمام أحمد بن سعيد السياسي انطلق من خوفه من أطماع

الإنجليز في عمان حيث كانت انجلترا تسعى إلى بسط نفوذها علىمنطقة الخليج العربي للحفاظ على خطوط مواصلاتها البحرية إلى شبه القارة الهندية التي كانت تعتبر من أهم مستعمراتها، فبريطانيا تسعى للحصول على موطىء قدم في عمان لإدراكها أهمية عمان الإستراتيجية حيث تقع على الخط الملاحي الهام الذي يوصل إلى الهند(١١).

ومع ذلك فقد كانت علاقة الإمام أحمد بشركة الهند الشرقية الإنجليزية ودية وكان هناك نوع من الآتصالات والتبادل التجاري بين الطرفين على الرغم من عدم وجود ممثل رسمي للشركة في عمان(١٢).

ويمكن أن يعد عام ١٧٦٩م بداية العلاقة الودية بين عمان وبريطانيا حيث قام خلاله (بودام) ـ الذي أصبح عام ١٧٨٥م حاكماً لبومباي ـ بزيارة لمسقط(١٣).

كما رست السفينة البريطانية الحربية (حصان البحر) في ميناء مسقط في يوليو عام ١٧٧٥م، وكان الأميرال نيلسون من بين ضباطها(١٤). وأن السفن البريطانية التجارية التي كانت تتجه من موانئ الخليج العربي والبحر الأحمر وتعود إليها، قد اتخذت من مسقط ميناء للتوقف والتزود بالماء والمؤن قبل هذا التاريخ بوقت طويل(١٥).

لقد تعرضت السفن التجارية لبريطانيا إلى عدة هجمات من السفن الفرنسية في ميناء مسقط(١٦)، الأمر الذي دفع الإمام أحمد بن سعيد إلى ردع السفن الفرنسية وحماية السفن الإنجليزية توكيداً لسياسة الحياد التي انتهجتها عمان إزاء الصراع الدائر بين بريطانيا وفرنسا.

ففي عام ١٧٥٩م مرت سفينتان فرنسيتان هما (إلكوندي) والفرقاطة (الاكسبريسيون) بميناء مسقط تحت قيادة ديستان، وفي أثناء مرورهما بالميناءأطلق ديستان النار على سفينة تسمى (الميري) معتقداً أنها سفينة انجليزية وهي في الواقع كانت تابعة لأحد تجار البصرة من الدرجة الأولى(١٧)، فأمر الإمام أحمد بن سعيد واليه في مسقط بإطلاق النار على السفن الفرنسية التي ولت الأدبار إثر ذلك (١٨) .

وتكررت محاولة الاعتداء ثانية عام ١٧٦١م عندما وصلت حملة فرنسية جديدة ورست في ميناء مسقط قادمةً من ميناء بورت لويس وكانت تتألف من السفينة (بولون) وقارب

للحماية فتجاهل قائد الحملة حياد عمان وهاجم إحدى السفن الإنجليزية في ميناء مسقط[١٩] فتصرف والي مسقط كالسابق الأمر الذي أدى إلى هرب السفن الفرنسية[٢٠].

ثم وقع الحادث الثالث عندما تابعت إحدى السفن الفرنسية عام ١٧٧٨م سفينة انجليزية لجأت إلى ميناء مسقط فقدم حاكم مسقط خلفان بن محمد الحماية للسفينة الإنجليزية، وفي نفس الوقت قدم ملاحظة احتجاج إلى المهاجمين الفرنسيين، وعندما لم يرتدعوا أطلق النار على السفن الفرنسية التي قُتل خمسة من بحارتها قبل أن تتمكن من الهرب[٢١].

وفي عام ١٧٨١م تعرضت السفن التجارية البريطانية إلى هجمات السفن الفرنسية، وقد أدى ذلك إلى تأزم العلاقة بين عمان وفرنسا[٢٢].

رد الدكتور زكي صالح في كتابه (بريطانيا والعراق حتى عام ١٩١٤م) تصرف العمانيين حيال تلك الحوادث إلى ما أسماه ب (الدخالة) وهي من التقاليد العربية المعروفة، وقد أيده في ذلك الدكتور صالح العابد[٢٣]، فضلا عن كون تصرف الإمام أحمد بن سعيد إزاء تلك الحوادث منطلقا من السياسة التي اتبعها في الحفاظ على السيادة والاستقلالية لعمان ، فعندما كان يرفض التعرض لأحد سفنه أو سفن غيره في دائرة نفوذه فإنه بذلك يرفض النيل من سيادته على أراضيه، والتعرض لاستقلاليته فهو بذلك لم يدافع عن بريطانيا لقاء معاهدة أو ثمن وفي الوقت نفسه لم يكن له موقف ضد فرنسا، وإنما تصرف ضد التعرض والنيل من سيادة عمان أياً كان مصدر ذلك.

٢ـ العلاقات العمانية الفرنسية

وجهت فرنسا اهتمامها بعمان من وقت مبكر حيث اقترح (دي لاين) وهو مبعوث فرنسي إلى بلاد فارس عام ١٦٦٧م السيطرة على مسقط والاحتفاظ بها كقاعدة بحرية[٢٤]، ثم كتب الممثلون الفرنسيون الكثير من المذكرات ومشروعات معاهدات في فارس من أجل عقد تحالفات تضمنت الاستيلاء على مسقط وهو أمر كان يطمح إليه الفرس بشدة[٢٥]، وقد حددت تلك الوثائق حصة فرنسا والفوائد التي يمكن أن تحصل عليها من خلال امتلاكها لمسقط، غير أنها بقيت مجرد مسودات ولم يتحقق منها شيء[٢٦].

ومن الجدير بالذكر أن عمان لم تكن وحدها مسرحاً لتنافس القوى البحرية الأوروبية إنما كان الخليج العربي برمته منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي مجالاً تتصارع فيه القوى الأوروبية في سبيل التجارة والمستعمرات(٢٧)، ولعل الصراع الإنجليزي الفرنسي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، والذي شهدت فصوله مياه الخليج العربي كان من أشد الصراعات الأوروبية التي تزامنت مع حكم أحمد بن سعيد في عمان.

لقد دأبت بريطانيا بعد أن أصبحت القوة الإستعمارية الوحيدة في الهند على تأمين الطرق الموصلة إلى ممتلكاتها في الهند، لكن فرنسا على الرغم من تخليها عن مستعمراتها في الهند لبريطانيا فإنها لم تلبث أن استأنفت نشاطها ضد بريطانيا من جديد(٢٨)، فشهدت المياه الإقليمية لعمان عدداً من المصادمات بين الفرنسيين والإنجليز والتي هددت حياد الإمام أحمد بن سعيد.

كانت العلاقات بين عمان وفرنسا ترتكز على الاتجار مع جزيرة موريشيوس الفرنسية(٢٩)، التي يرجع اكتشافها إلى البرتغاليين في عام ١٥٠٥م ثم احتلها الهولنديون عام ١٥٩٨م وسموها بجزيرة موريشيوس نسبة إلى أحد حكامها، وفي عام ١٧١٥م استولى الفرنسيون على هذه الجزيرة فأسموها بجزيرة فرنسا (إيل دي فرانس)(٣٠)، وقد حققت فرنسا بذلك مكسباً استعمارياً حيث اتخذت منها قاعدة بحرية فرنسية ومركزاً تجاريا إذ قامت شركة الهند الشرقية الفرنسية بإرسال وكلائها للإقامة بها وبذلك أصبحت الجزيرة قاعدة للنشاط الفرنسي في الجزء الغربي للمحيط الهندي بما في في ذلك منطقة الخليج العربي(٣١).

لقد اتخذت فرنسا من الجزيرة قاعدة للاتصال بمن تستطيع الاتصال بهم من الحكام الوطنيين في بحار الشرق، وعلى هذا الأساس تم الاتصال بين حكام الجزيرة الفرنسية وبين الإمام أحمد بن سعيد(٣٢) وكانت جزيرة فرنسا تصدر سكر القصب والقرنفل والتوابل وتستورد بدلاً منها اللؤلؤ والخيول والتمور والفواكه المجففة والأسماك المملحة(٣٣).

وبسبب هذه المصالح التجارية أصبحت العلائق بين الإمام أحمد بن سعيد وحكام الجزيرة يسودها الصداقة والود(٣٤) إذ اعتاد (لامارتنيك) حاكم الجزيرة الفرنسية على إرسال الهدايا من المدافع والعتاد إلى الإمام أحمد

الذي كان يرد عليها بهدايا أخرى مناسبة(٣٥).

وعلى الرغم من هذه العلاقات التجارية النشطة بين عمان والجزيرة الفرنسية، فإن العلاقات الفرنسية العمانية ظلت محصورة في إطار ضيق، إذ رفض الإمام أحمد الطلبات العديدة التي تقدمت بها شركة الهند الشرقية الفرنسية للسماح لها بإقامة مركز تجاري في مدينة مسقط، وقد ظلت الشركة حتى نهاية عهد الإمام أحمد بدون وكالة في مسقط كما لم يكن لفرنسا ممثل رسمي في عمان، إلا أنها مع ذلك احتفظت بالعلاقات الودية مع عمان عن طريق جزيرة(موريشيوس) الفرنسية وقنصلها في بغداد(٣٦).

لقد استند موقف الإمام أحمد بن سعيد هذا تجاه فرنسا على مبدأ الحياد الذي التزم به طيلة حكمه حيال التنافس الإنجليزي الفرنسي في منطقة الخليج العربي إذ حاولت كلتا الدولتين السيطرة على الطريق المؤدي من وإلى الهند، وبما أن عمان تقع على هذا الطريق، فإن فرنسا قد اتخذت من ميناء مسقط سوقالغنائمها من السفن والبضائع الإنجليزية (كما ادعت ذلك بريطانيا) ومركزاً للتجسس على الإنجليز في الهند وجمع المعلومات من خلال البحارة العرب، أو سكان مسقط أو الذين يأتون البصرة أو يذهبون إلى حلب فضلا عن اعتماد فرنسا ميناء مسقط كمصدر رئيسي لتموين جزيرة فرنسا بما تحتاجه من المواد الغذائية(٣٧)، كما أن اتخاذ جزيرة فرنسا كقاعدة بحرية لفرنسا جعل من المحتم سحب عمان إلى ميدان الصراع البريطاني - الفرنسي وذلك لأن واحداً من أهداف تلك القاعدة هو الهجوم على التجارة الإنجليزية القادمة من بومباي والمتجهة إلى مسقط في طريقها للخليج العربي أو البحر الأحمر، كما شكلت جزيرة فرنسا حجر عثرة بالنسبة للمصالح الإنجليزية في الهند ومسقط، وبذلك أصبحت مسقط مسرحا للصراع البحري الدائر بين فرنسا وانجلترا(٣٨)، ونتيجة ذلك أصبحت مسألة حياد عمان محفوفة بالمخاطر والصعاب فضلا عن أن المصالح التجارية لعمان تتطلب تقديم المياه والمؤن وتوفير الحماية للسفن التي ترسي في ميناء مسقط، غير أن الإمام أحمد كان مصراً على موقعه الحيادي تجاهها، وقد بذل الجهود المتواصلة كي يبقي عُمان بعيداً عن الصراع، ولمّا وجد أنه من الصعب العيش بسلام في وسط ميدان المعركة إضطر لاستخدام القوة في سبيل

المحافظة على سياسة الحياد، وقد فعل هذا مع السفن الفرنسية التي طاردت السفن التجارية الإنجليزية، وهي في المياه الإقليمية لعمان وذلك في الأحداث التي وقعت في الأعوام ١٧٥٩و ١٧٦١ و١٧٧٨م[٣٩].

تعرضت العلاقات الفرنسية العمانية إلى أزمة شديدة عام ١٧٨١م بعد أن تصاعد التصادم الإنجليزي الفرنسي في أثناء حرب الاستقلال الأمريكية فانعكس ذلك سلباً على حياد عمان من قبل أساطيل الدولتين، وبالأخص الأسطول الفرنسي الذي قام بأسر السفينة المسقطية (الصالح) ونهب بضاعتها، وذلك عندما التقى بها في الخليج، وقد كانت السفينة العمانية محملة بالبضائع والمنتجات الهندية ، وفيها بطاريتان، ومسلحة ب(٥٠) مدفعاً، وكانت وجهتها البصرة، وتعتبر شحنة السفينة (الصالح) مهمة جداً لأنها مرسلة إلى تجار عديدين وقد تمكن أحد أفراد طاقمها من الهرب من الأسر فأخبر الإمام أحمد بن سعيد بالحادث[٤٠].

تأثر الإمام أحمد بن سعيد عند سماعه الحادث لكونه يمثل اعتداءً صريحاً يقع ضمن دائرة نفوذه، وهو ليس في حالة حرب ضد فرنسا، لذلك أعطى أوامره بالآستيلاء على إحدى السفن الفرنسية الراسية في ميناء مسقط للتزود بالمياه، وهي تجهل ما وقع للسفينة العمانية[٤١]، إلا أن الإمام عاد وفضّل حل المشكلة بالطرق الدبلوماسية متحاشياً اللجوء إلى الانتقام من السفن الفرنسية، ولهذا أطلق سراح السفينة الفرنسية المأسورة وأرسل ملاحظة إلى حاكم جزيرة موريشيوس الفرنسية للاحتجاج ضد أعمال السفن الفرنسية القرصنية المتصاعدة وخرقها لحياد عمان، كما وجه رسالة أخرى إلى لويس السادس عشر عبّر فيها عن رغبته في الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع فرنسا، كما طالب باتخاذ عقوبات ضد قبطان السفينة المسؤول عن حادث أسر السفينة العمانية (الصالح)، لقد لعب القنصل الفرنسي في العراق (روسّو) دوراً مهمّاً في وصول سخط الإمام أحمد، وعدم رضاه من تصرفات السفن الفرنسية إلى حكومته، فكان ردها إيجابياً لرغبتها في الحفاظ على الصداقة العمانية الفرنسية إذ تعهدت الحكومة الفرنسية بتعويض الإمام أحمد عن السفينة المأسورة (الصالح)[٤٢].

أضرت تلك العمليات البحرية التي قامت بها السفن الفرنسية بصغار التجار العرب لأنها أخذت تجوب مياه

السواحل الغربية للهند، ومياه الخليج العربي كي تضرب السفن التي تشك بأنها تحمل بضائع تعود للتجار الإنجليز علاوة على السفن الإنجليزية نفسها، فأدى ذلك إلى تضرر التجارة في عموم الخليج العربي وتدمير الكثير من السفن الصغيرة فيه(٤٣).

فطالب تجار بغداد الإمام أحمد بمنع الفرنسيين من دخول عمان لأنهم تسببوا في خسارتهم وفقدان بضائعهم جراء الهجمات الفرنسية على السفن التجارية في ميناء مسقط .

وعلى الرغم من تلك الإعتداءات الفرنسية، فإنها لم تؤد إلى العداء بين فرنسا وعمان، والواقع إن العلاقات العمانية الفرنسية كانت أكثر قوة ومتانة من علاقات عمان ببريطانيا حيث أدرك الإمام أحمد منذ البداية نفع الصداقة الفرنسية(٤٤)، فأقام علاقات تجارية نشيطة مع جزيرة فرنسا، كما كانت له علاقة صداقة شخصية مع القنصل الفرنسي في البصرة(٤٥).

لقد كانت التجارة العمانية مع المستعمرات الفرنسية تحقق مصالح أكبر للعمانيين، فكانوا يتولون بأنفسهم نقل التجارة إلى تلك المستعمرات، وفي أحيان أخرى كان الفرنسيون يستوردون حاجاتهم من المؤن بواسطة السفن العمانية(٤٦)، وهذا مايفسر لنا رغبة الطرفين في تجاوز المواقف السلبية التي وقعت بينهما إذ كان الفرنسيون يسترضون الإمام أحمد لما يبدر منهم من تجاوز ضمن حدوده بما يقدمون له من أعذار وهدايا(٤٧).

ويبدو أن الإمام أحمد لم يكن راغباً بتصعيد الصراع مع الفرنسيين، ولهذا لجأ إلى الأساليب الدبلوماسية بعد أسره لإحدى السفن الفرنسية، وقد لقي هذا التصرف الدبلوماسي من قبل الإمام أحمد، والذي وازن فيه بين المحافظة على سياسة الحياد لبلاده وبين الإبقاء على العلاقة الجيدة مع فرنسا، دعماً قوياً من قِبل القنصل الفرنسي ببغداد وحاكم جزيرة فرنسا (موريشيوس)، فهما قد أبداه في طلب التعويض عن السفينة المأسورة(٤٨)، فأبدت الحكومة الفرنسية اعتذارها للإمام أحمد مع إرسال سفينة فرنسية تعويضاً عن السفينة (الصالح) لكن السفينة الفرنسية لم تصل عمان إذ وقعت بالأسر من قِبل طرّاد إنجليزي، وهي في طريقها إلى مسقط، فوقع الإمام أحمد مرّة أخرى ضحية الصراع الفرنسي ـ الإنجليزي، ولم يتم التعويض إلا بعد انتهاء حكم

الإمام أحمد، وقد عادت العلاقات العمانية الفرنسية حسنة من جديد.

٣ - العلاقات العمانية الفارسية

كانت عمان في عهد الإمام أحمد بن سعيد تتمتع بعلاقات دولية طيبة مع الجميع، ما عدا بلاد فارس التي ظلت علاقاتها سلبية مع عمان طول عهد الإمام أحمد بسبب تزعمه للمقاومة العمانية ضد الغزو الفارسي الذي شنه نادر شاه بناءً على طلب سيف بن سلطان الثاني لاستعادة حكمه على عمان، وقد لقي هذا الطلب استجابة سريعة من نادر شاه الذي كان يتوق إلى فرصة تمكنه من مد نفوذه إلى الخليج العربي بالسيطرة على عمان وموانئها المهمة.

لقد كان اندفاع نادر شاه نحو تحقيق أطماعه التوسعية في عمان بداية لتورط فارسي دام حتى سنة ١٧٤٤م، خسر الفرس خلاله (٢٠،٠٠٠) رجل من قواتهم الغازية دون أن يحققوا فائدة بحرية لفارس[٤٩]، بفضل الصمود والصلابة التي أبداها الإمام أحمد عندما كان والياً على صحار.

ولما اغتيل نادر شاه تأثر مركز فارس كثيراً بسبب القلاقل والاضطرابات التي وقعت فيها بدافع التنافس على السلطة حيث شغلت عن تحقيق أطماعها التوسعية في الخليج العربي إذ أحدث التفكك الداخلي أثره في ذلك التدهور الذي أصاب القوة البحرية الفارسية[٥٠]، لذلك لم يحدث أي احتكاك بين فارس وعمان في الفترة الواقعة بين اغتيال نادر شاه ووصول كريم خان الزند للحكم، ومن الجانب الآخر كانت عُمان مشغولة خلال هذه الفترة بمشاكلها الداخلية، وانصرافها لبناء الدولة الجديدة وتوطيد نفوذها وهي أمور لاتقل خطورة بالنسبة لعمان عما كانت عليه الحالة بالنسبة لفارس، وهكذا فانصراف كل من الدولتين - فارس وعمان - لمعالجة مشكلاتهما الخاصة، أضفى نوعاً من الهدوء على العلاقات بينهما غير أن نجاح كريم خان في تثبيت سلطته حرك فيه الأطماع التوسعية في الخليج العربي فكان أول شيء فكر فيه بعد توطيد مركزه هو أن يعيد للقوة البحرية الفارسية بعض ما كان لها من القوة[٥١] فوجه اهتمامه صوب عمان ليعيد احتلال فارس لها، ولما عجز عن ذلك بسبب قدرة الإمام أحمد الحربية وضخامة قواته، ظل مستمراً في معاداته لأحمد ولا يضيع

أي فرصة تلوح لمضايقته ومعارضة خططه(٥٢).

ظهر النزاع بين الإمام أحمد الذي تزعم تحالف القبائل العربية في الخليج وبين كريم خان عندما طالب الأخير بإعادة الهيمنة الفارسية على عمان استناداً إلى خضوعها المسبق لفارس في عهد نادر شاه إبان الغزوات الفارسية لها عام ١٧٣٨م ـ ١٧٤٤م.

وعندما عجز كريم خان عن تحقيق ذلك لجأ إلى أسلوب المطالبة بدفع الإتاوة لفارس كدليل على خضوع عمان لها فرفض الإمام أحمد ذلك رفضاً قاطعاً، ورد عليه بشدة قائلا:"**إذا أصرّ كريم خان على مطلبه هذا فلن تجيبه إلا طلقات المدافع والرصاص**"(٥٣).

توترت العلاقات بين الطرفين، لأن كريم خان عدّ ذلك تحديا له أو إهانة وجهها الإمام أحمد لفارس، وظهر عدم الرضا واضحاً حين أراد كريم خان أن يتعرض لعمان فأرسل قوات كبيرة قدرت بستة آلاف جندي عبرت جزيرة لنجة باتجاه عمان، وعندما علم الإمام أحمد بادر بحصار القوات الفارسية فأجبرها على طلب الأمان وانسحبوا قافلين إلى فارس(٥٤).

في الوقت الذي قام فيه الإمام أحمد عام ١٧٧٠م بغارة على ميناء بوشهر مطالباً بترضية كافية تعويضاً عن استيلاء فارس على بعض السفن العمانية التي كانت راسية في بعض الموانى الفارسية(٥٥).

أدرك كريم خان عجزه عن تنفيذ تهديداته بسبب القوة التي وصلتها عمان في عهد الإمام أحمد، لذلك حاول التنسيق مع أطراف دولية لمساعدته في مهاجمة عمان ففاتح كلاً من العثمانيين والإنجليز بذلك غير أنهم رفضوا التعاون معه في هذا الصدد(٥٦). فاضطر للتفاوض مع الإمام أحمد بعد أن عجز عن احتلال عمان وقد خوّل الشيخ ناصر آل مذكور حاكم بوشهرعام ١٧٧٢م بذلك.

لقد كان الإمام راغباً في إقامة علاقات طبيعية مع فارس شريطة ألا تمس سيادة عمان واستقلالها فوافق على فتح باب المفاوضات مع فارس، لكن إصرار كريم خان على موقفه السابق في أن يترافق مع إقامة العلاقة دفع عمان للإتاوة حال دون نجاح المفاوضات(٥٧).

عادت العلاقات سيئة بين الجانبين فأعلن الإمام أحمد تزعمه للحلف

العربي الذي ضمّ شيخ القواسم، وشيخ هرمز ضد فارس، وقد نجحت قوات الحلف بمهاجمة ميناء بندر عباس عام ١٧٧٣م وتحطيم بعض السفن الفارسية فيه ومستودعا عسكريا للذخيرة قد شيده الفرس في ميناء لنجة(٥٨).

وعندما تقدمت القوات الفارسية لاحتلال البصرة في مارس عام ١٧٧٥م، استجاب الإمام أحمد لطلب أهالي البصرة في نجدتهم(٥٩)، حيث وصل الأسطول العماني إلى البصرة في أغسطس عام ١٧٧٥م، فاخترق السلسلة الحديدية التي وضعها الفرس عند مدخل شط العرب لعرقلة تقدمه ودمر العديد من السفن الفارسية الأمر الذي ألحق خسائر جسيمة بالقوات الفارسية(٦٠).

كان الفرس يتحينون الظروف الملائمة للسيطرة على عمان فعلى إثر حصارهم للبصرة، طلب كريم خان إعداد خطة للزحف على عمان، الأمر الذي دفع الإمام أحمد للعودة بأسطوله، لكن الخطة الفارسية لم تنفذ بسبب اضطرار الفرس لفك الحصار عن البصرة عام ١٧٧٩م، والظروف الداخلية التي مرّ بها الفرس بعد ذلك(٦١).

استمرت العلاقات سلبية بين عمان وفارس حتي وفاة كريم خان عام ١٧٧٩م، إذ انحسرت الأطماع الفارسية فترة من الزمن بعد اغتيال كريم خان الزند، فأصبحت فارس أكثر البلدان ضعفاً وأسوأها نظاماً نتيجة الصراعات التي قامت بين ورثة كريم خان للوصول إلى السلطة بفارس، حيث تولى الحكم سبعة أفراد من الأسرة الزندية خلال ثمانية عشر عاماً(٦٢)، فبسبب هذه الاضطرابات تراجعت فارس بعض الوقت عن أطماعها التوسعية مما أضفى الهدوء على العلاقات العمانية الفارسية حتى نهاية عهد الإمام أحمد بن سعيد في عام ١٧٨٣م.

٤ - العلاقات العمانية العثمانية

اتسمت علاقة عمان بالدولة العثمانية في عهد الإمام أحمد بن سعيد بالعلاقة المتينة، حيث واصل الإمام أحمد سياسة أسلافه اليعاربة في تنمية العلاقات بالدول الإسلامية، وإذا كانت علاقته بفارس سلبية بسبب أطماعها التوسعية، فإنه سعى إلى توثيق علاقاته مع الدولة العثمانية(٦٣).

فكان للإمام صداقة قوية مع السلطان العثماني ومع الإدارة العثمانية في العراق[٦٤]. إن علاقته الحسنة مع الدولة العثمانية تعود بالأساس لموقفها المساند لعمان خلال تحريرها لأراضيها من الغزو الفارسي قبل تولي الإمام أحمد الحكم في عمان[٦٥] فضلاً عن العلاقات التجارية بين البلدين، إذ كانت معظم تجارة عمان أيام الإمام أحمد مع العراق[٦٦]، وقد زاد من متانة العلاقة بينهما الموقف الإيجابي الذي اتخذته الدولة العثمانية عندما طلب منها كريم خان الزند حاكم فارس عام ١٧٧٤م معاونته ضد عمان، فلم تجبه لما أراد ورفضت ذلك رفضاً قاطعاً حرصاً منها على العلاقة الجيدة التي تربطها بعمان[٦٧].

وعندما هبّ الإمام أحمد بن سعيد لنجدة أهالي البصرة وفكّ الحصار البحري الفارسي عنهم عام ١٧٧٥م، ليتسنى بذلك إمداد البصرة بالتجهيزات، فقد أشاد السلطان العثماني مصطفى الثالث بهذه المساعدة التي قدمها الإمام أحمد للدولة العثمانية وأصدر فرماناً يقضي بدفع إكرامية مالية سنوياً إلى عمان، وقد استمرت هذه الإكرامية نافذة طيلة عهد الإمام أحمد[٦٨]، كما منح السلطان العثماني التجار العمانيين حرية التجارة في العراق وأمر برفع الرسوم التي كانت تفرض على القهوة العمانية، وقد ظلت العلاقات إيجابية ومتينة بين الطرفين طوال عهد الإمام أحمد حيث بقيت مصالح البلدين مترابطة، فعمان لاتستطيع الاستغناء عن تجارتها مع العراق، والعثمانيون لايملكون أسطولا في مياه الخليج العربي فاعتمدوا على قوة عمان البحرية في حماية الشواطىءالجنوبية والغربية لبغداد[٦٩].

٥ - العلاقات العمانية الهندية

كانت عمان بحكم موقعها الجغرافي حلقة الأتصال بين الوطن العربي والهند الأمر الذي ساعد على نشوء العلاقات الجيدة بينهما وبين الهند[٧٠]، وقد قامت العلاقات الدبلوماسية بينهما إبان عهد الإمام أحمد بن سعيد الذي نجح في توطيد علاقات الصداقة بينه وبين حاكم مانجالور (إحدى مقاطعات الهند) عندما أرسل الإمام أحمد ممثله إلى هذه المقاطعة مستفسراً عن سبب انقطاع الأرز الذي اعتاد أن تصل سفنه إلى عمان سنوياً، فاتضح أن

ذلك حدث نتيجة اعتداء القراصنة الذين ينتمون لمختلف الجنسيات الآسيوية والأوروبية، والذين يعيشون على سواحل مَليار على السفن التي تحمل الأرز لمسقط[٧١].

عند ذلك أوعز الإمام أحمد لأسطوله بالتحري للقضاء على القراصنة وتأديبهم[٧٢]، الأمر الذي بعث الارتياح في نفس حاكم مانجالور فأرسل - اعترافاً منه بالجميل - بعثة دبلوماسية برئاسة طيبو صاحب إلى عمان لتقديم الشكر إلى الإمام أحمد على موقفه الإيجابي معهم، فوصلت البعثة إلى الرستاق عام ١٧٧٤م حيث استقبلها الإمام أحمد بحفاوة بالغة ومنح أعضاءها قطعة أرض شيد فوقها بيتاً لتسكنه البعثة عرف باسم **"بيت النواب"**[٧٣]، والذي هو بمثابة الوكالة التجارية لمقاطعة مانجالور في عمان، وكان يقيم فيه مبعوث من المقاطعة، وقد استمر ذلك الوضع قائماً حتى نهاية عهد الإمام أحمد عام ١٧٨٣م.

ثم توثقت العلاقة العمانية الهندية من خلال مقاطعة مانجالور، إذ أرسل الإمام أحمد بعثة رسمية إلى مانجالور لعقد معاهدة دفاعية مشتركة مع حاكمها[٧٤]، نصت على تعهد حاكم المقاطعة الهندية بالوقوف إلى جانب الإمام أحمد بالمال والرجال في حالة تعرض عمان لاعتداء خارجي[٧٥].

كما كانت لعمان علاقات طيبة مع مقاطعة ميسور الهندية، فقد وصل سفيرها لعمان وأجرى مقابلة مع الإمام أحمد بن سعيد في شهر يونيو عام١٧٧٦م توثقت بعدها العلاقات التجارية مع المقاطعة، فكان نحو خمس سفن تحمل علم ميسور تتردد على العاصمة العمانية كل عام[٧٦].

لقد اهتم الإمام أحمد كثيراً بصلاته مع المقاطعات الهندية بصفة عامة والإمارات الإسلامية هناك بصفة خاصة، إذ عاصر الإمام أحمد عند توليه مقاليد الحكم في عمان حاكم حيدر أباد المدعو نظام الملك، وقد عرفت هذه الإمارة الهندية بدورها الفعال في مقارعة الإستعمار البريطاني، فسعى الإمام أحمد إلى توثيق الصلة بها، ودعمها سياسياً وتجارياً[٧٧].

لقد كانت التجارة عصب العلاقة التي تربط عمان بمقاطعات الهند، إذ كانت السفن التجارية العمانية تتردد على الموانيء الهندية لكي تحمل المواد الغذائية، ولاسيما الأرز اللازم لحاجات سكان الخليج العربي، كما قامت السفن العمانية بنقل حاجات

التموين للمستعمرات الفرنسية في المحيط الهندي، ومثلما استدعت هذه الحركة التجارية النشيطة إلى تطهير سواحل الهند من القراصنة فقد استدعت أيضاً توطيد العلاقات بين عمان ومقاطعات الهند، فكان الإمام أحمد يتبادل الهدايا ويوقع الاتفاقيات مع أمراء هذه المقاطعات.

الخلاصة والاستنتاجات

أثبت أحمد بن سعيد خلال حكمه لعمان مقدرة فائقة في انتهاج سياسة الحياد ، وتعزيز استقلالية البلاد وصون سيادتها من الثلم والانتهاك ، فقد تعامل بمرونة ديبلوماسية مع الدول التي تعاملت معه على أساس الاحترام المتبادل والتعاون المخلص كالدولة العثمانية والهند ، بينما استخدم القوة مع الذين أرادوا النيل من سيادة عمان والتعرض لاستقلالها كما فعل مع بلاد فارس عندما وقف بصلابة أمام أطماعها التوسعية في عمان ، وكذلك الأمر مع فرنسا عندما اضطر أكثر من مرة لإطلاق النار على السفن الفرنسية التي خرقت حياد عمان ، وكان بذلك قد أرسى دعائم سياسة حيادية في التعامل الدولي .

د.فاضل محمد الحسيني

جامعة محمد الخامس

كلية الآداب والعلوم الإنسانية ــ الرباط

الهوامش

١ ـ السيار ، عائشة علي ، دولة اليعاربة في عمان وشرق إفريقيا ، تقديم د. صلاح العقاد، بيروت ، ١٩٧٥م ، ص ١٦٦ .

٢ ـ العابد ، صالح محمد ، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ، ١٧٩٨م ـ ١٨١٠م ، بغداد ١٩٧٩م ، ص ٦٢ .

٣ ـ صالح ، زكي ، بريطانيا والعراق حتى عام ١٩١٤م ، دراسة التاريخ الدولي والتوسع الاستعماري ، بغداد ، ١٩٦٨م ، ص ٦٤ .

٤ ـ قاسم ، جمال زكريا ، دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا ، ١٧٤١م ـ ١٨٦١م ، القاهرة ١٩٦٨م ، ص ١٠٤ .

٥ ـ العابد ، فؤاد سعيد ، سياسة بريطانيا في الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، الكويت ، ١٩٨١م ، ص ١٨٩ .

٦ ـ صالح ، المصدر السابق ص ٦٣ .

٧ ـ العابد ، صالح ، موقف بريطانيا....المصدر السابق ، ص ٦٤ .

٨ - SKEET , Ian , Mascat and Oman the end of an era , London , 1974 , P. 40 .

٩ ـ أبو ياسين ، سمير محمد علي ، العلاقات العمانية البريطانية ، ١٧٩٨م ـ ١٨٥٦م البصرة ، ١٩٨١م ، ص ١٩ .

١٠ ـ روت ، رود وُلف سعيد ،سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ، ١٧٩١م ـ ١٨٥٦م ، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي ، مركز دراسات الخليج العربي ، البصرة ، ١٩٨٣م ، ص ١٥٥ .

١١ - بن حبيب ، مال الله بن علي ، ملامح من تاريخ عمان ، ترجمة محمد محمد كامل ، عمان بدون تاريخ ، ص ٢٦ .

١٢ - أبو ياسين ، المصدر السابق ، ص ٢٩ .

١٣ - لوريمر ، جون غوردون ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، الجزء الثاني ، ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر ، بيروت ١٩٧٠م ، ص ٦٥٣ و ٦٥٤ .

١٤ - THOMAS, Bertram, Arab, Rule under the Albu said dynasty of oman , 1741-1937 London , 1938 ,P. 208 .

١٥ - PARSONS , Abraham , Travel in Asia and Africa, London 1808 ,P. 208 .

١٦ - إبراهيم ، عبد العزيز عبد الغني ، بريطانيا وإمارات الساحل العماني ، بغداد ، ١٩٧٨م ، ص ٦٤ .

١٧ - الحلو ، صادق ياسين ، القرصنة الأوروبية في الخليج العربي وسواحل إفريقيا الشرقية ضد القوى البحرية العربية في القرن الثامن عشر ونهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر ، الوثيقة ، العدد الثاني عشر ، السنة السادسة ، البحرين ، ١٩٨٨م ، ص ١٢١ و ١٢٢ .

١٨ - COUPLAND ,R , East Africa and its invader , from the earliest times to the death of Sayyid Said in 1856, Oxford, 1961, P.85.

١٩ - الحلو ، الوثيقة ، المصدر السابق ص ١٢١ .

٢٠ - العابد، صالح، موقف بريطانيا .... المصدر السابق، ص ٦٧.

٢١ - الحلو ، الوثيقة ، المصدر السابق ، ص ١٢١ و ١٢٢ .

٢٢ - SKEET , op , cit P. 41.

٢٣ - صالح ، المصدر السابق ، ص ٦٣ و العابد صالح ، موقف بريطانيا ، المصدر السابق ، ص ٦٨ .

٢٤ - العابد ، صالح ، موقف بريطانيا ، المصدر السابق ، ص ٦٤ .

٢٥ - قاسم ، جمال زكريا ، الخليج العربي ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول ، ١٥٠٧م - ١٨٤٠ ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ١٧٤ .

٢٦ ـ العابد ، صالح ، موقف بريطانيا ، المصدر السابق ، ص ٦٥ .

AGWANI , M.S. The Gulf in international politics from the - ٢٧
begining of the modern times to the end of the second world war, historical studies conferance on eastern arabic , published by Assocation of arab, historians, Doha Qatar, 1976 P. 147.

٢٨ ـ قاسم ، دولة بوسعيد ، المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

٢٩ ـ روث ، المصدر السابق ، ص ١٣٣ .

SKEET ,Op - Cit P. 40. - ٣٠

COUPLAND ,Op. Cit., P.37. - ٣١

٣٢ ـ مايلز ، س. ب. ، الخليج ، بلدانه وقبائله ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، عمان ، ١٩٨٢م ، ص ٢٢٦ .

ALAZZAWI,Mohammed, La revalite Franco-Britannique dans - ٣٣
Le Gulfe Arabe,1793-1862 th, vol.1, these de doctorat de etat aix en-provence, Mars, 1985, P.115 .

٣٤ ـ قاسم ، التوسع الأوروبي ، المصدر السابق ص ١٧٦ .

٣٥ ـ مايلز ، المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .

٣٦ ـ ويلسون ، ارنولد ، تاريخ الخليج ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، عمان ١٩٨١م ص ١٦٢ و ١٦٣ .

Alazzawi ,Op. Cit., P.115 . - ٣٧

Guailaine , (m.) Docoument sur l`histoire la geographie et le - ٣٨
commerce de l`afrique orientale ,vol. 17 ,Paris , 1857 , P. 555.

٣٩ ـ لمعرفة تفاصيل الأ حداث ، انظر البحث نفسه ، المحور الأول .

CUAILAINE, Op. Cit.,P.205 . - ٤٠

COUPLAND, Op. Cit., P.80 - ٤١

٤٢ - AL HILO , Sadik , l'europe et les proplemes Mars times du Golfe Arabe ,de 1789-1857, vol. 1 these de doctorat D'etat , Aixen provance, 1984, P.108-109

٤٣ - AUZOUX, (A), La France et Mascate aux XVIIIe et XIXe, siecles. Revued histoire diplomatique, Vol.23Paris,1909, P.526.

٤٤ - روت ، المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

٤٥ - SKEET,op. cit. ,P. 41

٤٦ - العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة ، ١٩٦٥م ص٢٤.

٤٧ - بالو ، إيزابيلا ، عمان وفرنسا ، صفحات من التاريخ ، ترجمة السيد خزعل ، مطابع شركة تيب ، باريس ، بدون تاريخ ، ص ٦ .

٤٨ - ALHILO, Op. Cit.,P.110 .

٤٩ - العابد ، صالح محمد ، دور القواسم في الخليج العربي ، ١٧٤٧م - ١٨٢٠م ، بغداد ١٩٧٦م ، ص ٤٥ .

٥٠ - قاسم ، دولة بوسعيد ، المصدر السابق ، ص ٧٢ .

٥١ - ADAMIYAT , Fereydun ,Bahrain Islands, A legal and Diplomatic study of the British - Iranian controversy, New York 1955, P.30.

٥٢ - لوريمر، القسم التاريخي ، الجزء الثاني ، المصدر السابق ، ص ٦٤٩ .

٥٣ - Selections from the records , of the Bombay government , new series , No. XXIV , Bombay 1856 , P.170

٥٤ - المجهول ، تاريخ أهل عمان ، تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٨٠م ، ص ١٥٨ .

٥٥ - لوريمر ، القسم التاريخي ، الجزء الأول ، ص ٢٣٥ .

٥٦ -

Letter from Henry Moore ,to Honorable Gentlmen I , May 1774 , F. R. , vol 17

٥٧ - Letter from Honorable Gentlmen to Georg Abraham,22 October , 1774 , F. R. vol. 17

٥٨ - قاسم ، التوسع الأوروبي ، المصدر السابق .

٥٩ - الأزكوي ، سرحان بن سعيد ، تاريخ عمان المقتبس من كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ، تحقيق د. عبد المجيد حسيب القيسي ، دار الدراسات الخليجية ، أبوظبي ١٩٧٦م ، ص ١٥٨ .

٦٠ - العابد ، صالح محمد ، البصرة في سنوات المحنة ، ١٧٧٥م - ١٧٧٩م ، مجلة المورد ، المجلد الرابع عشر ، العدد الثالث ، بغداد ١٩٨٥م ص ٤٥ .

٦١ - قاسم ، التوسع الأوروبي ، المصدر السابق ص ١٥٢ .

٦٢ - SYKES, Percy, A history of Persia, vol.11, London 1969, P. 281 .

٦٣ - العقاد ، المصدر السابق ، ص ٥٢ .

٦٤ - الداود ، محمود علي ، محاضرات عن التطور السياسي الحديث لقضية عمان ، القاهرة ١٩٦٤م ، ص ٢٢ .

٦٥ - مايلز ، المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .

٦٦ - لوريمر ، المصدر السابق ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، ص ٦٥٢ .

٦٧ - لونكريك ، ستيفن همسلي ، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر الخياط ، بغداد ١٩٤١م ، ص٢٠١ .

٦٨ - ابن رزيق ، حميد بن محمد ، الفتح المبين في مسيرة السادة البوسعيديين ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ود. محمد مرسي عبد الله ، عمان ١٩٧٧م ، ص٣٧١ .

٦٩ - العقاد ، المصدر السابق ، ص ٥٢ .

٧٠ - المصدر نفسه ، ص ٥٣ .

٧١ - قاسم ، دولة بوسعيد ، المصدر السابق ص ٨٧ .

٧٢ - ابن رزيق ، المصدر السابق ، ص ٣٧١ .

٧٣ ـ المصدر السابق ، ص ٢٧٢ .

٧٤ ـ الداود ، المصدر السابق ، ص ٢٩ و ٣٠ .

٧٥ ـ ابن رزيق ، المصدر السابق ، ص ٣٧٢ .

٧٦ ـ لوريمر ، المصدر السابق ، القسم التاريخي ، الجزء الثاني ، ص ٢٥٣ .

٧٧ ـ العقاد ، المصدر السابق ، ص ٥٣ .

الموقف البريطاني من التواجد العثماني في الأحساء وقطر

دراسة وثائقية من خلال المراس

في البداية سوف نشير الى الأهمية التاريخية لهذه الرسائل السياسية ، ثم تعريف عام عن الرسائل التي تتعلق بموضوعنا ، وبعدها نصوّر القلق البريطاني من التواجد العثماني في الاحساء وقطر ، ابتداء من رسالة الوكيل المقيم البريطاني في البحرين ، الى رسالة المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي الى المعتمد السياسي البريطاني في بغداد ، وأخيرا رسالة القنصل العام البريطاني في بغداد الى السفير البريطاني في اسطنبول .

ثم يذكر البحث رسالة السفير البريطاني في طهران الى وزير خارجيته عن الأوضاع في قطر ومشكلة الرعايا الفرس هناك ، وبعدها رسالة السفير البريطاني في اسطنبول ثم رسالة الخارجية البريطانية الى وزارة الهند وأخيرا رد حكومة الهند على رسالة الخارجية البريطانية .

الأهمية التاريخية للرسائل البريطانية :

تعتبر الرسائل التي سنعرضها من أهم الوثائق البريطانية لعدة أسباب منها :

أولا : انها توضح لنا كيفية اصدار القرار السياسي للحكومة البريطانية ، والمراحل التي يتم فيها اتخاذ الخطوات اللازمة بعد دراسة من مختلف الجوانب «لموضوع معين» من خلال عرض التقارير والرسائل من الجهات المعنية ، والتدرج الذي يتم عبره نقل المعلومات اللازمة حتى تصدر الجهة

عام ١٨٨٨

...لات البريطانية

بقلم: الدكتور
محمد حسن العيدروس (الامارات)

المختصة، كوزارة الخارجية قرارها بعد استيفائها لوجهات النظر المختلفة والمعنية بالأمر.

ثانيا: كانت العلاقات البريطانية - العثمانية تمر في هذه المرحلة بحذر وتوتر شديد، خاصة بعدما أعلن السلطان عبدالحميد فكرة الجامعة الاسلامية، ومساندة المسلمين ضد الاستعمار البريطاني الذي كان يحكم معظم الأجزاء الاسلامية في آسيا وافريقيا، وهذا ما جعل البريطانيين ينظرون الى سياسة السلطان عبدالحميد نظرة الشك والريبة مما يشكل خطرا على تواجدهم ومصالحهم في المستعمرات، ويثير مشاعر المسلمين في تلك المناطق وخاصة مسلمي الهند وأفغانستان، الذين كانوا يتطلعون الى العون الخارجي لانقاذهم من الاستعمار البريطاني ووصول العثمانيين الى الخليج العربي الذى قد يقرب المسافة اليهم، وخاصة أثناء قدومهم الى مواسم الحج في الديار المقدسة بالحجاز.

واضافة الى ذلك هناك أسباب أخرى، مثل فقدان الدولة العثمانية أقاليمها في البلقان، وفتح قناة السويس مما يسهل

على القوات البحرية العثمانية التحرك الى أقاليمها في جنوب وشرق الجزيرة العربية .

ثالثا : قلق الحكومة البريطانية من التواجد العثماني في الاحساء وقطر ، ومحاذاته للنفوذ البريطاني في كل من البحرين وأبوظبي ، وهنا تكمن الخطورة من امتداد التوسع العثماني الى تلك المناطق ذات النفوذ البريطاني وتعاطف عرب الخليج مع الدولة العثمانية .

رابعا : تأتي أهمية هذه الرسائل لانها جرت في الفترة ما قبل الحرب العالمية الاولى ، كما إنها أدت فيما بعد الى اتفاقية سنة ١٩١٣ ورسم الخط الأزرق بين الجانب البريطاني والجانب العثماني .

تعريف عام بالمراسلات السياسية البريطانية :

جرت المراسلات التي دارت حول التواجد العثماني في الاحساء وقطر ، بين ادارتين بريطانيتين ، لكل منهما شخصيتها المستقلة في اطار الحكومة البريطانية ، ولهذا نجد تباينا في وجهات النظر في بعض القضايا ، واتفاقا في بعضها الآخر ، ولكن معظم القرارات كانت تتخذ بعد اجراء دراسات ومراسلات بين الادارتين وهما وزارة الخارجية البريطانية وحكومة الهند البريطانية .

تعتبر الخارجية الواجهة الرسمية للحكومة البريطانية ، ومراسلاتها تتم عبر القنوات السياسية والدبلوماسية عن طريق سفرائها في الدول المعنية ، كالدولة الفارسية والدولة العثمانية اضافة الى قناصلها هناك .

ولذا فانها لم تكن على علم كامل بمجريات الامور في الخليج العربي حيث التواجد العثماني في كل من الاحساء وقطر ، ولهذا كان لا بدّ للخارجية البريطانية من أن تتجه الى حكومة الهند لمعرفة الأوضاع والأمور هناك بدقة أكثر ، لأن حكومة الهند مسئولة من الناحية الادارية والسياسية عن الخليج العربي ، اما كيف يتم ذلك ؟.

فيمكن القول بأن الادارة البريطانية في الخليج العربي اعتمدت على ممثليها في المنطقة وفي مقدمتهم المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي ومقره في مدينة «بوشهر» ، ويتبعه مجموعة من الموظفين البريطانيين مثل الوكلاء المقيمين والمعتمدين والضباط السياسيين ، وبعض قطع الاسطول البريطاني المستقرة بصفة دائمة في الخليج العربي ، وهؤلاء الموظفون كانوا منتشرين في كل من البحرين والامارات وعمان وبندر عباس

والبصرة .

ومن الطبيعي ان هؤلاء الموظفين يكونون أقرب الى المواقع في معالجة الامور المتعلقة بشئون الخليج العربي بحكم موقعهم وعملهم ، وهم كما ذكرنا يتبعون حكومة الهند البريطانية .

ومن هذا المنطلق كانت وزارة الخارجية تعتمد على حكومة الهند وجهازها الاداري في الخليج العربي في الحصول على كافة المعلومات المتعلقة بالمنطقة أثناء اتصالهم مع الحكومة العثمانية أو الفارسية ، أو غيرهما من الدول الأخرى حول موضوع الخليج العربي .

ولهذا يمكن أن نقول ان القرارات ووجهات النظر بالنسبة للخارجية البريطانية لم تكن تطابق الواقع اذا لم تأخذ رأي حكومة الهند ، نظرا لبعدها عن المنطقة وعدم معرفتها الكاملة بأوضاعها على عكس القرارات التي تتخذها حكومة الهند ، ليس لوجودها فقط في الخليج العربي وانما لخبرتها السابقة والطويلة منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر ، واحتكاكها بأبناء الخليج العربي .

وهذا ما نجده من خلال المراسلات البريطانية عن التواجد العثماني في الخليج العربي ، تلك العلاقة بين الخارجية البريطانية والمتمثلة في مراسلات السفير البريطاني في طهران واسطنبول وقناصلها في بغداد ، وبين حكومة الهند وموظفيها كالمقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي والوكيل المقيم في البحرين .

تصوير بعض المعالم الهامة للسياسة البريطانية من خلال رسائلها:

تعبر الرسائل البريطانية عن قلقها وتخوفها من التواجد العثماني في الاحساء وقطر ، وهي من أهم المعالم السياسية البريطانية التي نلاحظها في رسائل موظفيها ورجال السلك الدبلوماسي .

بدأ القلق البريطاني مع بداية السياسة العثمانية التي اتجهت نحو العودة الى الخليج العربي منذ عام ١٨٧٠ ، وذلك بعد التغيرات التي طرأت في سياستها تجاه المنطقة لعدة أسباب ، منها وصول بعض القيادات القوية الى مناصب رفيعة أمثال مدحت باشا والذي كان يتطلع لمنافسة بريطانيا في الخليج العربي ، وذلك بعد غياب طويل للنفوذ العثماني في المنطقة اضافة الى تشديد قبضتها على الجزيرة العربية وخاصة الاحساء ونجد والحجاز .

ونجح العثمانيون بالفعل في اعادة

حكمهم المباشر للجزيرة العربية وخاصة في اقليمي نجد والاحساء بعد حملة مدحت باشا سنة ١٨٧١ ، وبوصول الحملة العثمانية الى الأجزاء الغربية من الخليج العربي ، أصبحت حدودهم متلاصقة مع الحدود البريطانية وخاصة في البحرين والامارات العربية وعمان ، مما أثار شكوكا وقلقا بريطانيا من التواجد العثماني ، خوفا من تغلغل السياسة العثمانية الى مناطق نفوذها مما يعني ضياع تلك المناطق التي عملت بريطانيا منذ دخولها الى الخليج العربي في الحفاظ عليها من أية قوة منافسة .

والسبب الآخر في القلق البريطاني ، أنها تملك قوة بحرية تسيطر على مياه الخليج العربي ، ولكنها لا تملك القوة البرية التي يملكها العثمانيون وان مناطق النفوذ البريطاني خاصة في الامارات العربية وعمان تقع في المجال البرى القريب من التواجد العثماني في الاحساء وقطر ونجد ، والقوات العثمانية كانت قادرة على اختراق الصحراء للوصول الى المناطق البريطانية ، وهذا ما دفع ببريطانيا بأن تتبع سياسة حذرة تجاه التواجد العثماني ، وبأن لا تحاول اثارتهم بقدر الامكان ، مع التلويح بعدم الاعتراف بالسيادة العثمانية الى المناطق الجنوبية من مدينة القطيف ، وعدم السماح لها بأن تقترب إلى منطقة خور العديد ، والذي أصبح النقطة الفاصلة بينهما في عام ١٨٨٨ ، وان أي تجاوز للعثمانيين عن هذه النقطة سوف يؤدي الى قيام الحرب بين الدولتين .

ولهذا كانت هناك آراء مختلفة لدى كبار المسئولين البريطانيين عن التواجد العثماني في الاحساء وقطر وكيفية التعامل معه ، ففي الوقت الذي يرى البعض السماح والاعتراف بالسيادة العثمانية ، فهناك آراء أخرى تعارض تجاوز انتشار القوات العثمانية الى نقطة أبعد من مدينة «القطيف» ، وخارج حدود مدينة البدع العاصمة القطرية ، وهذا ما تكشفه الرسائل البريطانية .

والنقطة الثانية التي كانت مثار الجدل بينهم هي محاربة أعمال الاعتداءات من قبل السكان العرب الواقعين تحت السيادة العثمانية ضد السفن البريطانية وبعض رعاياها ، وأصبحت تطلق عليهم «كلمة القراصنة " وكانت تهدف من ورائها إلى تحجيم التواجد العثماني على سواحل الاحساء وقطر تحت ستار انساني زائف ، هو «محاربة القرصنة» ، ولكن الدولة العثمانية اتخذت سياسة عدم المبالاة أحيانا ضد المطالب البريطانية

وادعاءاتها عن «القرصنة وتجارة الرقيق» ، وأحيانا أخرى مقاومة تلك الادعاءات وعدم السماح للقوات البحرية البريطانية من الاقتراب الى مياهها الاقليمية تحت ستار «ملاحقة القراصنة " في المياه العثمانية على سواحل الاحساء وقطر .

وحول هاتين النقطتين تركزت معظم المراسلات السياسية للمسئولين البريطانيين المعينين في المنطقة عن التواجد العثماني في الاحساء وقطر عام ١٨٨٨ .

أولا : رسالة الوكيل المقيم البريطاني في البحرين :

من ـ الوكيل المقيم في البحرين .

الى ـ المقيم السياسي في الخليج العربي .

جاء في تقرير الوكيل المقيم البريطاني في البحرين ، المقدم الى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي تحت رقم ـ (٧٨) ـ والمؤرخ في ١٨٨٨/٨/٦ .

أنه قد وصل محمد بن عبدالواحد من «الظهران» ، يحمل معه معلومات مفيدة عن العثمانيين ونشاطهم في الاحساء ، حيث ذكر بأن العثمانيين في مدينة «القطيف» لم يتخذوا أية اجراءات فعالة لمنع (القرصنة) الاعتداءات من قبل السكان العرب ضد الرعايا البريطانيين في مياه الخليج العربي .[١]

كما أخبر محمد عبدالواحد الوكيل البريطاني المقيم في البحرين استنادا إلى ما سمعه من أحد الأرقاء والذي تمكن من الهرب بعدما تم اختطافه من السفينة «البقارة»[٢] والتابعة لاحد الرعايا البريطانيين في البحرين ، بالقرب من منطقة ـ «زلون «Zaillon ، وسبق للوكيل البريطاني أن رفع تقريرا الى المقيم السياسي البريطاني حول هذا الموضوع ، وما قاله عبدالواحد استنادا الى ذلك بتاريخ ١٨٨٨/٥/١٠ ، والذي يحمل رقم ٤١ ، والذي جاء فيه بأن هذا العبد كان قد ذكر لمحمد عبدالواحد بأنه عرض للبيع من قبل الخاطفين أمام عامة الناس في سوق «القطيف» ، وتقدم الجنود العثمانيون بعرض لشرائه بقيمة خمسين دولارا تقريبا ، وأصبحت مدينة «القطيف» والمناطق المجاورة لها غير أمنة وخاصة من قبل بعض مجموعات من البدو ، وهناك اثنان أو ثلاثة أفراد من سكان المدينة اختفوا منذ فترة ، كما قتل واحد أو اثنان من أفراد البدو بعدما تم أخذهما من المدينة الى منطقة نائية وغير مسكونة من العرب في الاحساء ، وتكررت عدة حالات من الاعتداءات اضافة الى وقوع بعض الجرحى ، في حين أن المتصرف العثماني لم يقم بأي

عمل تجاه تلك الحوادث .(٣)

ومما جاء في التقرير البريطاني أن معظم المسئولين العثمانيين وخاصة المستشارين لهم مصالح خاصة في المنطقة ، والسفن العثمانية التي ترسو على رصيف ميناء «رأس تنورة» لا تظهر عليها أية علامات تدل على وجود بضائع فيها ، وحصلت السلطات البريطانية في البحرين على تلك المعلومات ليس فقط من العبد أو محمد عبدالواحد وانما من مصادر أخرى متفرقة .(٤)

ويتضح موقف المقيم البريطاني المقيم في البحرين من التواجد العثماني في الاحساء ، من خلال تلك الرسائل والتقارير التي كان يرفعها الى المقيم السياسي البريطاني في «بوشهر» من خلال مراقبته للنشاط العثماني في مدن الاحساء القريبة من البحرين ، وكان الوكيل البريطاني يبعث العملاء لالتقاط اخبار العثمانيين ونشاطهم ومدى نفوذهم وحجم التواجد العسكري .

ونلاحظ أن محمد بن عبدالواحد يعمل لصالح بريطانيا كمخبر عن النشاط العثماني في الاحساء ، ثم يعود الى البحرين حيث مقر الوكالة البريطانية ، ويخبرهم بما استجد من المعلومات عن العثمانيين ، وجدير بالذكر أن بريطانيا كانت تجند أفرادا من الأصل الايراني الذين يقيمون في الساحل الغربي من الخليج العربي وخاصة البحرين والكويت والامارات ، ووجدتهم أكثر من غيرهم تطوعا للعمل والتعاون مع بريطانيا ثم يأتي بعدهم الرعايا الهنود في الدرجة الثانية ، وان معظم المسئولين والوكلاء البريطانيين ان لم يكونوا من بريطانيا فكان يتم اختيارهم من الأصل الايراني أو الهندي ، ومن الذين تعاونوا مع الاستعمار البريطاني أمثال محمد عبدالواحد ، لأن العرب كانوا يرفضون العمل أو التعاون مع هذا المستعمر في مثل هذه الاعمال .

اما ما جاء عن اعتداء العرب ضد السفن البريطانية أو الرعايا البريطانيين وهو ما كانت تسميه «بالقرصنة» ، فإن بريطانيا طلبت من الدولة العثمانية اتخاذ اجراءات لقمع الاعتداءات على رعاياها ومصالحها في الخليج العربي .

وعن كون السفن العثمانية التي ترسو في ميناء رأس تنورة لا تحمل بضائع فان الوكيل يقصد من وراء ذلك بأنها كانت تحمل الرقيق ، وتورط العثمانيين أو موظفيهم حسب زعمهم .

ثانيا : رسالة المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي :

من - كولونيل «روس E.C. Ross» - المقيم السياسى في الخليج

العربي والقنصل العام لصاحب الجلالة في فارس . الى ـ المقيم السياسي في بغداد .

بوشهر في ١٦/٨/١٨٨٨ .

بالاشارة الى رسالتي التي تحمل رقم ١٩٢ بتاريخ ١٨/٥/١٨٨٨ ، أتشرف بأن أقدم اليكم نسخة مترجمة لرسالة الوكيل المقيم في البحرين عن شئون «القطيف» والأوضاع الحالية هناك .(٥)

ثالثا : رسالة القنصل العام البريطاني في بغداد :

رسالة رقم ٥٧٣ ـ بغداد ـ مؤرخ في ٢٧/٨/١٨٨٨ .
من ـ ميجور أ . س . تالبوت ـ القنصل العام لصاحب الجلالة في بغداد .
الى ـ السير . و . أ . وايت .W: A) (White سفير صاحب الجلالة في اسطنبول .

اشارة الى رسالتي الدورية رقم ٤٠٠ والمؤرخة في ٨/٦/١٨٨٨ ، لي الشرف أن أقدم لسعادتكم معلومات مستجدة ، وأرفق لكم نسخة من الرسالة العاجلة للكولونيل روس ـ المقيم السياسي في الخليج العربي حول الموضوع المتعلق بالتواجد العثماني وأوضاعهم في الاحساء وتصرفاتهم العامة وحكمهم في شئون صحراء القطيف .(٦)

وانني سوف أنتظر تعليمات من سعادتكم قبل القيام بأية تصرفات تجاه القضايا المستجدة في ولاية البصرة ، والتي عن طريقها تصدر الأوامر والتعليمات الى العثمانيين في سنجق الاحساء حول تلك المواضيع .(٧)

ونلاحظ من خلال الرسالتين للمقيم البريطاني والقنصل في بغداد ، التدرج في المراسلات للمسئولين السياسيين البريطانيين في الخليج العربي ، ولهذا نجد الوكيل المقيم في البحرين يرفع تقريره الذي ذكرناه سابقا الى الكولونيل روس المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي وقنصلها العام في فارس ويتخذ من مدينة «بوشهر» الفارسية على الخليج العربي مقرا لاقامته ، والذي قام بدوره برفع نسخة من تقرير الوكيل في البحرين والتي ذكر فيها الأوضاع العثمانية في شئون «القطيف» الى المعتمد السياسي البريطاني في بغداد .

وجاءت رسالة المقيم السياسي البريطاني الى المعتمد السياسي في بغداد لعدة اعتبارات ، منها أنه يقيم في الاقليم العثماني الذي يتوسط بين الخليج العربي والعاصمة اسطنبول ، كما أن سنجق الاحساء يتبع الوالي العثماني في «بغداد» ، ومن مهمة المقيم السياسي في الخليج والقنصل

العام في بغداد ، مراقبة تحركات القوات العثمانية والمتجهة الى الاحساء ، وكل ما يتعلق بالنشاط العثماني في بغداد والبصرة وعلاقته بالتواجد العثماني في الاحساء وقطر ، ورفع تلك المعلومات والتقارير والتوصيات الى السفير البريطاني في اسطنبول ، حتى يكون السفير على دراية وعلم بجميع مجريات الأمور في أنحاء الدولة العثمانية وخاصة التواجد في غرب الخليج العربي لأنها لا تتبع الخارجية البريطانية من الناحية الادارية وانما تتبع حكومة الهند البريطانية . ويصعب على الخارجية البريطانية وعلى سفيرها في اسطنبول فهم الأمور المتعلقة بالخليج العربي أثناء مخاطبة الباب العالي .

ولهذا كانت الادارة السياسية والقائمون على أمرها وخاصة القنصل العام في بغداد يعتمدون على المعلومات والتقارير الواردة من المسئولين البريطانيين في الخليج العربي ، كالمقيم السياسي والوكلاء الذين يتبعون حكومة الهند ، وتشكل تقارير هؤلاء العمود الرئيسي في السياسة البريطانية تجاه الدولة العثمانية فيما يتعلق بالخليج العربي .

كما نجد أ . سي . تالبوت ـ Talbot ـ القنصل العام البريطاني في بغداد يبعث برسائل وتقارير بصورة منتظمة ودورية الى السير و . أ . وايت . السفير البريطاني في اسطنبول ، عن مجريات الأمور والتواجد العثماني في الاحساء وذلك من خلال الرسائل التي تصل اليه من المقيم السياسي في الخليج العربي ، ثم ينتظر من السفير أية تعليمات أو أوامر أو تحريات عن النشاط العثماني في المنطقة .

رابعا : رسالة السفير البريطاني في طهران :

رسالة رقم ١٦٨ المؤرخة في ٣ سبتمبر ١٨٨٨

من ـ السير ولف H. D. Walf ـ الوزير المفوض لصاحب الجلالة في طهران .

الى ـ ماركوري سالسبورى ـ وزير الدولة للشئون الخارجية ـ لندن .

أتشرف بأن أقدم لكم مقتطفات من جريدة «أطلاع» الفارسية عن الأحداث الجارية في قائمقامية قطر العثماني كما هو واضح ، وتصرفات الحكومة العثمانية تجاه ذلك الاقليم .(٨)

كما أنني قدمت طلبا الى المقيم السياسي البريطاني في بوشهر حول هذا الموضوع ، وأنني سوف أقدم لسعادتكم نسخة من رسالتي والبرقية التي أجاب عليها عن المواضيع الاخيرة في قطر ، كما أنني قمت باضافة بعض الملاحظات التي قدمها «مستر تشرشل» على الترجمة المقتبسة

من جريدة «اطلاع» الفارسية ، والتي ينبه فيها سعادتكم من القيام بأية تجاوزات أو مغامرة مع السلطات العثمانية .[٩]

«هذه ترجمة مقتبسة من جريدة الاطلاع الفارسية الصادرة في شهر اغسطس عام ١٨٨٨ ، عن الأوضاع والمشاكل التي حدثت بين قطر العثماني وامارة ابوظبي» .

(أ) المشاكل بين قطر وأبوظبي :

أرسل الشيخ زايد بن خليفة حاكم أبوظبي ابنه خليفة بن زايد على رأس حملة مكونة من خمسة آلاف من الفرسان والمشاة في مهمة لمهاجمة الشيخ جاسم بن ثاني حاكم قطر ، ودخلت هذه القوات الى قلعة الحاكم في قطر في منتصف الليل في اليوم السابع من شهر رمضان ، وبدأت على الفور بمهاجمة مبنى الحكومة دون التعرض لأي شخص آخر من الشعب ، وأرسلت الحكومة العثمانية معدات عسكرية مع ستمائة جندي ، منهم اربعمائة كانوا قد نزلوا في ميناء «القطيف» بالاحساء ، ومئتان نزلوا في «البدع» عاصمة قطر ، وهم الآن في أماكنهم ، واوكلت اليهم مهمة تنظيم ادارة الجمارك والموانيء التابعة للحكومة العثمانية في كل من الاحساء وقطر [١٠]

وجاء في تعليق المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي عن ارسال تلك المعدات العسكرية والجنود العثمانيين الى قطر بقوله:

نحن لا نعلم اذا كانت الحكومة العثمانية تسمح للشيخ جاسم بعدما ارسلت المعدات والجنود بتدخل ضد حكومة ابوظبي التابعة للشيخ زايد بن خليفة .[١١]

ونجد بأن السفارة البريطانية في طهران كانت أيضا مهتمة بمتابعة الأحداث الجارية وجمع المعلومات من الخليج العربي بصفة عامة والاحساء وقطر بصفة خاصة من جميع النواحي ، ولهذا كانت السفارة تتابع الأحداث عبر الصحف ، وترجمة ما جاء في صحيفة «الاطلاع» الفارسية الى اللغة الانجليزية وتقديمها الى المسئولين البريطانيين سواء في وزارة الخارجية أو المقيم السياسي في الخليج العربي ، ليكونوا على اطلاع دائم وشامل على مجريات الأحداث والأمور في المنطقة ، اضافة الى توصياتهم وتعليقاتهم ، كما جاء في تعليق المقيم السياسي البريطاني عن تخوفه من اشتراك القوات العثمانية مع الشيخ جاسم حاكم قطر ضد الشيخ زايد بن خليفة حاكم أبوظبي . وكذلك توصية مستر «تشرشل» بعدم التهور والمغامرة في السياسة

البريطانية تجاه التواجد العثماني في الاحساء وقطر .

مشكلة الرعايا الفرس في قطر :

أجرى «أمين السلطان» اتصالات مع «أ . نيكلسون A. Nicolson في شهر اكتوبر عام ١٨٨٧ ، بناء على توجيهات من شاه فارس ، وقدم خلال تلك الاتصالات عريضة مقدمة من قبل الرعايا الفرس المقيمين في قطر يشتكون فيها من أعمال النهب والسلب التى تعرضوا لها ، والضغوط والمضايقات الشديدة لإجبارهم على مغادرة قطر ، ولهذا فإنهم يطلبون العون والمساعدة من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي ، لوقف هذه المضايقات والحصول على التعويضات المناسبة عن الخسائر التي لحقت بهم من جراء أعمال السلب .[١٢]

وجرت عدة مفاوضات ومشاورات حول هذه القضية بصورة مستعجلة بين الجانب الفارسي عن طريق ممثل الشاه أمين السلطان والكولونيل روس المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي ، وفي نهاية المفاوضات أعلن الكولونيل روس بشكل صريح أنه لا يملك أية قوة لمساعدة الرعايا الفرس المقيمين في قطر ضد أعمال السلب والنهب والضغوط التي يتعرضون لها فقد سليت ونهبت أملاك الرعايا البريطانيين في الفترة الماضية ، ولم تتمكن الحكومة البريطانية من اتخاذ إجراء ضد ذلك ، فكيف لها أن تساعد رعايا فارس في قطر ، وكل ما أمكن للحكومة البريطانية من اتخاذ إجراء هو فقط الحصول على بعض التعويضات عندما نجحت في مصادرة بعض الممتلكات الخاصة.[١٣]

وعندما فشل المسئولون الفرس في الحصول على المساعدة أو الدعم البريطاني عن الخسائر التي لحقت برعاياهم في قطر ، اتجهوا الى الوكيل العثماني في مدينة «بوشهر» نفسها ، وطلبوا منه التدخل والتوسط لدى شيخ قطر للحصول على تعويضات مناسبة ، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك ، ولم يبق لهم أى أمل من قبل الوكيل العثماني .

وأمام فشل جميع المحاولات التي بذلها المسئولون الفرس ، فانهم فكروا في مشروع وخاصة كل من حاجي احمد خان وكيل أمين السلطان في الخليج العربي و«ملك التجار» الذي عرف بنشاطه القوى والفعال في المنطقة ، وهذا المشروع عبارة عن اقتراح بالذهاب الى قطر واجراء مفاوضات مباشرة مع شيخها جاسم بن ثاني ، وان يعرضوا عليه فكرة الحماية الفارسية اذا ما طلبها من حكومة الشاه ، وفيما اذا رفض تلك

الفكرة والمقترحات المقدمة للحماية في أية حال وهذا ما كان واردا ، فانهم سوف يرغمونه على قبول تلك المقترحات بالقوة (١٤)

ولم تنجح كل هذه المشاريع التي فكر فيها المسئولون الفرس ، نظرا لعدم موافقة المقيم السياسي البريطاني الكولونيل «روس» بالقيام بأية حملة فارسية ضد الشيخ جاسم . (١٥) لأن قيام تلك الحملة سوف تكون له عواقب وخيمة ليس للأمن البريطاني في الخليج العربي وانما خوفا من تزايد التواجد العثماني وتدفق قواته إلى كل من قطر والاحساء ، مما يشكل خطرا على تواجدها في البحرين والامارات وعمان من تقدم القوات العثمانية الى تلك المناطق الخاضعة لنفوذها ، ولهذا حذر الكولونيل روس ، السلطات الفارسية من القيام بأية أعمال ضد شيخ قطر ، وهذا ما أدى فيما بعد الى تجميد القضية بين فارس وقطر .

خامسا : رسالة السفير البريطاني في اسطنبول :

رقم ٣٨١ مؤرخ في ١٨٨٨/١٠/١ .

من - سير و . أ . رايت W. A. White سفير صاحب الجلالة في اسطنبول .

الى - ماركوري - سالسبورى - وزير الخارجية .

اشارة الى برقية سعادتكم رقم ١٠٧ - بتاريخ ١٩ سبتمبر ، فانني أعتقد بأنه من المرغوب فيه أن تتابعوا الأحداث حسب ما جاء في تقاريري لكي تكونوا على علم بمجريات الأمور ، وخاصة في المذكرة العاجلة التي أرسلتها لكم برقم ٣٤٧ في السادس من سبتمبر بعنوان عن التواجد العثماني في الاحساء وخاصة الميناء الذي يقع خارج نطاق السيادة المسموح لهم ، اما بالنسبة للاشاعة المنتشرة حاليا حول اجتياح العثمانيين لعمان ، فلي الشرف أن أرفق لسعادتكم التوضيحات والملابسات حول هذا الموضوع مع المعلومات المستجدة أخيرا (١٦)

وأريد أن أشير أيضا بأنني تجنبت الدخول أو حتى مجرد الاشارة بأي حديث مع الباب العالي حول هذا الموضوع عن اتساع الادعاءات العثمانية في الخليج العربي وذلك انطلاقا من الاسباب الآتية :

(أ) في رسالة سعادتكم العاجلة رقم ٢٦٩ بتاريخ ٢٠ أغسطس ، أشرتم الى اعتراف حكومة صاحب الجلالة بالسيادة العثمانية على الساحل الغربي من الخليج العربي ، كما جاء فيه ذكر عن

التواجد العثماني الى الجنوب من الاحساء حتى مدينة القطيف .

(ب) اضافة الى تلك النقطة عن السيادة العثمانية على الساحل الغربي من الخليج العربي ، وضعت حكومة صاحب الجلالة في الاعتبار استقلال الزعماء العرب ، والذين كانوا وقعوا تعهدا مع الحكومة البريطانية ، وهم الذين تعرضوا لأية محاولة اعتداء من قبل الدولة العثمانية لأية أجزاء تمتد اليها سلطتهم .

(جـ) التقريران اللذان رفعهما «مستر روبرتسون M.R. Robertson» مساعد الوكيل السياسي في البصرة ، الاول - يحمل رقم ٢١٣ - في ١٣ مارس ، والثاني - يحمل رقم ١٣٥ بتاريخ ٢٢ مارس من العام الحالي ١٨٨٨ ، جاء فيهما عن قيام «نافذ باشا» الحاكم العام للبصرة بزيارة الى «القطيف» في الاحساء وقطر مع بداية العام الحالي ، وبرغم اعتراضه ضد «القرصنة» ، فانه لم يتخذ أية اجراءات فعّالة لمنعها ، وانما أخذ تعهدا من الشيخ جاسم بن ثاني حاكم قطر ، ومن محمد بن عبدالله في الدمام أيضا لتعزيز الساحل والمياه الإقليمية الواقعة تحت نفوذهم وسيادتهم في كل من قطر والاحساء .

(د) غادر نافذ باشا بعد لقائه مع الشيخ جاسم بن ثاني عائدا على المركب البخاري ، وقبل مغادرته المنطقة أصدر أوامره الى مجموعة من الجنود العثمانيين للقيام بأعمال الدورية والحراسة المشددة للسواحل والمياه الاقليمية ، وأخيرا طلب من الجهات المختصة ضرورة الاسراع باقامة مستودع للفحم في كل من ميناء «رأس تنوره» في الاحساء وميناء «البدع» في قطر ، اضافة الى اتخاذه لتدابير أخرى لأمن المياه في الخليج العربي.

كما قام الحاكم العام للبصرة بانشاء البريد العسكري في مدينة البدع ، وطلب اكمال التحصينات العسكرية الأمامية ، وتم تزويده بأعداد تقدر بحوالي مائة رجل عسكري وارسلوا بطريقة عاجلة من ميناء البصرة لتعزيز الحاميات العثمانية في الأماكن التي أشرنا اليها سابقا في كل من الاحساء وقطر .

وهذه الأماكن «كرأس تنورة» شمالا والبدع الى الجنوب من مدينة «القطيف» ، ولهذا فانهما خارج نطاق المناطق المحددة لسيادة السلطان العثماني ، كما جاء في رسالة

سعادتكم والتي ورد ذكرها سابقا .

(هـ) ليس هناك اعتراض جوهري ضد تواجد الحاميات العسكرية العثمانية أينما كان موقعها ، اذا ما كانت تخدم أهداف الحكومة البريطانية ، وهو المانع الفعال للاعتداءات من قبل تلك المناطق ضد السفن التابعة لرعايا بريطانيا ، ولهذا فان الاعتراض الظاهري يحمل خارج ما تريده حكومة صاحب الجلالة حول منع تلك الاعتداءات في الساحل الغربي للخليج العربي .

وانني أشير اليكم عن قلقي الشديد بشأن ما وضح من قبل حكومة صاحب الجلالة وعن طريق المقيم السياسي في الخليج العربي ، عن التوسع العثماني في تلك المناطق .

(و) سيكون من الصعوبة تقديم أية احتجاجات في المستقبل ، ضد الموانىء العثمانية في رأس التنورة في الاحساء و«البدع» في قطر ، اما حول التوسع العثماني والذي يقع الى الجنوب من «القطيف» ، والذي حدث بسرعة مذهلة لتلك التجاوزات الى أبعد من المنطقة المسموح بها ، والتي يجب على العثمانيين أن لا يمدوا نفوذهم هناك ، الى تلك المساحات الكبيرة ، ومن الطبيعي فان العثمانيين يتطلعون الى احتلال مزيد من المناطق الجديدة ، أكثر مما في حوزتهم الآن ، وخاصة الى أبعد من جنوب القطيف كما يبدو حاليا ، وقد يكون مرجع ذلك الى عدم صدور أية اعتراضات على تصرفات العثمانيين التوسعية من قبل حكومة صاحب الجلالة مما شجعهم على ذلك .

(ى) وانني سوف أكون مسرورا بأن أبلغكم يا صاحب السعادة ما جاء في تقريري ، والحصول على اجابتكم على المواضيع أعلاه ، اما بالنسبة لسلطة السيادة المحدودة لسلطان مسقط وفيما اذا كان بحوزته أو يدعي أى نوع من السيادة على العرب في الساحل الممتد من مدينة «دبا» الى «البدع» فانني سوف أترقب ذلك مستقبلا .(١٧)

ويتضح من تتبع المراسلات ، أن هناك ترابطا وتبادلا في المعلومات بين كافة الأجهزة السياسية البريطانية في المنطقة قبل اتخاذ أي خطوات ، ومن رسالة السفير البريطاني في اسطنبول ما يكشف لنا القلق البريطاني من التواجد العثماني واحتمال توسعه الى مناطق أخرى الى الجنوب من القطيف حيث النفوذ البريطاني في الامارات

وعمان .

اما ما جاء في الفقرة (ب) بأن زعماء العرب وقعوا تعهدا مع بريطانيا ، في الحقيقة كانت الحكومة البريطانية فرضت عليهم تعهدا بموجب معاهدات المانعة ، اما عن قول السفير البريطاني باعتراض العرب الذين تعهدوا لبريطانيا على السيادة العثمانية ، فانه لم تكن هناك أية اعتراضات من حكام امارات الخليج العربي ، وخاصة الشيخ زايد بن خليفة حاكم أبوظبي الذي كان يرغب في الدخول تحت السيادة العثمانية والخلافة الاسلامية ، كما أنه أراد التخلص من الاستعمار البريطاني الذي وضعهم في أقصى ظروف التخلف ، كما منعهم من الاتصال بأية قوة خارجية ، وهناك سبب آخر يدعو حكام المنطقة في قبول السيادة العثمانية ، وهو أن الباب العالي لم يكن يتدخل في شئونهم الداخلية ، والعكس صحيح كان السلطان العثماني يقف بجانب حكام العرب كما حدث للشيخ جاسم بن ثاني وابن رشيد وغيرهما .

اما بالنسبة لأعمال القرصنة التي تدعيها بريطانيا فهي في حقيقة الأمر عبارة عن اعتداءات من قبل السكان العرب ضد المصالح البريطانية وسفنها ورعاياها في المياه الاقليمية العثمانية والتطلع العثماني تجاه عمان :

وأرسل السفير البريطاني في اسطنبول رسالة أخرى تحمل رقم ١٢١ - في نفس التاريخ ١/١٠/١٨٨٨ وجاء فيها:

وصل لدى مسامع حكومة صاحب الجلالة عن طريق حاكم الهند ، أخبار مفادها بأنه من المحتمل تحريك بعض القطعات من الحاميات العسكرية العثمانية نحو عمان انطلاقا من قائمقامية نجد العثماني والخاضع لحكم محمد بن رشيد زعيم جبل شمر ، اضافة الى تقارير اخرى وصلت بهذا الخصوص .

ولكن سفير صاحب الجلالة في اسطنبول لا يمكنه التكهن بصحته ، وذلك ما جاء في هذا التقرير لا يؤمن به شخصيا ، لأنه لو وضحت ذلك في تقريري ، سوف يكون هذا الاجتياح لعمان عن طريق القوات العثمانية المتواجدة حاليا في الاحساء وقطر .(١٨)

وعلى أية حال وتحت أية ظروف فان سفير صاحب الجلالة في اسطنبول يشعر بأن هذه الاشاعات تعيد الى الأذهان ، ملاحظات عن أهمية الميناء العثماني في «رأس التنورة» وخطورته على المنطقة في حالة السكوت عنه ، اما عن الاجتياح العثماني لعمان ، فيجب

أن نعيد الى الاذهان الحقيقة المعروفة عن الاتفاق الذي تم بين حكومة صاحب الجلالة والحكومة الفرنسية ، ويقضي باحترام سيادة واستقلال عمان ، ولهذا ولغيره من الأسباب الأخرى ، فان حكومة صاحب الجلالة مهما كانت الأطماع العثمانية ، فلا يمكنها السكوت عن أية محاولة للاعتداء أو التدخل من قبل السلطات العثمانية أو حامتها في الاحساء أو قطر الى عمان (١٩)

سادسا : رسالة وكيل وزارة الخارجية البريطانية :

رسالة مؤرخة من وزارة الخارجية ـ لندن في ١١/١٠/١٨٨٨

من ـ «سير جوليان ـ Sir Julian paunir Fors» وكيل الخارجية الى ـ وكيل وزارة حكومة الهند .

بالاشارة الى مذكرتي الرابعة والعشرين والمراسلات الأخيرة حول التوقعات المحتملة من التدخل العثماني في عمان .

فانني حولت اليكم مباشرة الرسائل المتعلقة بالموضوع المشار اليه أعلاه عن طريق ماركوري سالسبورى وزير الخارجية ، وفيما اذا كان هناك أية ملاحظات حول هذا الموضوع لدى وزير حكومة الهند ويريد تقديمها ، فأرجو منكم ابلاغي عن ذلك ، كما أرفق اليكم نسخة من الرسالة التي بعثها سعادة السفير البريطاني في اسطنبول اضافة الى النسخة المقدمة عن الملاحظات والتي جاءت تحت عنوان (موضوع الموانىء العثمانية) (٢٠)

وأرسل السفير البريطاني في اسطنبول تقريره ، استنادا الى تقرير مجلس صاحب الجلالة عن البصرة ، وبأن السلطات العثمانية قامت ببناء مستودع للفحم وبريد عسكري في كل من «رأس تنورة» «وميناء البدع» ، الى الجنوب من القطيف ، علما بأن حكومة صاحب الجلالة لا تعترف بالسيادة العثمانية عليهما ، ولكن الحاميات العسكرية التي اتخذت مكانها ، فليس هناك أية اعتراض ظاهري وانما تحمل معه حكومة صاحب الجلالة تمنياتها لقمع «القرصنة» (الاعتداء على السفن التابعة للرعايا البريطانيين) بشكل فعّال في السواحل الغربية من الخليج العربي ، وأخيرا يعتقد وايت بأنه لم تكن هناك أية اعتراضات ضد الاحتلال العثماني لهذه المناطق ، ولهذا نجد من الصعوبة في رأيه توجيه أية اعتراضات أو احتجاجات حاليا ، والتي قد تنشأ عن اقامة ميناء «رأس التنورة» و«البدع» المشار اليهما والجنوب من القطيف والذي ظهر بسرعة في الآونة الأخيرة ، ولهذا فانه

يجب أن لا يمتد الى هناك نفوذ العثمانيين . (٢١)

كما أن «وايت» السفير البريطاني في اسطنبول يسأل أيضا عن اعطائه معلومات عن مدى سيادة سلطان مسقط وماهو امتداد حدوده ، ويمكنك أن تجري تحريات في الأوراق الرسمية في مكتبكم حول هذا الموضوع .

وانني أضيف في الختام بأن «اللورد سالسبورى» سوف يكون سعيدا اذا ما استلم ردكم حول هذه التساؤلات ، وأية معلومات اضافية يمكن أن تحصل عليها حكومة الهند .

ونستنتج من هذا الموضوع أنه برغم أن أمور السياسة الخارجية كانت من اختصاص وزارة الخارجية الا أنها كانت تستشير وتطلب معلومات كافية من وزارة الهند في كل ما يتعلق بأمور الخليج العربي والتواجد العثماني قبل اتخاذ أية قرارات حول المواضيع السياسية الهامة والمتعلقة بالخليج العربي .

ولهذا نجد الرسائل الواردة من السفارة البريطانية في اسطنبول الى وزارة الخارجية عن التواجد العثماني في الاحساء وقطر تدور حول الاجتياح العثماني لعمان ، والتحصينات العسكرية للحاميات العثمانية ، ومحاولة السياسة البريطانية ايجاد مخرج لوقف النفوذ العثماني في المنطقة ، مما جعل الخارجية البريطانية تستفسر عن مدى نفوذ سلطان عمان حتى يمكن لبريطانيا مساعدة حاكم عمان سياسيا للوقوف أمام التوسع العثماني ، كل هذه الاسئلة والاستفسارات وجهها وكيل خارجية بريطانيا الى وكيل وزارة الهند ، كما طلب معلومات كافية لتلك الاستفسارات والمواضيع المتعلقة عن التواجد العثماني في الاحساء وقطر .

وحول النقطة الأخيرة وانشاء ميناء وبريد عسكري في «رأس التنورة» و«البدع» . يتضح كذلك بأن الحكومة البريطانية ليس لديها مانع من اقامة الحاميات العسكرية خارج نطاق السيادة العثمانية المعترف بها من قبلها الى الجنوب من «القطيف» ولكن بشرط ان تستخدم تلك الحاميات العسكرية لوقف الاعتداءات من السكان العرب ضد مصالح الرعايا البريطانيين ، ولذا فانها سوف تغض النظر عن تواجد القوات العثمانية في ميناء «رأس التنورة» و«البدع» ، والا فانها سوف تثير وتحتج على امتداد السيادة العثمانية على تلك المناطق .

سابعا : رسالة وكيل وزارة الهند :

مكتب الهند - لندن - في ١٨٨٨/١١/٢ .

من ـ ج . أ . غودلي ـ J.A. Godley ـ وكيل وزارة الهند .
الى وكيل وزارة الخارجية

أجاب وكيل وزارة الهند على الاستفسارات والمعلومات التي طلبها السفير البريطاني في اسطنبول عن طريق الخارجية البريطانية ، وذلك في الرسالة التى بعثها الى الخارجية البريطانية عن طريق مكتب الهند في لندن ، وجاءت الاجابة في سبع نقاط هي :

(١) ـ أرغب في أن أخبركم باستلام رسالتكم المؤرخة في ١١ أكتوبر عن طريق "Viscount Cross" والتي تحتوي على نسخة من الرسالة المستعجلة من سفير صاحب الجلالة في اسطنبول والمؤرخة في اول أكتوبر والمتعلقة بادعاءات السيادة العثمانية على الساحل العربي في الخليج العربي .

(٢) ـ رغبة «لورد كيرزون في الرجوع الى المراسلات التي جاءت في الفترة من عام «١٨٧٩ ـ ١٨٨٠ ، وذلك لمعرفة الأمور المتعلقة حول الموضوع أعلاه ، وهنا أرغب في أن أشير الى المعلومات التي وضعها في تلك الفترة وزير الدولة للشئون الخارجية ، وهذه المعلومات تعطي بوجه عام النظرة السريعة التي كتبت عن طريق سلفه» "Viscount Cranbrook» والذي وجه رسالة الى مكتب الخارجية في ٢٩ سبتمبر ١٨٧٩ .

(٣) ـ تظهر الصعوبات في أية مفاوضات تجري مع العثمانيين حول الميناءين من وجهة النظر البريطانية ، وذلك عند البدء في تعيين مناطق محددة للادعاءات العثمانية على الساحل العربي من الخليج العربي ، والذي جاء ذكرها في عام ١٨٧٩ ، وهذه المشكلة لم يكن قد سمع بها أحد الا مع ظهور العراقيل أمام السفن البريطانية ، وعلى أية حال يجب ان يؤخذ في الاعتبار اتخاذ عمليات ضد سفن معينة أو محددة .

ادخال قضية ما يفعله العثمانيون من فرض الاعتراف لأية موانىء محددة في الساحل العربي والمياه الاقليمية واعتباره مساوياً للقوة والعظمة البريطانية في المنطقة .

(٤) ـ ان الوضع الحالي في الساحل العربي يفسح أمامه مجالا مميزا ، وكان قد أشار اليها أخيرا السير غودلي .Mr

Godley ـ في رسالته المؤرخة في ١٢ يوليو الماضي بأن حكومة صاحب الجلالة قد رفضت السماح للأدعاءات العثمانية بالسيادة على ساحل قطر عندما كان السلطان متصلبا لفرض حقوقه وسيادته على ذلك الساحل .

ان شيخ «البدع» في الجهة الشرقية لشبه الجزيرة القطرية اعتبروه زعيما مستقلا ، وان المياه الاقليمية لتلك الساحل لا تعتبر جزءا من الطريق الملاحي في الخليج العربي ، في حين جعله العثمانيون طريقا بحريا للبريد العسكري الصغير منذ عام ١٨٧٢ ، وان حكومة صاحب الجلالة لم تعترض قط ضد ممارسة العثمانيين لسيادتهم على هذا الجزء من ساحل قطر في تلك الفترة .

(٥) ـ يعتقد «لورد كيرزون بأنه ليس هناك اعتراض على موضوع السيادة من قبله ويكفي حاليا أن يطلع «السير وايت ـ W. White» اذا ما رأى ماركوري سالسبورى ذلك على الموضوع ، وان حكومة صاحب الجلالة تأخذ بعين الاعتبار بأن الميناء المحتل من قبل العثمانيين يؤثر بشكل فعال على الساحل العربي المجاور «للقطيف» ، ويجب عليهم ان يلتزموا بالاعلان الذي وضع عام ١٨٨٣ ، وان تلك الادعاءات العثمانية على الميناء وحقوق السيادة على ساحل قطر لم يسمح به من قبل حكومة صاحب الجلالة ، ولكن ليس هناك أسباب يمكن أن تتوقع من أية نتائج محددة يمكن أن تظهر باتخاذ قرارات مع الحكومة العثمانية ، بخصوص الاعتراف بحقوق السيادة العثمانية على ذلك الساحل ، وانه غير المرغوب فيه اظهار أو اثارة هذا السؤال في الوقت الحاضر .

(٦) ـ وانني أضيف هنا استنادا الى ما جاء «في فندليز ـ Findlay's»، وهو القاموس الملاحي للمحيط الهندي في الصفحة (٦٩٠) تقع «رأس التنورة» الى نقطة في جنوب لسان طويل من الرمال والتلال الرملية على حافته والتي تبدأ من جهة شمال خور القطيف . اما بالنسبة لموضوع بناء العثمانيين لمستودعات الفحم في «رأس التنورة» فليس هناك أية اعتراضات قد تظهر حاليا من قبلنا .

(٧) ـ مع تعاطفي مع مطالبكم لوضع مسافة محددة لسيادة سلطان

مسقط ، فإنه يسعدني أن أقول بان الخط الساحلي لامتداد حدود مسقط يبدأ من «رأس الخيمة» شمالا وينتهي بالقرب من «رأس الحد» بالقرب من ظفار ، وفي أية اتجاهات أخرى

غير ذلك لا يمكننا أن نعتقد بايجاد حدود دقيقة وخاصة في الجهة الغربية من مسقط في المناطق الداخلية ، ويمكننا القول ان هناك الصحراء العربية الكبرى .

- نسخة من هذه المذكرة تم تقديمها الى المقيم السياسي في الخليج العربي للاطلاع ، ونسخة تم ايداعها في ارشيف هذا المكتب تحت رقم 2149- E بتاريخ ١٩٨٨/١٠/٣١ .

وقع عليها كل من عن الدائرة الخارجية

Fort William Sd- W.H. Cornish

مساعد سكرتير حكومة الهند ١٨٨٨/١٢/١٨

الخاتمة :

من دراستنا السابقة يتضح الموقف البريطاني من التواجد العثماني في الاحساء وقطر ، كيف كان يمر من خلال عدة قنوات وخاصة عن طريق ادارة حكومة الهند والمتمثلة في موظفيها في الخليج العربي ، حيث وجدنا الرسائل والتقارير الأولى كانت صادرة من الوكيل المقيم البريطاني في البحرين ، والذي كان يراقب النشاط العثماني عن كثب ، ويرفع تقاريره الى المقيم السياسي البريطاني في بوشهر والذي بدوره كان يرفع تقاريره الى الجهات المعنية وخاصة ما يتعلق بالنشاط العثماني الى المقيم والقنصل البريطاني في بغداد ، وهذا الاخير يرفع الى السفير البريطاني في اسطنبول والذي كان يرفعها الى وزارة الخارجية التي تستفسر عن تلك المواضيع من جديد من حكومة الهند ثم تتخذ بعدها القرار المناسب .

أي أن عملية اتخاذ القرار السياسي كانت تمر بعدة مراحل ، وتكون مدروسة من كافة الجوانب ، ولهذا فان الحكومة البريطانية استمرت منذ عام ١٨٨٨ ، تراقب الاوضاع في المنطقة وخاصة

التحركات العثمانية ثم دخلت في مفاوضات معها لعدة سنوات حتى اسفرت عن توقيع اتفاقية عام ١٩١٣ ، بين بريطانيا والدولة العثمانية والتي عرفت بالاتفاقية «الانجلو - عثمانية» ، والتي تم بموجبها تقسيم النفوذ بين البلدين في الجزيرة العربية ، كما عرف هذا التقسيم «بالخط الازرق» ، وأصبح النفوذ العثماني بموجبها يتركز في كل

من الاحساء ونجد والحجاز واليمن الشمالية ، في حين أصبح من نصيب

بريطانيا المناطق الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية وهي الامارات وعمان واليمن الجنوبية .

د. محمد حسن العيدروس

جامعة الإمارات

الهوامش

(1) I.O.R - 15/6/19 - From - The Residency Agent, Bahrain - The Political Resident in Gulf P.4.

(٢) : «البقارة» ـ اسم لأحد انواع السفن الكبيرة في الخليج العربي والتي كانت ولا زالت تصنع محليا باستخدام الاخشاب المستوردة من الهند وشرق افريقيا . وهي مجهزة بآلات الديزل .

(3) I.O.R. - R/15/6/19- O.P. Cit P.4.

(4) I.O.R - Ibid P.4.

(5) I.O.R. - R/ 15/6/19 - From Colonel E.C. Ross, C.S., Political Resident in the Gulf and Her Majesty's Consul - General for Fars, - To - The Political Resident, Baghdad P.3.

(6) I.O.R - R/15/6/19 - From - Major A.C.Talbot Her Majesty's Consul General, Baghdad - To - Sir W.A. White, Her Majesty's Ambassador at Constantinople P.4.

(7) I.O.R - R/15/6/19 - Ibid P.4.

(8) I.O.R - R/15/6/19 - From Sir. H.D. Walf, Her Majesty's Minister, Teheran - To - The Marquis Of Salisbury, K.G, Secretary of State For Foreign Affairs, P.2.

(9) I.O.R. - R/15/6/19 - Ibid P.2.

(10) I.O.R. - R/15/6/19 - Ibid P.3.

(11) I.O.R. - R/15/6/19 - Ibid P.3.

(12) I.O.R. - R/15/6/19/ - Note - S. Churchill - The 30 th August 1888 P.3.

(13) I.O.R. - R/15/6-19 - Ibid - P.3.

(14) I.O.R.- R/15/6/19 - Ibid P.3.

(15) I.O.R. - R/15/6/19 - Ibid P.3

(16) I.O.R. R/15/6/19 - From - Sir. W.A. White, Her Majesty's Ambassador at Constantinople - To - The Marquis Of Salisbury, K.G. Secretary of State For Foreign Affairs P.1.

(17) I.O.R.- R/15/6/19 - Ibid P.1

(18) I.O.R. - R/15/6/19 - Ibid P.1.

(19) I.O.R. - R/15/6/19 - Ibid P.1

(20) I.O.R.- R/15/6/19 - From - Sir, Julian Pauncrfors, Under-Secretary Of State For India P.1.

(21) I.O.R. - R/15/6/19 - Ibid P.1.

الوثائق البريطانية غير المنشورة

(1) I.O.R. - R/15/6/19 - No - 78, dated The 6th August 1888 - From - The Residency Agent, Bahrain, - To - The Political Resident in The Gulf.

(2) I.O.R. - R/15/6/19 - Dated Bushire The 16th August 1888. From - Colonel E.C. Ross, Political Resident in the Gulf and Her Majesty's Consul-General. To - The Political Resident, Baghdad.

(3) I.O.R. - R/15/6/19 - No. 573, dated Baghdad, The 27 August 1888. From - Major A.C Talbot, Her Majesty's Consul-General, Baghdad. To - Sir W. A. White, Her Majesty's Ambassador Of Constantinople.

(4) I.O.R. - R/15/6/19 - No - 168, dated Gulahek, the 3 rd September 1888. From - Sir, H. P. Walf, Her Majesty's Minister, Teheran To - The Marquis Of Salisbury, K.G., Secretary Of State for Foreign Affairs.

(5) I.O.R. - R/15/6/19 - Translation From The Persian paper " Ittala " of 9 th August 1888.

(6) I.O.R. - R/15/6/19 - Note - S. Churchill - The 30 th August 1888.

(7) I.O.R. - R/15/6/19 - No - 381 dated The rapia The 7st October 1888 From - Sir W.A. White, Her Majesty's Ambassador Of Constantinople To - The Marquis Of Salisbury, K.G. Secretary of State For Foreign Affairs.

(8) I.O.R. - R/15/6/19 - Dated Foreign Office, London, the 11th October 1888. From - Sir Julian Pauncrfors Under-Secretary Of State For Foreign Affairs. To - The Under-Secretary Of State For India.

(9) I.O.R. - R/15/6/19 - Dated India Office, London, The 2nd November 1888. From - J.A. Godley, Esg - Under-Secretary Of State For India To - The Under-Secretary Of State For Foreign Affairs.

الشاعر علي بن

دراسة موضوعي



بقلم الدكتور :

أحمد موسى الخطيب

٥

ابن المقرب العيوني

دراسة فنية

في الحلقة السابقة من هذا البحث عرض المؤلف لأغراض الشعر التي تناولها ابن المقرب العيوني وينتقل في هذه الحلقة الى الدراسة الفنية للديوان مبتدئا بقيم التعبير والتصوير والايقاع التقليدية.

لقد تميز عصر ابن المقرب «بالمحاكاة» وخلا - أو كاد يخلو - من الابداع والابتكار وأصبحت صناعة اللفظ سمة بارزة في كتب العلوم والآداب والفنون، وصار لزاما على الشعراء المتاخرين أن يتمسكوا بالتقاليد والمقومات التي أرساها أسلافهم يستمدون منها مادتهم الفنية، فها هو ذا ابن المقرب يترسم خطاهم في بناء مدائحه ويلهج بالثناء على ممدوحيه بصفات مثالية، موروثة مكرورة، تواضع الشعراء على الكثير منها منذ العصر الجاهلي. وإذا ما التفت الى المرأة ليتغنى بجمالها في صدور مدائحه، وجدناه مفتونا بصفاتها النموذجية، التي تصور المثل الأعلى للجمال في المجتمع البدوي، محاكاة لأسلافه ومعاصريه. ولعلي لم أجانب الصواب حين قلت أن المحاكاة ومجاراة ذوق العصر كانت وراء أبياته القليلة في الغزل بالمذكر.

كذلك جاء دور فخره ترديدا لنغمات سابقيه وأساليبهم، سواء فخره بنفسه أم بقبيلته. أما هجاؤه الاقذاعي، فيعيد على مسامعنا نقائض جرير، والفرزدق والأخطل، مع شيء من روح ابن الرومي في سخريته اللاذعة.

وقد لاحظنا - على ضوء دراستنا لموضوعات شعره - صلة واضحة بينه وأسلافه، فقد حفظ، وفهم، ووعي شعر المشاهير بخاصة، وتأثر بهم أيما تأثر، في ألفاظه، وتراكيبه ومعانيه، وصوره، وأوزانه وقوافيه، وروح قصائده.

ولكني لا أذهب مذهب هؤلاء الذين يدينون الشاعر بما يأخذه عن الآخرين، ويعدون ذلك سرقة يحاسب عليها، «فالمسألة ليست سطوا، ولكنها ايمان بحقوق الأبناء وما خلفه لهم آباؤهم»[١] فاننا لو فعلنا ذلك، لكنا كمن يطلب من الشاعر أن يهمل موروث لغته، وأن يقطع صلته بالمبدعين من السابقين. أليس هذا التراث هو نهر الثقافة الذي منه اغترف، وبه نمت مواهبه، وعلى ضفافه ترعرعت ملكات ابداعه.

وقد أدرك هذه الحقيقة منذ أمد بعيد الشاعر الجاهلي حين قال:

ما أرانا نقول إلا معاراً
أو معاداً من قولنا مكرورا[٢]

ثم ألح الناقد العربي القديم على حاجة الشاعر المحدث الماسة الى الرواية والحفظ، وجاء ابن طباطبا ليفصح عن معاناة شعراء عصره بقوله: «والمحنة على شعراء زماننا في أشعارهم أشد منها على من كان قبلهم، لأنهم قد سبقوا الى كل فن بديع، ولفظ فصيح، وحيلة لطيفة، وخلابة ساحرة»[٣].

ولعل هذا نفسه هو ما دفع شاعرا، وباحثا معاصرا، للقول بأن «للتراث الشعري سيطرة لا يكاد يفلت منها الا الشاعر العظيم. فالشعراء الأوساط يخضعون لهذا التراث خضوعا شبه مطلق، فإذا أراد أحدهم أن يصف اختار التشبيه الجاهز الذي درج عليه الأقدمون، وإذا أراد أن يمجد انسانا اختار الأوصاف المتواترة التي وردت في محفوظه من الشعر، وحتى اللغة حينئذ تفقد فرديتها وأصالتها، وتصبح لغة عامة، لا يتميز بها شاعر عن شاعر»[٤].

إذن فصلة المتأخرين بأسلافهم هي صلة طبيعية، وتظهر هذه الصلة عند الشعراء بعامة، ولكنهم يتفاوتون في مدى الخضوع لسلطانها. فطالما حصر الشاعر المحدث نفسه في أغراض أسلافه وموضوعاتهم، وفرض عليه أن يلتزم بأساليبهم في التعبير، فلا بد أن يضيق المجال أمامه، ولا مفر من أن

يسلك الشاعر أحد طريقين: إما التكرار الساذج الذي يسقط قيمته كشاعر مطالب بالابتكار، وأما التوليد الذي يخرجه من مأزق التكرار الى آفاق أوسع فيما يسمى «بحسن الاتباع»[٥]، وهو أن يأتي المتكلم الى معنى اخترعه غيره، فيحسن اتباعه فيه، بحيث يستحقه بوجه من وجوه الزيادات التي توجب للمتأخر استحقاق المعنى المتقدم[٦] على أن سالك هذا السبيل - سبيل التوليد - يحتاج الى الطاف الحيلة، وتدقيق النظر في تناول المعاني، واستعارتها، وتلبيسها حتى تخفى على نقادها البصراء بها، فينفرد بشرفها، كأنه غير مسبوق اليها[٧].

إذا هناك شعراء يمتلكون التراث، وآخرون يمتلكهم التراث، فالضرب الأول منهم يكون الشاعر فيه انسانا متميزا ينتج شعرا متميزا، وذلك بعد أن هضم التراث ووعاه، واستطاع بعد ذلك أن يصل الى اسلوبه الخاص.. والشاعر من هذا المستوى يتجاوز التراث عادة، فيضيف اليه جديدا، أما الضرب الثاني منهم، فالشاعر فيه يفرز شعرا تتوالد فيه المعاني من معان سبقه اليها شعراء آخرون، بل تتوالد فيه الأبيات من أبيات سابقه، فهو لون من التنويع أو التجويد، بل قد يصل الأمر الى تكرار التشبيهات والاستعارات[٨].

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن، أين مكان ابن المقرب من التراث؟ وأيهما قد ملك الآخر؟ هذا ما سنحاول الاجابة عنه من خلال هذا الفصل من دراستنا.

***

نشأ ابن المقرب في بادية الاحساء، وعلى رمالها تفجرت ينابيع شعره، واستقامت له الطريق الى فن القول، متمكنا من أدواته الفنية، شابا تحدوه آمال عريضة في الامارة والرياسة، وكان له من العمر نحو ثلاثين عاما، حين جادت قريحته الملهمة بغرسها الأول الناضج في مدح الأمير العيوني محمد بن أبي الحسين، والتي افتتحها بقوله:

منال العلى بالمرهفات القواضب
وسمر العوالي والعتاق الشوازب[٩]

ولم تكد تمضي بضع سنين - بعد تلك المدحة - حتى طوت يد المنون صفحة ناصعة، من تاريخ الدولة العيونية بموت أميرها محمد بن أبي الحسين، وما أن رحل حتى أطلت الفتنة برأسها، وعصفت ريح الشر والوقيعة بالقوم، فأخذ يتربص بعضهم بالبعض الآخر ويتوثب عليه، وخشي حكامهم بأس الشاعر الأمير، وطموحه، فنكبوه، وضيقوا عليه، فنفر منهم، وتاقت نفسه الى الحرية

بعيدا عن موطنه، فيمم شطر العراق، متنقلا بين حواضره، ولكن مظاهر الحاضرة لم تشغله عن الوطن والأهل، وكما أحس نفسه ذات يوم نبتا غريبا في موطنه - فهو اليوم - وفي دروب حاضرة الخلافة - يجد نفسه أكثر غربة، وقد صور هذا الشعور في بعض شعره الذي نظمه في العراق، خلال حوار دار بينه وفتاة لقيته عرضا في احد دروب بغداد.

بدت سافرا من درب دينار والصبا
يرنحها والدل والتيه والعجب
رأتني فأبدت عن أسيل وحجبت
بذى معصم جدل يعض به القلب
وقالت غريب والفتاة غريبة
ولا في نكاح الحل ذام ولا ذنب
فقلت لها اني ألوف ولي هوى
ومالي في بغداد شعب ولا سرب
فقالت: وأين الشعب والسرب والهوى
فقلت بحيث الكر والطعن والضرب
فقالت: أرى البحرين دارك والهوى
بنيك وهذا ما أرى فمن الشعب
فقلت: سلي حي نزار ويعرب
بأعظمها خطبا اذا استبهم الخطب(١٠)

وما يعنينا من هذا كله أن ابن المقرب حين بدأ رحلاته كانت بادية الاحساء قد أشبعت ملكته الواعية، ومكنته من لغة الأعراب الفصيحة، ومفرداتها الغريبة النادرة، فأخذ يصول في حواضر العراق تياها بغريبه وبدويته، وقد شجعه على ذلك إعجاب أبي البقاء العكبري، وشهادته بالتفوق له، فيقول مختتما مدحته للنقيب الطالبي تاج الدين اسماعيل:

فدونكها يابن النبي غريبة
تحدث أنَّ العائبيها هلابث
جمعت بها سحر الكلام الذي اختفى
قديما فلم ينفث به قبل نافث(١١)

كما يرى أن أغلى الشعر مهرا «غرائبه»، فيقول مادحا الأمير مقدم بن ماجد بن محمد بن أبي الحسين العيوني:

فكم سار لي في مدحكم من غريبة
تروق وأغلى الشعر مهرا «غرائبه»(١٢)

ومع أن ايثار الغريب، ووحشي اللفظ سمة عامة عند شاعرنا، إلا أنها أكثر ما تكون في بعض مدائحه، ككافيته، وثائيته، وحائيته في مدح الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ). وقد استهل كافيته في مدح الأمير أبي ماجد محمد بن علي العيوني، بقوله:

أمن دمنة بين اللوى والدكادك
شغفت بتذراف الدموع السوافك
عفت غير أرى وأورق حائل
وأشعث مشجوج وسفع روامك
ونؤى كجذم الحوض غير رسمه
وجيف الحصا بالموجفات الحواشك(١٣)

يبدو من هذه الأبيات ميل ابن المقرب الى التبدي، وايثاره لغريب اللفظ، فكأنه يطوي القرون ليتمثل روح أسلافه الأول في جاهليتهم،

ويخاطبنا بقاموسهم الذي طوت حضارة بني العباس الكثير منه، ولو قرأ هذا الشعر من لا يعرف صاحبه لألحقه بأسلافه القدماء دون تردد.

ومن حائيته في مدح الخليفة الناصر لدين الله يقول:

فيا عرصات الدار من حيث تلتقي
شقائق أجزاع اللوى والأباطح
سقاكن من نوء السماكين عارض
من المزن محلول النطاقين دالح
ملث يظل الجأب في عنفوانه
على النشز وهو السحسح المتمايح
كمسترعف احذى ودنح بعدما
غدا طلقا واستهدهته المطاوح
وتمسى الرعان القود فيه كأنها
يعاليل في آذي بحر طوافح[١٤]

ولا شك في أن قسوة صروف الدهر عليه - الى جانب نشأته البدوية - واتصاله بدواوين الفحول من أسلافه، وتلمذته عليها قد أورثته شيئا من هذه الوعورة والخشونة. التي تجعل قارىء ديوانه غير قادر على المضي فيه دون أن يصحب معه أحد معاجم اللغة. وربما كان للمنافسة في بلاط الخليفة دورها في ايثاره التبدي ونزوعه الى الاغراب.

والى جانب هذا التيار اللغوي القديم، نلاحظ في شعر ابن المقرب تيارا قديما آخر يتصل بالبناء المعنوي لشعره. ويتمثل هذا التيار في كثرة العناصر القديمة المنتشرة فيه. فمن اليسير على قارىء ديوانه أن يتمثل بوضوح اطاره الثقافي الذي اتسعت دائرته لتشمل شعر الفحول في سائر عصور الأدب العربي، وليس ابن المقرب - في تأثره بأسلافه، وأخذه أهم معانيهم - بدعا بين الشعراء، فقد كان شعراؤنا - على امتداد عصورهم الأدبية - ينظرون الى تراث أسلافهم نظرة تقدير واكبار، ويرون فيه مثلا تحتذى، وتراثا غزيرا يجب ألا ينفصلوا عنه، أو يبتوا حبلهم منه، وهبة من أسلافهم النوابغ الذين مهدوا الطريق وأرسوا الدعائم[١٥].

وقد تأثر ابن المقرب - على وجه الخصوص بشاعر العربية الأكبر أبي الطيب المتنبي تأثرا بالغا، وكما ألمحنا من قبل فالصلة بين الشاعرين تتجاوز هذه الصلة الفنية الى ما هو أبعد، فلا يخفى على البصير بحياة الشاعرين أن الأخير كان يرى في سلفه مثلا يحتذى في الشموخ والأباء، وعلو الهمة، وبعد الأمل.. لذا فقد تخرج في مدرسة أبي الطيب الكبرى، وكان الفن الشعري واحدا من أبرز علومه التي لقنها فيها، ومن هنا راق لبعض المهتمين بابن المقرب - وبخاصة في الخليج العربي - أن يخلعوا عليه لقب «متنبىء الخليج العربي»[١٦] كما خلعوا على ابن هانىء الأندلسي لقب متنبىء المغرب، ومن أمثلة تلك العلاقة

الفنية بينهما، قول ابن المقرب:

وما العز الا في صهـا كل سـابح
وما المال الا في شباكل قـاضب[١٧]

فصدر هذا البيت يشبه قول أبي الطيب:

أعـز مكـان في الـدنى سرج سـابح
وخير جليس في الـزمان كتـاب[١٨]

ويقول ابن المقرب:

عـذل المشـوق يهيج في بـرحـائه
ويثير نـار الـوجـد في حـوبـائه
فـاترك مـلامتـه ودعـه وشانـه
في نـوحـه وحنينـه وبكـائه[١٩]

ويقول المتنبي:

عـذل العـواذل حـول قلب التـائه
وهـوى الأحبـة في سـويـد أوائه
يشكـو الملام الى اللـوائم حـره
ويصد حين يلمن عن برحـائه[٢٠]

فالبيتان متفقان في الوزن والقافية مع قـول المتنبي، ومعنـاهما واحـد تقريبا، إلا أن المتنبي أحاط معناه بشيء من الفلسفة.

ويقول ابن المقرب مادحا:

بمعـاديك لابك الأسـواء
ولحسادك الثرى، لا الثراء[٢١]

وقد سبقه أبو الطيب الى هذا المعنى في مدح سيف الدولة، فقال:

المجد عـوفي إذا عـوفيت والكرم
وزال عنك الى أعـدائك الألم[٢٢]

ولا يخفى ما بين البيتين من تقارب في المعنى:

ويقول المتنبي:

جود الـرجال من الأيـدي وجودهم
من اللسان فلا كانوا ولا الجود[٢٣]

فأخذه ابن المقرب وقال:

جـود الأكـارم أخبـار وجـودهما
شيء تراه وليس الخبر كالخبر[٢٤]

ويقول أبو الطيب:

حقـرت الردينيـات حتى طرحتهـا
وحتى كان السيف للرمح شاتم[٢٥]

فأخذه ابن المقرب، فقال:

وقـد أبطل الضرب القسي والقيت
فلم يبق الا ضـارب ومعـانق[٢٦]

ويقول ابن المقرب مادحا:

وتـرى محيـاه إذا ارتفعت
سود العجـاج ينير كـالبـدر[٢٧]

ويذكـرنا هـذا بقول أبي الطيب في مدح سيف الدولة:

تمر بك الأبطـال كلمى هـزيمـة
ووجهك وضاح وثغـرك باسم[٢٨]

ولكن التصـويـر الحسي عنـد أبي الطيب يفوق التصوير الحسي التقليدي عند شـاعرنـا، بالاضـافة الى المقـابلة الجميلـة بين شطـري بيت أبي الطيب ودورهـا في ربط أجـزاء الصـور المتناقضة.

ويقول ابن المقرب راثيا:

تبـا لـدنيـا كلما وهبت ثنت
فاسترجعت منـا نفيس هباتها[٢٩]

وهـذا يسـاوي في المعنى قـول المتنبي:

أبـدأ تسترد مـا تهب الدنـــ
ــيا فيـاليت جـودهـا بخـلا[٣٠]

فالنظرة الفلسفية متشابهة، علما بأن ابن المقرب – على كثرة ما أخذه من شعراء بني العباس – لم يتأثر بنظراتهم الفلسفية، ولم يعرف عنه أنه كان يميل الى الفلسفة في شعره.

ويقول ابن المقرب مادحا:

ولو قال للأفلاك في سيرها قفي
لباتت ركودا لا تدور ولا تجري(٣١)

ويبدو أنه متأثرا في معناه بقول أبي الطيب:

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه
لعوقه شيء عن الدوران(٣٢)

وعندما خالف المتنبي ما رسخ في الوجدان الفني لشعرائنا في الفخر، بقوله:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي
وبنفسي فخرت لا بجدودي(٣٣)

يتلقف ابن المقرب هذا المعنى فيقول:

أليس بيتكم في العز مركزه
بيتي فما كان من فخر فمن قبلي(٣٤)

وقد يتجاوز اعجابه بأبي الطيب ومعانيه الى حد من التقليد البغيض في الصياغة والشكل، فالمتنبي يقول:

أقل أنل أقطع أحمل عل سل أعد
زد هش بش تفضل أدن سر صل(٣٥)

ونجد عند ابن المقرب مثل هذا النظام والحشد من الأفعال في قوله:

وارفع وضع واعتزم وانفع وضر وصل
واقطع وقم وانتقم واصفح وخذ وهب(٣٦)

ومثل هذا قوله:

وارفع وضع واقطع وصل وامنع وهب
وانفع وضر وقم وسام ورام(٣٧)

كما حاكى المتنبي أيضا في نظم بيته:

دان بعيد محب مبغض بهج
أغر حلو ممر لين شرس
ند أبي واف أخى ثقة
جعد سرى نه ندب رض ندس(٣٨)

ويرى الدكتور طه حسين أن المتنبي يكلف سامعه وقارئه شططا، لأنه لا يزيد على نظم الألفاظ(٣٩). ولكن الصنعة المقصودة لذاتها عند شاعرنا تصل حدا بعيدا من التكلف، فيقول:

ندس ردس هكس مكس
شرس مرس وافي الذم
لهج بهج بفواضله
سمح طمح عالي الهمم(٤٠)

فزاد بن المقرب على تكلف الصنعة ميل الى الأغراب، مما يجشم قارىء بيتيه أو سامعهما شططا مضاعفا وان كان لا يخلو من توفيق في ايقاعه الذي ساعده البحر عليه. ومثل هذه الصلة بين الشاعرين لا تزيد عن كونها تقليدا أعمى، ومحاكاة لاظهار البراعة.

وربما كانت المبالغة عند ابن المقرب أثرا من آثار التلمذة على ديوان أبي الطيب الذي كان مولعا بالمبالغة وبخاصة في صدر حياته الفنية(٤١). فالمبالغة عند شاعرنا علامة بارزة في

شعره، وسمة غالبة عليه، صاحبته طوال رحلته الفنية، لأنها كانت متفقة مع احساسه بالاخفاق ورغبته في تحقيق أهدافه البعيدة. وان كانت المبالغة في صناعة الشعر - بعامة - كالاستراحة من الشاعر إذا أعياه ايراد معنى حسن بالغ فيشغل الاسماع بما هو محال(٤٢).

ويذكر ابن رشيق «أن للمبالغة ضروبا كثيرة، وأن الناس فيها مختلفون: منهم من يؤثرها، ويقول بتفضيلها، ويراها الغاية القصوى في الجودة، وذلك مشهور من مذهب نابغة بني ذبيان، وهو القائل: أشعر الناس من استجيد كذبه، وضحك من رديئه.. ومنهم من يعيبها وينكرها ويراها عيبا وهجنة في الكلام، وقد قال بعض حذاق نقد الشعر: المبالغة ربما أحالت المعنى، ولبسته على السامع، فليست لذلك من أحسن الكلام ولا أفخره(٤٣). ويضيف ابن رشيق قائلا: ان الغلو هو الذي ينكره من ينكر المبالغة من سائر أنواعها، ويقع فيه الخلاف لا ما سواه.. ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه، وعيبت الاستعارة، الى كثير من محاسن الكلام(٤٤).

والمتتبع لمبالغات ابن المقرب يجد أنه قد استوفى شتى أنواعها وضروبها، معتدلا حينا، ومتطرفا حينا آخر، وحسبنا أن نعرض لبعض صور المبالغة عنده، الكفيلة بالقاء الضوء على هذا الجانب من فنه الذي جاء صدى لتلمذته على ديوان أبي الطيب بخاصة.

فمن ضروب مبالغاته «التبليغ» وهو الافراط في وصف الشيء بالممكن عقلا وعادة(٤٥)، كقوله:

والمطعمين إذا هبت شآمية
نكباء تقلع كسر البيت بالطنب(٤٦)

ومن ضروب مبالغاته «الاغراق»، وهو فوق التبليغ ودون الغلو، ويكون الوصف المدعى فيه ممكنا عقلا، وممتنعا عادة(٤٧)، كقول ابن المقرب:

تغشى نوافله القريب محله
وينال نائله الحريد الأبعد(٤٨)

ومنه قوله:

بنا يستنسر العصفور عزا
وتخشى الأسد صولات الضباع(٤٩)

أما أكثر أنواع المبالغة دورانا في شعره فهو الغلو، وهو امتناع الوصف المدعى عقلا وعادة(٥٠). وقد اختلف رجال البديع في استحسان واستهجان هذا الضرب من المبالغة، ولسنا بصدد عرض أقوالهم، وحسبنا ما اتفقوا عليه بتقسيم الغلو الى قسمين: الأول حسن مقبول، وهو ما دخل عليه أو اقترن به أداة من الأدوات التي تقربه الى الصحة والقبول من نحو: «قد» للاحتمال، و«لو»، «لولا» للامتناع

وكأن للتشبيه، و«يكاد» للمقاربة، وما أشبه ذلك[٥١]. وأمثلة هذا الضرب كثيرة عنده، وقد استوفى فيها سائر أدوات التقريب، وان كانت «لو» أوفرها حظا.

والأبيات التالية تدل على مدى ولعه بالغلو، وحرصه على دخول أداة الامتناع «لو» عليه:

ولو قال للأفلاك في سيرها قفي
لباتت ركودا لا تدور ولا تجري
فتى لو لليث الغاب باس كباسه
لأغناه عن ناب حديد وعن ظفر
ولو أن للعضب اليماني جوهرا
كعزمته لم ينب عن قلل الصخر
ولو أن للأنواء جودا كجوده
لما انتقل الارباع يوما الى العشر[٥٢]

ويندر دخول أداة الامتناع «لولا» على الغلو عنده، كقوله:

لولا النبوة بالنبى محمد
ختمت لقلت ارى نبياً مرسلا[٥٣]

وقد يكون الغلو مقبولاً لما يتضمنه من تخيل حسن، كقول ابن المقرب في عجاج المعركة المنعقد حتى لتتعثر العقبان في منعقده وتحجب الشمس من كثافته:

تعثر العقبان في عثيرها
وتظل الشمس منها في حداد[٥٤]

ويمتنع هذا عقلا وعادة، ولكنه تخيل حسن، ومثل هذا التخيل الحسن، والغلو المقبول قوله:

وتمشي نسور الجو فوق عجاجه
وتبنى به أو كارهن اللقالق[٥٥]

أما النوع الثاني من الغلو، فغير المقبول المتمثل في المعنى الممتنع عقلاً وعادة، مع خلوه من أدوات التقريب التي تدنيه من الصحة والقبول، كقول شاعرنا مفتخراً:

وأرعن باذخ صعب المراقي
صككناه فأذن بانقشاع[٥٦]

فمن غير الممكن عقلاً وعادة أن تبلغ سطوتهم حد ازالة الجبال العالية، فهذا غلو مفرط، ومثل هذا الغلو الغث قوله مادحاً:

فاليوم ما فوق ظهر الأرض قاطبة
إلا امرؤ وله من ماله نشب[٥٧]

ومثل هذا الغلو الغث أقرب الى الهجاء منه الى المدح، لأن المبالغة إذا تجاوزت حد المعقول والمستساغ كانت سخفاً وهجاء[٥٨]. ولعله يشير الى قول المتنبي في كافور:

تجاوز قدر المدح حتى كأنه
باحسن مايثنى عليه يعاب[٥٩]

والى قول البحتري:

جل عن مذهب المديح فقد كاد
يكون المديح فيه هجاء[٦٠]

فمن مبالغات ابن المقرب السخيفة، قوله مادحاً:

ملك كلا راحتيه قد تقسمتا
رزق العباد فتجري منهما القسم[٦١]

ومن غلوه قوله مادحاً:

جـرت الملـوك فلم تشق غبـاره
وجرى فشق غبـارهـا مشكولا[٦٢]

فـالشطـر الأول يـوحي بسبق ممدوحـه وتفوقـه، ولكنه أفسـد هذا المعنى في عجز البيت إذ ليس من الممكن عقلاً وعـادة أن يلحق بمنـافسيـه ويسبقهم وهو مقيـد، اللهم إلا إذا كان منافسوه غير قادرين على الحركة.

وتعجبه مبالغـة أبي الطيب في مدح سيف الدولة:

تجاوزت مقدار الشجاعـة والنهى
الى قول قوم أنت بـالغيب عـالم[٦٣]

فيتلقفهـا محاولاً التخفف من غلوها المفرط، إلا أن معناه لم يخل من غثاثة وسخف، إذ يقول مادحاً:

فقد جـزت مقدار الشجاعـة والندى
وتـربك في لعب الصبـا متشـاغل[٦٤]

ومع أن مبـالغات ابـن المقرب تعـد أثـراً من آثار تلمـذته على ديـوان أبي الطيب، إلا أنـه لم يـوظفهـا مثلـه في كافورياته «فكل مغالاة عند أبي الطيب تبلغ حـد إلا حالة، وكل غلـو يصل الى حـد التجـاوز فهـو هجـاء يعـاب بـه ممـدوحـه، وليس مـديحاً بحـال من الأحوال[٦٥] كقـولـه في مدح كـافـور الاخشيدي:

تجاوز حـــد المدح ....
..............................[٦٦]

لقد لاحظنا ـ عنـد حديثنا عن اطار ابن المقرب الثقافي – أن القرآن الكريم، والسنة الشريفـة يمثلان رافـدا هامـاً وأسـاسيـاً من روافـد ثقـافتـه. فقـد شاعت الألفاظ والمعـاني الاسلامية في معظم قصائده، فكان يضمن ــ أحياناً ـ آية كريمـة، وفي أحيان أخرى يقتبس معنى آية كريمـة أو حديث شريف. أما الألفاظ الاسلامية فهي تشكل مساحة كبيرة من معجمه الشعري، ويميل ابن المقـرب الى تكرار بعض تلك الألفـاظ، مثل «التقى، الهدى، الغـي، الـرشـد، العـدل، الضلال، الـزهد، الفـردوس، سقر ...) وحسبنا هـذه الأبيات لنرى مدى تأثر مدائحه ـ بخاصة ـ بالمعاني والألفاظ الاسلامية.

والعابـد الزاهـد الصوام إن حميت
هـواجـر الصيف والقـوام بـالسحـر
والمظهـر الحق لا يبغي بـه عوضـاً
إذ كـان طـالبـه يغـدو على خطـر
والطـاهر العـرض من عيب ومن دنس
والسـالم العـود مـن وصم ومن خـور
ذكـر المظـالم والآثـام ان ذكـرت
لـديـه والبخل ذنب غير مغتفـر[٦٧]

وقد نلتقي – في نسيبه – بمثل هذه المعاني والألفاظ الاسلامية:

وقـولا لـه : يـا أحسن السرب إنـه
غـريـب فهل من رقـة لاغترابـه
وعل نـوالا منـه يحمي حشـاشـه
يـزكي بـه عن حسنـه وشبـابـه
فإن زكـاة الحسن تقبيل ثغـره
ورشف ثنـايـاه وبـرد رضـابـه

حـــلا لا لأبنـــاء السبيـل مخصص
لهم دون من قـد نصـــه في كتـابـه(٦٨)

ولا يخفى ميل الشاعر الى التظرف في أبياتـه، واشارتـه الى آية مصـارف الزكاة، واستخدامـه عدداً من الألفاظ ذات الدلالات الدينية.

لم يلزم ابن المقـرب نفسه بشـاعر عمن سـواه، فأسـاتذتـه كُثـر، ولكن أحدهم لم يترك في نفسه وأدبه ما تركه أبـو الطيـب، ومع هـذا فللآخـرين بصمات كثيرة لا تنكـر في شعره وقـد سبقني في الـوقـوف على بعضهـا الأستاذ العمران، وفيما حصرناه غناء عن القليل الـذي تـركنـاه أو فـاتنـا حصره. فمن بين العناصر القديمة التي انتشرت في شعره قوله:

كل السيـادة في السخـاء ولن تـرى
ذا البخل يـدعى في القبيلـة سيـدا(٦٩)

ولا يخفى أنه قد أخـذ معنى احدى حكم زهير في قوله:

ومن يـك ذا فضل فيبخل بفضلـــه
على قـومـه يستغن عنـه ويـذمم(٧٠)

والبيتـان متكافئـان في المعنى، أمـا زهير فمعنـاه لا يكتمل إلا مـع نهايـة بيته، ولكن ابن المقرب قـد أفرغ معناه في الجملـة الإسميـة (كل السيـادة في السخـاء)، ثم أردفهـا بجملـة فعليـه منفية فصلت موجز معناه.

ويقول ابن المقرب:

ومن لم يبح زرف الأسنـة لحمـه
أبيح حماه واسترقت حـلا ئلـه(٧١)

وهذا يذكرنا بقول زهير:

ومن لا يـذد عن حوضـه بسلاحـه
يـــذمم ومن لا يتق الشتـم يشتم(٧٢)

يمجد كـلا البيتين القوة، وينـددان بسياسة اللين مع الاعداء، ولكن القوة التي يدعـو اليها ابن المقـرب هي نوع من الفدائية، كما أن النتائج المترتبة على التهاون والتخاذل عنده أبعد أثراً منها عند زهير.

ويقول ابن المقرب في حتمية الموت:

ومن هـــاب المنيــة أدركتـــه
ومـــات أذل من فقـع بقـــاع(٧٣)

فهو يضمن بهذا قول زهير:

ومن هـاب أسبـاب المنـايـا ينلنـه
وان يـرق أسبـاب السماء بسلم(٧٤)

وقول زهير أدل على حتميـة الموت وضعف الانســـان، فقـــد وفق أيما توفيـق في اختيار كلمـة «أسباب» وفي الاتيـان بها منكـرة، كما أجـاد التعبير المضارع (ينلنه) ليـوحي بالاستمرار وقد استكمل خطوط الحتميـة القدرية بقـولـــه «وإن يـرق أسبـــاب السماء بسلم».

ويقـول ابن المقرب في مـدح شمس الدين باتكين:

هو الشمس نورا وارتفـاعاً وشارة
كما قـد تسمى والملـــوك ذبـال(٧٥)

ويذكرنا هذا بقول النابغة:

فإنـك شمس والملـــوك كـــواكب
إذا طلعت لم يبـد منهـن كـوكب(٧٦)

ولا يخفي ما بين البيتين من تكاثر، وما فيهما من مبالغة. ويقول ابن المقرب:

بلى ان ظلم الاقربين وجدته
أشد على الاحشاء حراً ولاهبا(٧٧)

ويعيد هذا على مسامعنا قول شاعر البحرين في العصر الجاهلي، طرفة بن العبد:

وظلم ذوى القربى اشد مضاضة
على المرء من وقع الحسام المهند(٧٨)

ولا يقل ابن المقرب عن سلفه توفيقاً في التعبير عن أثر ظلم القريب لقريبه، ومدى وقعه على النفس، فإذا كان طرفه قد جعله يفوق ضربة السيف الحاد التي سرعان ما تعقبها الراحة، فإبن المقرب قد لحظ أن اضطرام الاحشاء ولهيبها يعطى صفة الديمومة في العذاب والشقاء.

ويقول ابن المقرب:

فإن سيوفنا ما زال فيها
شفاء للرؤوس من الصداع(٧٩)

وهذا يذكرنا بقول عنترة:

وسيفي كان في الهيجا طبيباً
يداوي رأس من يشكو الصداعا(٨٠)

ويقول ابن المقرب في معرض فخره بنفسه:

والشاربون جمام الماء صافية
ويشرب الناس من طيف ومن كدر(٨١)

ويساوي هذا البيت في معناه ومبناه قول عمرو بن كلثوم:

ونشرب إن وردنا الماء صفوا
ويشرب غيرنا كدراً وطينا(٨٢)

ويقول ابن المقرب:

ولقد حلبت الدهر أشطر نابه
وعرفت ما يبدى وما يتغيب(٨٣)

وهو متأثر في هذا البيت لفظاً ومعنى بقول لقيط بن يعمر الأيادي:

ما انفك يحلب هذا الدهر أشطره
يكون متبعاً طوراً ومتبعاً(٨٤)

ويقول ابن المقرب:

وليس تدفع عن حي منيته
إذا أتت عوذ الراقي ولا النشر(٨٥)

وهذا يكافىء قول أبي ذؤيب الهذلي:

وإذا المنية انشبت أظفارها
ألفيت كل تميمة لا تنفع(٨٦)

ولكن التعبير الاستعاري عند أبي ذؤيب يفوق تعبير ابن المقرب شاعرية وجمالاً، وفي قوله (أنشبت أظفارها) ايحاء بالتأهب والقسوة، كما أنها تضفي جواً من المهابة والوجل.

ويقول ابن المقرب:

وما بلغ العلياء إلا ابن حرة
قليل افتكار في أمور العواقب(٨٧)

وقد سبقه جعفر بن علبة الحارثي الى المعنى ذاته بقوله:

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة
يرى غمرات الموت ثم يزورها(٨٨)

وقريب من هذا المعنى ـ أيضاً ـ قول ابن المقرب:

إذا هم أمضى همه لو تساقطت
أكف وأقدام لذاك وهام(٨٩)

وشبيه بقول ابن المقرب، وابن علبة الحارثي قول سعد بن ناشب بن

مازن بن عمر وابن تميم:

إذا هم ألقي بين عينيه عزمه
ونكب عن ذكر العواقب جانباً(٩٠)

وإذا كان ابن المقرب قد أجاد الأداء، وبخاصة في بيته الثاني، فإنه - على أية حال - قد قصر في التصوير البياني الذي كان سلفه سعد بن ناشب بارعاً فيه.

وفي حتمة الموت يقول ابن المقرب:

وأرهب أن أموت وكل حي
سينعاه الى الأقوام ناع(٩١)

وقد سبقه كعب بن زهير الى المعنى ذاته بقوله:

كل ابن انثى وإن طالت سلامته
يوماً على آلة حدباء محمول(٩٢)

وإن كنت لا أنكر ما بين القولين من تقارب في المعنى، إلا أنني أميل الى القول بأن شاعرنا متأثر - أيضاً - بالآيات الكريمة «كل من عليها فان...»(٩٣) و «كل نفس ذائقة الموت(٩٤) و «لكل أجل كتاب»(٩٥).

ويقول ابن المقرب:

قوم هم الرأس من فهر وغيرهم
إذا يقاس الى علياهم ذنب(٩٦)

ويذكرنا هذا ببيت المدح المشهور للحطيئة:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم
ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا؟(٩٧)

فالبيتان متشابهان في المعنى، ومتقاربان في اللفظ، ومتفقان في الوزن والقافية.

ونجده يضمن في سينيته للحطيئة فيقول:

ثم اندفعت خلال القوم أسمعهم
بيت الحطيئة إذ أشفى على ياس
لقد مريتكم لو أن درتكم
يوماً يجيء بها مسحى وابساسي(٩٨)

ويقول ابن المقرب مفتخرا:

إذا السيد الجبار أبدى تعاميا
وصعر خدا واستباح حمى المطل
أضاءت له أسيافنا فهدينه
وقومنه فاستبدل الحلم بالجهل(٩٩)

وقد سبقه بشار بن برد الى هذا المعنى بقوله:

إذا الملك الجبار صعر خده
مشينا اليه بالسيوف نعاتبه(١٠٠)

فقد أدى بشار معناه بصورة مركزة وافية موجزة، أما ابن المقرب ففي قوله تفصيل واطناب يجعله الى روح النثر أقرب منه الى الشعر. وانظر الى هذه الأفعال المتلاحقة في البيت الأول (أبدى - صعر - استباح) ومثلها في تاليه (أضاءت - هدينه - قومنه - استبدل) ولكن قول ابن المقرب لم يخل من توفيق، ولا سيما في قوله (أضاءت له أسيافنا فهدينه) فالصورة جميلة وملائمة، كما أن استعماله لجمع القلة (أسياف) - بدلا بدلا من جمع الكثرة في قول بشار

«السيوف» ـ فيه اشارة من طرف خفي الى أن عملاً يسيراً يقوم به قومه الأشداء كاف جداً لارهاب مثل هذا الجبار، وثنيه عن غيه.

ويعجبه قول أبي نواس في مدح الأمين:

ملك إذا علقت يداك بحبله
لا يعتريك البؤس والاعدام(١٠١)

فيقول مادحاً الأمير محمد بن أبي الحسين العيوني:

ربع إذا ربعت اليه قبيلة
علقت بحبل من غنى وأمان(١٠٢)

فالبيتان متكافئان معنى ومبنى، ولكن في قول ابن المقرب صنعة مقصودة في التجنيس بين (ربع وربعت). ويبدو أن اعجابه بهذا المعنى قد دفعه الى تكراره في موضع آخر، فقال مادحا:

يا خير من علقت أيدي الرجاء به
ومن سواء لديه التبر والترب(١٠٣)

ويقول ابن المقرب في مدح الأمير مسعود بن محمد العيوني:

إذا لم أنط مستعصماً برجائه
رجائي وتروي ترب أرض سحائبه
فأي مليك أرتضي وتامه
ركابي وامشي نحوه واخاطبه(١٠٤)

ويساوي هذا قول أبي نواس في مدح الخصيب أمير مصر:

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا
فأي فتى بعد الخصيب تزور؟!
فما جازه جود ولا حل دونه
ولكن يسير المجد حيث يسير(١٠٥)

وربما أعجبه معنى من المعاني فيستكثر منه في شعره. فقد راقته الصورة الحسية الطريفة التي رسمها بشار بقوله:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا
سيافنا ليل تهاوى كواكبه(١٠٦)

فكررها مرارا، فقال:

غداة أتاهم في سماء عجاجة
أسنته من تحتها كالكواكب(١٠٧)

وقال أيضاً:

تريكم نجوم الليل ظهراً إذا بدت
تكدس في ليل من النقع ضارب(١٠٨)

وقال أيضاً:

والبيض في أيدي الكماة ضياؤها
يطفو مراراً في الغبار ويرسب
وكأن أطراف الأسنة أنجم
شهب وداجي النقع ليل غيهب(١٠٩)

وقال أيضاً:

ويوم تشخص الأبصار فيه
ويشبه فحمة الليل اسودادا
تخال به الأسنة لا معات
نجوم القذف تطرد اطرادا(١١٠)

أما البيت الأول والثاني لإبن المقرب فهما مسخ لمعنى بشار، وأما البيتان التاليان لهما، فهما متفقان مع بيت بشار في المعنى، ويسموان على البيتين السابقين ولكنه لم يوفق توفيق بشار في التصوير، فالصورة عند

بشار أكثر اتساعاً. أما ابن المقرب فهو يشبه مفرداً بمفرد، ولهذا فهو لم يوفق كبشار في انتزاع وجه شبه واحد لصورة تمثيلية متحدة. وكذلك البيتان الأخيران فمعناهما مكافىء لبيت بشار، ولكنهما دونه في التصوير.

كما أعجب بقول أبي فراس الحمداني:

على طلاب العز من مستقره
ولا ذنب لي إن حاربتني المطالب(١١١)

فقال:

وفي السعي عذر للفتي لو تعذرت
عليه المساعي أو جفته المقاصد(١١٢)

وقال أيضاً:

وابذلا في العز مجهود كما
لا يلام المرء بعد الاجتهاد(١١٣)

وقال أيضاً:

وإن أهلك فقد أبليت عذراً
أقوم به ولم آل اجتهادا(١١٤)

فقد أخذ ابن المقرب نفس المعنى، ولكنه قصر عن أبي فراس في التعبير والتصوير، ففي تقديم الجار والمجرور عند أبي فراس تخصيص يعلي من نبرة الفخر، وفي قوله (طلاب) ايحاء بالالحاح والاصرار، أما قوله (حاربتني المطالب) فيجعل التماس العذر له أمراً مقبولا ممكناً.

ويبدو أن ابن المقرب قد قرأ لشعراء الأندلس، كما قرأ دواوين المشارقة قديمها وحديثها، فنجد في ثنايا شعره معنى لإبن عبدون في رثائه لبني الأفطس وهو قوله:

كانوا رواسي أرض الله منذ مضوا
عنها استطارت بمن فيها ولم تقر(١١٥)

فيقول ابن المقرب:

كانوا جبالا لنجد تستقر بها
عن الزلازل ان ماجت وأركانا
حتى إذا ارتحلوا عن جوها اضطربت
وبدلت منهم خسفاً وخذلانا(١١٦)

والملاحظ أن المعنيين متكافئان تماماً، ولكن ابن المقرب يميل الى الاطناب والتفصيل، وهذه سمة عامة في شعره، ويتكرر مثل هذا المعنى عند ابن المقرب في قوله:

أضحت بك الاحساء ساكنة وقد
رجفت بمن فيها وكادت تقلب(١١٧)

وقد يأخذ مثلاً سائراً مشهوراً فيضمنه شعره، كقوله:

واستيقظوا فالسيل قد بلغ الذبى
وعلت غواربه على القريان(١١٨)

ومنه قوله:

ولكنه أمسى قتيلاً لمعشر
اذا قيل من هم قيل: بن بيان(١١٩)

وقوله:

يا راكب السدس الموار تامكة
كانه علم من فوقه علم(١٢٠)

«والمثل السائر ينتشل المعنى من تموجه وتسربه، وانتمائه الى خبرة فردية، ويؤدي بالمعنى أو الصور الى ما يسمى مستقر العرف والمعقول،

كما أن المثل السائر لا يتجزأ من التفكير العربي في الشعر، واليه يعزى قدر لا بأس به من افساد تصوراتنا وادراكنا حقائق الأشياء[١٢١].

كما أعجب ابن المقرب ببعض القصائد لمشاهير الشعراء، فعارضها ونسج على منوالها، كعينية ابن الفجاءة والتي مطلعها:

أقول لها وقد طارت شعاعاً
من الأبطال ويحك لن تراعي[١٢٢]

فقد نظم ابن المقرب قصيدة طويلة، وتخير لها نفس الوزن والقافية، واستهلها بقوله:

ردي مر الحتوف ولا تراعي
فما خوف المنية من طباعي[١٢٣]

وحين نقرأ هذه القصيدة نستشعر بروح قطري الخارجي تطالعنا في ألفاظه ومعانيه وصوره، كما لا نحس أدنى اختلاف في موسيقاهما القوية الصاخبة التي تخلع القلوب ولنقرأ هذه الأبيات من قصيدة ابن المقرب لنرى أنها تمثل توأما لقصيدة قطري:

أأحفل بالفراق وكل شعب
تصيره المنون الى انصداع
وأرهب أن أموت وكل حي
سينعاه الى الأقوام ناع
وأخشى الفقر والدنيا متاع
وربي بالكرام أبر راع
دعيني أركب الأهوال إني
رأيت ركوبها فيه اندفاع

فما للمرء خير في حياة
إذا ما عُد من سقط المتاع[١٢٤]

ولا يخفى أن البيت الأخير ـ كاملاً ـ تضمين من قصيدة قطري التي أشرنا اليها. ولكن قارىء ديوان ابن المقرب لا يحس أن هذه القصيدة تمثل نغماً نشازا بين قصائده فقد ارتفع فيها ابن المقرب الى قطري بالاتكاء على قصيدته، وجاءت قصيدة شاعرنا منسجمة تماماً مع طبعه ونفسه، كما أنه استطاع أن يطبعها بطوابعه، ويلقي عليها ظلاً من نفسه وفنه، وأن يجعل منها عملاً فنياً ذا شخصية مستقلة، لا يعيبه أن يتمثل تجربة سابقة.

كما تأثر ابن المقرب بروح قصيدة أبي تمام والتي مطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب[١٢٥]

وذلك حين نظم بائيته التي مطلعها:

بيني فما أنت من جدي ولا لعبي
مالي بشي سوى العلياء من أرب[١٢٦]

وقد نجد تشابهاً بين بعض أبيات القصيدتين، كقول ابن المقرب:

الضاربي الهام في يوم تخال به الشمس
المنيرة قد غابت ولم تغب[١٢٧]

فهذا القول يماثل قول أبي تمام من بائيته:

فــالشمس طــالعـــة من ذا وقــد أفلت
والشمس واجبـــة في ذا ولم تجب(١٢٨)

فإبن المقرب ـ كأي شاعر آخر ـ قد تأثـر بأسـلافــه من فحـول شعـراء العربية، بعد أن قرأ أشعارهم ووعاها، وقد أسهمت هذه القراءة أو الاحاطة ـ دون شك ـ اسهامـاً حسناً ملحوظاً في تكوين شاعريته، وفي تحديد أبعادها.. ولكن ذلك كله لا يعيب قـدر شاعـرنا، فتلك سنة الشعـراء منذ قـديم العهد.. وإن وجود بيت أو بيتين في قصيدة أو في عدد من القصائد سبقه الى معناه أو معناهما متقـدموه لا يعني ـ اطـلاقـاً ـ ضعفـاً في شـاعـريتـه، ولا فتـوراً في تخيله، وإنما هي سنة الفكـر مع الأيام ومع المنـاسبـات، ولم يسلم منهـا شاعر، ولم يخلص منها مفكر(١٢٩).

كما نـلاحظ أن المعـاني والصـور التي أخذها، هـي من المعاني والصور الهامة التي تلتقطها الـذاكرة باهتمام، وتصهرهـا، وتختزنها لتصبـح جزءا من لا شعور الشـاعر كما لاحظنـا أنه قد تفـوق في بعض تلك المعاني، وقصر في بعضها الآخر، وجاء سائرها مكافئاً لمعاني متقـدميه ممن أخـذ منهم وهنا تجدر الاشارة الى أن ابن المقرب ـ على كثـرة من أخذ منهم ـ ليس من أدبـاء الذاكـرة، ممن يتمحلون القـول اعداداً وتمهيداً لمعنى محفــوظ مكـرور، أو ممن لا يقوون على الوقوف أو الحركة إلا متكئين على غيرهم، فأكثر ما جاء في شعره من معاني سابقيـه، كان عفوياً ولم يقصـد اليه عن عمـد إلا في القليل النادر، كما يجب ألا ننسى ما جاء منها من قبيل تـوارد الخواطر بين الشـاعر وسابقيـه بحكم مرور الأيام وتشـابه المناسبـات. كما ينبغي ألا نغفل حقيقة لها أهميتهـا في هــذا الصـدد وهي أن الشعر العربي «لم يتغير في مـوضوعه ولا في صورته ولا في نوعه، ولم يتغير في لفظه ومعنـاه إلا تغييراً قليلاً جـداً، فقد بقيت القصيدة معتمدة على وحدة الوزن والقافية، معنيـة بوحدة المعنى، وبقي موضوع الشعـر كما كان مدحاً وهجـاء ورثـاء وغـزلا، وانما تحددت هذه الموضوعات دون أن تتغير(١٣٠).

ولكننـا نعيب على شـاعـرنـا ذلك النوع البغيض من النظم ـ وهو قليل ـ الذي دفعه اليه تقليـده الأعمى لشاعر العــربيـــة الأكبر أبي الطيب المتنبي والذي لم يسلم نظمه ذلك من نقد.

قيم التصوير التقليدية

يكاد يجمع نقـادنا المعاصرون على «أن الشاعر لا يعيش حياة منفصلة عن الماضي، بل يستأنف حياته في نفس الـدروب التي سلكهـا أسلافـه، وقـد أخـذه التعب والنصب، وفي بـاطنـه حافز يحفـره على تحمل كل المشقات،

وتجشم كل الصعاب».[١٣١] وانطلاقا من هذا الادراك فقد وجدوا لزاماً عليهم أن يعيدوا النظر في قضية السرقات الأدبية التي أثارها نقادنا القدامى، فأخذوا يتصيدون ما أخذه الشعراء المحدثون عن سابقيهم، ومعاصريهم، مغفلين أن هذا التأثير مرده الاطار الثقافي الواحد الذي أخذوا منه، «فمن الطبيعي أن يتشابه الشعراء مادام اطارهم الثقافي يكاد يكون واحداً»[١٣٢]. وليس معنى هذا أن نبيح للشاعر أن يكون نسخة مكررة من سابقيه، لا يقوى على الوقوف أو الحركة دون أن يتكىء على تراث أسلافه «فاتكال الشاعر على السرقة بلادة وعجز، وتركه كل معنى سبق اليه جهل، ولكن المختار أوسط الحالات»[١٣٣] وأوضح من هذا قول الدكتور أحمد الشايب: «ان الاثار العلمية والفنية التي نتمتع بها الان ثمرة الجد الانساني المتواصل من بدء الحياة لم ينفرد بأكثرها جيل وحده، بل تحمل طوابع الاجيال الغابرة ومن حق كل طبقة أن تستغل نشاط سابقتها، وتضيف اليه ما يمثل شخصيتها وتاريخها الخاص تمثيلا موضوعيا أو شكليا»[١٣٤].

لقد لاحظنا في تناولنا لقيم التعبير التقليدية عند شاعرنا أنه قد صدر في انتاجه الفني متأثرا باطار ثقافي واسع يمتد قرابة سبعة قرون، لذا وجدناه يتأثر بالكثير من قممنا البواذخ في عالم الشعر على امتداد عصورنا الادبية، وحين نمعن النظر في صور شاعرنا الفنية، نجد أنه يصنعها وفق نمط قديم موروث أرسى قيمة شعراؤنا الأول. وليس هذا مدعاة للدهشة نظرا، لثبات الأغراض التي طرقها شعراء بني العباس، كما طرقها، أسلافهم، ونجم عن هذا الثبات استمرار الشكل النمطي الفني، مما ساعد الشاعر على الاستمرار - دون حرج - في نقل صور القدماء ابتداء في ذلك من اعتماده على صورة الطلل في مقدمة القصيدة، وانتهاء بدوافعه الشعرية الى أغراض بعينها[١٣٥].

لم ينحرف ابن المقرب كل الانحراف عن الفواتح التقليدية للقصيدة العربية، ولا أهملها كل الاهمال، فانه تمسك ببعضها، وردد كثيرا من معانيها وصورها، شأنه في ذلك شأن أسلافه ومعاصريه من شعراء العصر العباسي. ويجدربنا الوقوف على المعالم التراثية في تلك الصور التي استهل بها قصائده، فراح يستوحي في بعضها الصورة القديمة ليعيد رسمها في شكلها النمطي الذي يصف فيه الاطلال ورسوم الديار. ومن بين صور ابن المقرب في مقدمات بعض مدائحه قوله:

سـائل ديـار الحي من مـاوان
مـا أحدثت فيهـا يـد الحدثـان
واطل وقـوفك يـا أخي بـدمنـة
قـد طـال في أطـلالها ادمـاني
كـانت جنانـا كاالجنـان فاصبحت
للـوحش مـوحشـة وللجنـان
لما وقفت العيس في عـرصـاتها
ذهب العـزاء وأقبلت أجفـاني
وذكـرت أيـامـا خلـون وأعصرا
ذكـرى لهن لسلوتي أنسـاني(١٣٦)

يرسم الشاعـر في هذه الابيات صورة نمطية للأطـلال، التي عفت رسومها، وغدت مـوحشة بعـد أن كانت تفيض بالحياة، وأصبح الوقوف بها مستثارا لاشجانـه، ومبعثا لـذكريـاته الطيبـة فيهـا مستعينا على رسمهـا بأدواتـه الفنيـة كـالتشبيـه «كـانت جنـانـا كالجنان» والتشخيص» أحـدثت فيها يد الحدثان» و «ذهب العزاء».

كما استطاع أن يستغل البـديع بشكل فني في تشكيل الصـورة، فـالي جـانب الصـورة البصريـــة، تأتي الكلمات متناغمـة في صورة الجنـاس «جنانـا، وجنان» وقد يعمد إلى التلاعب الشكلي بـالألفاظ «أحـدثت، حدثـان ـ دمنـة، إدمان ـ وحش، موحشة» كما يعمد إلى التلاعب بفعل «طال» فيأتي به ماضياً وأمـراً، مجانسـاً بينهـا وبين كلمـة أطـلال، هذا بـالإضـافة إلى استغـلال الطبـاق في رسم الصـورة في قـولـه «ذهب وأقبلت» والطبـاق ـ كما نعلم ـ يهب الألفـاظ القـدرة على الأداء الفني للصـورة، فيطـابق بين متنـاقضـات الصورة الجزئية. ومن الألوان البعيدة الأخـرى التي استعـان بهاالشاعـر في تشكيل صـورتـه «رد العجـز على الصدر» كما في البيت الثاني.

ثم يوالي ابن المقرب استكمال جوانب الصورة الطللية، فيصوّر لنـا ذكرياته المثارة فيقول:

وكـواعبـاً بذوي العقـول لـواعبـاً
بيض الخدود نـواعم الأبـدان
من كل خـرعبـة تُـريك إذا بـدت
بـدر الـدُجنّـة فـوق غصن البـان
وإذا تــراءت للحليم رأيتــه
في فتنـة من طـرفهـا الفتّـان(١٣٧)

فـالشاعـر يرسم لنـا من خلال هـذه الأبيات صـورة غزليـة تراثيـة، كانت تتداخل عند الشاعر القديم مع صوره الطللية، وقد امتد تقدير الموروث عنده إلى احتذاء مضـامين السابقين أيضـاً، فاستعار منهم صفـاتهم الحسية التي كانت تـروقهم في المرأة، ويستعين على تشكيل هذه الصورة بالتشبيه الجاهز كما في البيت الثاني، وباستغلال ألوان البـديع الصـوتي كما في التجنيس بين «كـواعب ولـواعـب» وتكـرار حـرف «النون ـ روى القصيـدة ـ في عدد من الكلمات في عجـز كل من الأبيـات الثلاثة، وتكرار حـرف «الفاء» في عدد من الألفـاظ المتلاحقـة في عجـز البيت

الأخير، والإعتماد على التقطيع الصوتي كما في الألفاظ «كواعب، لواعب، نواعم» و «العقول، الخدود»، ويمثل التشكيل الصوتي في حالتي الحقيقة والمجاز، سواء جرس الكلمات أو نغم التركيب بأسره أو موسيقى البيت في الشعر، عنصراً له خطره في رسم الصورة، وإبرازها وخلق عوامل التأثير لها(١٣٨).

ومن بين صور ابن المقرب الطللية في مقدمات بعض مدائحه صورة الإستعداد للرحيل والفراق، وصور الظعائن، كقوله في القصيدة ذاتها:

لم أنس يوم البين موقفنا وقد
حمَ الفراق وفاضت العينان
وتتابعت زفرات وجد لم تزل
منها القلوب كثيرة الخفقان
بانوا وكنت أعدهم لي جنة
فبقيت بعدهم بغير جنان
قرن الاسى بجوانحي لما بدت
اظعانهم كالنخل من قران
اقوت مغانيهم وكانت حقبة
مأوى الحسان وملعب الفتيان
ومناخ ممتاح النوال وعصمة
للخائفين وملجأ للجاني(١٣٩)

فالشاعر يحدثنا عن انفعالاته وقد أزف رحيل الأحبة، ثم ينتقل الى صورة أخرى وقد ابتعد ركب القوم، فبدت أظعانهم وكأنها النخل، فغدا الشاعر طائر اللب والعقل، قرين الهم والا لم. ويشكل لنا الصورة هنا من عدد من الصور الجزئية، كالتشبيه في «كنت أعدهم لي جنة» و «بدت أظعانهم كالنخل» وهي صورة بلاغية تقليدية موروثة، وكالتجسيم في قوله «قرن الاسى بجوانحي»، كما يستعمل بعض ألوان البديع فيحسن التخلص من صورة الطلل الى صورة الممدوح، لنحس أنها نقلة طبيعية أجاد فيها ربط الصورتين.

كما استعان برد العجز على الصدر كما في البيت الثالث وتاليه.

ومن بين صوره الطليلة النمطية قوله مفتتحا كافيته:

أمن دمنة بين اللوى فالدكادك
شغفت بتذراف الدموع السوافك
عفت غير آرى وأورق حائل
واشعث مشجوج وسفع روامك
ونؤى كجذم الحوض غير رسمه
وجيف الحصا بالموجنات الحواشك(١٤٠)

يحدد الشاعر في هذه الصورة ديار الأحبة العافية، ويصف ما ألم بها من تغير بفعل الرياح الشديدة والتي لم يصمد ازاءها الا اليسير من معالمها، وقد استعان على رسمها بالتشبيه الحسي كما في البيت الثالث، وبعض ألوان البديع، فيعمد الى التلاعب الشكلي بالالفاظ المشتركة في حرف معين «كالشين» في «أشعث ومشجوج» و «الجيم» في «جذم، وجيف، وموجفات» و «الحاء» في

«حـوض، حصـا، حـواشك» ويحقق الشاعر من خلال هذا التلاعب الشكلي بالالفاظ ثراء موسيقيا للصورة.

ويبدو من هـذه الصورة أن تقدير الشاعـر للتراث قد امتـد الى لغة الأسلاف. فاستعار مفرداتهم الوعرة في تشكيل، صـورتـه، مما حـال دون تمام الاستمتاع بـالصورة السمعية التي أشرنا اليها.

ونجد أن الشاعر لايطيل الوقوف بأطلاله فيتحول الى صورة أخرى لها صلـة بسـابقتهـا، وهي صـورة الاستعداد للرحلة، فيقول:

كـان فـؤاد ي نـاطـه ذو سخيمـة
قليل التحني في صـدور النيـازك
غـداة تداعي الحي بـالبين بعدمـا
جلا الصبح أعجاز النجوم الدوالك(١٤١)

ويخرج من هـذه الصورة الى صـورة النـاقـة التي تعد مكمـلا لصـورة الاستعداد للرحلة فيقول:

وقـد قـربـوا للبين كل همرجل
أمون القـرى ضخم العثانين تـامك
قمطـــــر ددرفس فيسرى كـانما
منـاكبـة جللن وشـى الـدرانك
رعي واجفا فالصلب من اجمل الغضا
بحيث استهلت كل وطفاء رامك(١٤٢)

ولا يخفي أنه يترسم خطوات أسلافه في تشكيل هـذه الصـورة النمطيـة، سالكا نفس الدروب وكأني به يحاذر أن يجاوز تلك الصور التي أرسـوها، لكنـه لم يكن طـويل النفس في تشكيل صورة الناقة، بل لايميـل شاعرنا الى رسم الناقـة الانادرا، وربما كـان علة ذلك انشغاله بالفرس أكثر من الناقة.

ويخرج ابن المقرب من صـورة الناقة إلى صورة غزلية تراثية، اعتاد القدماء أن يأتـوا بها في صـدور مـدائحهم استكمالاً للصـورة الطللية الموروثـة، فيقول:

وفي الجيرة الغـادين لا عن مـلالـة
ظبـاء على تلك الهجـان البـوائك
خـمـاص الحشا حُمَ الشفـاة كانما
يلُثن مروط العصبِ فـوق العوانك
ويبسمنَ عن نـور الأقاحيَ لم يـزل
يُغـذَى بـدرات الذهـاب الـركـائك
وفيهن من ذُهل بـن شيبـان غـادة
يطيّب ريـــاهـــا عبير المداوك
كـان على فيهـا سُـلافـة قـرقف
وقـد غُـوّرت أم النجـوم الشـوابك

لقـد حملت تلك النوق حبيبـة الشاعـر ورفقتهـا وكأنهن ظبـاء، دقيقـات الخصـور، لعس الشفـاه، يأتـزرن بأكسيـة من صوف على أعجـاز كأنها مـرتفعـات الـرمل، ويبسمن فيبـدين زهـر الأقاحي، ويـركز الشـاعر آلتـه المصوّرة على تلك الحسناء التي يكنّيها على عـادة أسلافـه، ويكتفي بـالتلميح دون التصريح باسمهـا، واصفاً طيب رياها، أما فمها فكأن عليه آثار تعاطي الخمرة لجمال لونه، وطيب رائحته.

ويستعين على تشكيل هـذه الصـورة بالصور الجزئية، كالصور التشبيهية

التقليديــة في البيت الأول وتــاليـه، والصــور الإستعـاريــة «ويبسمن عن نور الأقاحي».

ويبدو حس الشاعـر التراثي من خلال هـذه النماذج التـي عـرضنـاهـا من صوره الطللية، ومدى تأثـره بالنمط الموروث عن الأسـلاف، أما قصـائده التي استهلهـا بمثل هـذه الصــورة التراثية فهي لا تزيد على أربع قصائد:

الأولى: قالها في مـدح الخليفة النـاصر لدين الله، ومطلعها:

أرتها المآقي مـــا تكنّ الجوانح
فبُح فالمعنّى بالصبابة بائح (١٤٣)

والثانية: قـالها في مدح الأمير العيوني أبي ماجد محمد بن علي: (١٤٤)

أمِن دمنـة بين اللــوى والـدكـادك
شُغفت بتذراف الدموع السـوافك

والثالثة: قـالها في مدح الأمير العيوني فضل بن محمد:

مـا أنصف الطلل العـــافي بما وأنـا
لم نُشجه يوم سلمنا وأشجانا(١٤٥)

والرابعة: قالها في مدح الأمير العيوني محمد بن أبي الحسين:

ســائل ديــار الحي من مـاوان
مـا أحدثت فيهـا يد الحدثـان(١٤٦)

ونخلص في تحليلنـا لصــورة الطلل وصور الظعائن إلى أنه قـد استوحاها من التراث، والشـاعـر في مثل هـذه الصـور التراثيـة لا يصـدر فيهـا عن ذاتـه، وإنما يصدر فيهـا عن الصنعـة والتقليد والمحـاكاة، أمـا صـور الطلل عنـد القـدمـاء فلها عـلاقـة مبـاشرة، بوجدان الشاعر، وتنـازعه مع ميوله وعـواطفـه، لما يستثيره في نفسـه من ذكـريـات تـوافق طبيعــة تجربتـه الشعرية، بل ان مـوضـوع الطلل يكاد يكون الموضوع الوحيد الذي يباشره الشـاعـر بوجـوده وعـاطفتـه، بينما اقتصر على مباشرة ســائر المواضيع بحدقة حسه التي تنعكس على الاشياء انعكـاسـا دون مشـــاركـة ذاتيـة أو وجـدانيـة، فـالطلل يمثل لـه تجربـة البراح والحنين والندم»(١٤٧).

أما صورة الممـدوح النمطية فقد انكب شعراء العصر العبـاسي عليها ينهلـون مادتها من التراث، واذا ببعضهم يكرر البعض الآخر في نقلها أو التوليد فيها، واستعـان الشعـراء بألـوان الصنعـة محـاولين بهـا ــ في أغلب الاحيان ــ أن يغطوا مـالديهم مـن فتور في العـاطفة والاحساس، فمالوا الى المبالغة في خلع الصفــات المثـــاليـــة المطلقــة على ممدوحيهم، وانتهـوا الى توليـد صور ذات أبعاد فنية متشـابهة، حتى لانكاد نجد فرقا يميز ممدوحا عن آخر «فلكل أمير صفات فـائقة في الحرب والشـدة والبأس والكرم، ولكل عالم بحر زاخر من صفـات المعرفة والعقـل، ولقد زاد الاقبـال على المدح لأنـه سبيل الـرزق، ولان العظماء في حاجة اليـه بسبب ما

قــام بينهم من تنــافس، وقــد بلغ الغلوفيـه حدا مقيتـا»(١٤٨). ولنستمع الى هــذه الابيـات من قصيــدة لابن المقرب يمدح بها الأمير العيوني فضل بن محمد فيقول:

ورجـاى في فضل الندى بن محمد
ادراك مــا في النفس من حـاجـاتها
الســابق القــوم الكــرام الى العلى
سبق المبرز في مـــدى حلبـــاتها
والـواهب الهجمات عفــوا واللهـا
في عـامهـا الاحــوى وفي لـزبـاتها
والمكـرم الجارات عن شر الخنــا
ان دبت النـــوكي الى جـــاراتها
والقـائد الجرد العتـاق الى الـوغي
يخرجن كـــالعقبـــان تحت كماتها
والطـاعن الفـرسـان كل مـريشـة
مخلـــوجـــة والخيل في لبـــاتها
والخائض الغمــرات حتى ينجلي
بحسـامــه مـا ثـار من هبـواتها
والســالب الملك المعظم تــاجــه
ومـذيقــه المكروه من كـاسـاتها
والـواصل الــرحم التي أوصى بها
ذو العــرش في الآيات من سـوراتها
يا ابن الذي خضعـت له وتضاءلت
شـوس الاســود الغلب في أجماتها
أجـرى نـزارا كيف شـاء ويعـربـا
بـــالكـره من مــرادهـا وعتـــاتها
مــا حــاربتــه قبيلــة الا غــدت
أحيـاؤهـا وفـدا على أمـواتها(١٤٩)

لم يخرج شـاعـرنا في هـذه الابيات عن الصــورة الموروثــة والمكـرورة، التي تطــالعنـــا في دواوين أســـلافـــه ومعــاصريــه، فممـدوحــه سبـاق الى المعالي، كــريم، عفيف، لا يتطلع بسوء الى جارته وقائد شجاع يفتك بالملوك، والى جـانب هـذه الصفات والاخـلاق الموغلـة في القـدم، يخلع عليـه صفـة اسلامية وهي صلة الـرحم. فالممدوح كما نلاحظ - شخصية تتحلى بصفات مثـاليـــة يغلب عليهـا طـــابع التعميم والتجريد. ويتوسل الشاعر في تشكيل هــذه الصــورة، بـالصــور البــلاغيـة الجزئية كالتشبية كما في قوله:

والقـائد الجرد العتـاق الى الـوغى
يخرجن كـــالعقبـــان تحت كماتها

والتجسيم في قوله «ومـذيقه المكروه» كما يستغل بعض ألوان البـديع بشكل فني في تشكيـل الصـــورة، فيلجأ الى التــلاعب الشكلي بمشتقـــات الفعل «سبق» كما في البيت الثـاني، ويعتمـد على التـلاعب الشكلي في تتـابع كلمتى (شـوس والاسود) المتشـابهتين — في حـرفى الواو والسين، كما يعمـد الى رد العجـز على الصـــدر كما في (الجارات وجـاراتها)، ومن ألـوان البـديع التي استغلهـا المطــابقــة بين (أحيــائهـا وأمواتها).

وتأتي صـورة الممدوح في الكثير(١٥٠) من مدائحه بعد التقـديم لها بالصورة الغزليـة كما صنع القـدماء، فقـد كان القسم الاعظم من الشعـراء يبتـدئون بالغزل، ثـم يستطردون منه الى المدح، ومن بين تلك الصــور الغــزليـة التي

قدمها ابن المقرب بين يدي مديحة قوله في مدح الامير العيوني حسن بن مسعود:

أراه الهوى ما لم يكن في حسابه
فاقلقه عن صبره واحتسابه
ولا تؤلماه بالملام فانه
يثير جواه واتركاه لما به
أعيذ كما من وجده وغرامه
ولوعاته يوم النوى واكتئابه(١٥١)

ويواصل تشكيل صورته التقليدية في عدد غير قليل من الأبيات يجاوز الإثني عشر بيتاً، ويخلص من صورة النسيب إلى المدح في خفة ورشاقة، فيقول:

رعى الله أيام الشباب فإنها
هي العمر يا طول الأسى باستلابه
وجاد ديار الحق من أيمن الحسا
مُربٌ يواري الهضب داني ربابه(١٥٢)
كجود ابن مسعود الفتى الواهب اللهى
ومخجل منهل الحيا في انسكابه

وهو كغيره من شعراء بني العباس يضفي على المديح ـ احياناً ـ طابع الحماسة والدين والسياسة إلى جانب المديح الخالص، وقد بدا هذا جلياً في مدائحه لخلفاء بني العباس، ولنستمع إليه مادحاً الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ)، إذ يقول في بني العباس:

تخيركم رب العلا واصطفاكم
وطهركم من كل ذمّ وذائم
وآتاكم فصل الخطاب ومحكم الـ
كتاب وملكاً زاهياً غير زائم
فاوضحتم سُبل الهدى وكشفتم
عن الحق أغشاء العمى المتراكم
وقوّمتم بالسيف من مال خدّه اصـ
ـعراراً ولم يشمخ بانف لخاصم
فكم هامة للكفر راحت وهامها
نعالاً لأيدي خيلكم في الملاحم
فقل لدعاة الشرق والغرب اقصروا
وكفوا وإلاّ تقرعوا سنّ نادم
فما الحق إلاّ دعوة هاشميّة
هي الحق لا دعوى غوى وغاشم
بها أصبح الإسلام في كل موطن
ينوء بركن منه عقد الدعائم
أقام له في كل ثغر كتائباً
ترى الشرك من شدّاتها في مآتم
تبيت طواغيت النّفاق لهمّه
كأن حشاياها ظهور الشياهم
تُقلّبها جنباً فجنباً مهابة
ثوت واستقرت بين تلك الحيازم
فإن هومت أهدت لها سنة الكرى
سراياه تردي بالقنا والصوارم
فتُزعجها حتى كأن قد أصابها
من المسّ ما لا يُتّقى بالتمائم
فليس لها في نومها منه راحة
إذا النوم سلّى الهمّ عن كل نائم (١٥٣)

فالشاعر يرى أن بني العباس مصطفون من الله، مطهّرون من كل عيب، منّ الله عليهم بنزول الكتاب على بني هاشم، فأحسنوا حمل الأمانة، والذود عنها، ونشرها بشتّى الوسائل، ويؤكد الشاعر للمشككين في أحقيّة العباسيين بالخلافة أنها حق لهم لا مراء فيه. فقد استطاعوا أن يقيموا دولة إسلامية عظيمة، وحموها

من مطامع المشركين، بل لقد أوقعوا الهم في نفوسهم، وأورثوهم القلق حذر الفتك بهم في كل لحظة.

فابن المقرب في هذه الأبيات يعيد على مسامعنا أصوات شعراء الأحزاب السياسية والفرَق الدينية التي شهدها عصرا بني أمية وبني العباس، حين كان الشعراء ينافحون عن زعمائهم السياسيين والدينيين، فيمزجون في مدائحهم عناصر الدين والسياسة والحماسة معاً.

وتطالعنا في صورة الممدوح صورة نمطية أخرى، وهي تصوير مصاعب الرحلة الى الممدوح، وقد جرت العادة لدى شعراء المديح أن يلحوا على هذه الصورة، استدرارا لعطف ممدوحيهم، فوصفوا ما انتابهم من نصب، وما اعترض سبيلهم من أهوال.. وغدت هذه الصورة من المقومات الفنية التي لا غنى عنها في قصيدة المدح عند المتأخرين، ومثل هذه الصورة التراثية قول ابن المقرب مخاطبا بدر الدين لؤلؤا صاحب الموصل:

اليك طوت يابا الفضائل وامتطت
بي البعد همات النفوس الكرائم
فكم متن ساج تحت ساج قطعته
على ظهر ساج غير واهي العزائم
وكم جبت من خرقا تموت بها الظبا
بعزمه مضاء على الهول حازم(١٥٤)

فقد دفعته همته العظيمة لقطع المسافة الشاسعة الى ممدوحة، فركب البحر تارة، وتارة أخرى اعتسف الفيافي الموحشة التي تموت فيها الظباء لقلة مائها وشدة حرارتها.

ويبدو من هذه الصورة تكلف الشاعر للصنعة، وقصده اليها، مما أفسد عليه الصورة، وألغز المعنى، فتكرار كلمة «ساج» ثلاث مرات في البيت الثاني، له أثره في تشكيل الصورة السمعية في الأبيات، ولكن ورود هذه الكلمة كل مرة بمعنى مختلف، يكلف سامعه شططا، ويجشمه عناء كبيرا في فهم معانيها، ويقف حائلا دون مضي المتلقي في تذوق الصورة، والصنعة هنا صنعة لفظية لا وظيفية فنية لها.

وقد يبالغ في تصوير ما أصابه في رحلته الطويلة الشاقة فيقول لمدوحه:

افنيت زادي ومركوبي وشيبني
على عتو جنابي الخوف والوجل
وقد بلغت الجناب الرحب بعد وجى
وليس إلا على علياك متكل(١٥٥)

ولم يبلغ ممدوحه حتى حفيت قدماه، فكأن الشاعر يلزم ممدوحه – على الأقل – بتعويضه خسائر الرحلة اليه. وهكذا سلك ابن المقرب دروب سابقيه في رسم صورة الممدوح، وتصوير متاعب الرحلة اليه، وكانت

الصـورة الأخيرة، تأتي - غالبـا - في ختـام مدائحـه، وقـد يأتي بها - على عادة أسـلافه - في استهلال مـدائحه، ملحـا عليهـا كقـولـه في مـدح الأمير العيـوني أبي على محمـد بن أحمد بن محمد بن الفضل.

لذا اليـوم أعملت القلاص العيـاهلا
وأبقيتها تحكي الحنايا نواحلا(١٥٦)
لذا اليوم كم نفرت عن زغبها القطا
ونبهت ذؤبـان الفـلاه العـواسـلا
لذا اليوم كم من حـوت بحر ذعرته
وكم رعت ليثـا أعمل النـاب باسـلا
لـذا اليـوم كم جـاث بغاب أثرتـه
وغادرت هيقا يمسح الأرض جافلا
لـذا اليـوم نكبت الجزيـرة راجعـا
واربل لم أعطف عليهـا وبـابـلا
لـذا اليوم فـارقت اختيـارا أحبتي
وأهل ودادي والملـوك الأفـاضـلا
فكم خضت رجوى اليوم من لج مزبد
يظن اصطفـاق الموج فيـه مشاعـلا
وكم جبت من موماة أرض ترى بها
مع الآل حق العين والأذن بـاطـلا
تخال بها الحربـاء في راس جـذلـه
شبيحا من البدوان للعرض مـاثلا
وتحسب فيهـا الثعلبـان مجدلا
من الخيل إذ تعلـو كثيبـا مقابـلا
وان عرضت فيها الـرئال حسبتها
بخـاتي تحملن الـروايـا قـوافـلا
وحي عـدى طـالما نـذروا دمي
فلـو ظفروا بي عممـوني المناصـلا
تخطيتهم هـدءا من الليـل بعدمـا
تنكب حـادي النجم للغـرب مـائلا
ولـو لم أمني النفس في كل سـاعـة
بذا اليوم لم تعدم من الهم قاتلا(١٥٧)

يصـور لنا الشاعـر في هذه الأبيات رحلـة العـودة من شمال العـراق الى الاحسـاء، حيث ممدوحـه، وكيف عبر الفيافي يحث قلـوصه منفـرا القطا عن زغبها، منبها ذئاب الفلاة، ثم يستطرد الى تصـويـر عبـوره البحـر، ولكنـه سرعـان ما يعـود الى فلواتـه مروعـا أسودهـا ووحشها، مـزعجا نعـامها، ويلتقط أنفاسـه برهة ليصـور وداعه لأحبائه في العراق، ثم يلح على صورته فيصـور البحـر الهائج الـذي ركبـه، والمفـازة المهلكـة التـي عبرهـا والتي تستحيل الحقـائق فيهـا الى أوهـام، فيظن سالكها الحربـاء وقد علت أصل شجـرة كأنها بـدوى مشبـوح، كما يتوهم الثعلب فيها فـرسا قويا ويظن النعـام إبـلا خـراسـانيـة قـد حملت مـزادات الماء.. وأشـد من هـذا وذاك هولا تخطيه لأحياء أعدائه ممن نذروا دمه.

وقـد استعان الشـاعـر في تشكيل صورتـه بعدد من الصـور التشبيهية كقـولـه «يظن اصطفـاق الموج فيـه مشاعلا» والتشبيهـات التمثيلية التي يجد فيها وسيلـة فنية مناسبـة لرسم مشاهد الصحـراء واستكمال خطوط الرحلة الى المـدوح، كقوله «تخال بها الحربـاء.. مـاثـلا» و«تحسـب فيهـا الثعلبان.. مقابـلا» و«ان عرضت فيها

الـرئال.. قـوافـلا»، والصـورة الاستعارية «عمموني المناصلا».

ولا يخفى مدى تقديرا لشاعر للتراث في هذه الصورة، ولا سيما في الصور الجزئية التي رسم بها مشاهد الصحراء التي عبرها الى ممدوحه.

كما استغل ابن المقرب بعض ألوان البديع في تشكيل صورته، فنجده يتلاعب بحرف «الحاء» فيكرره في ثلاث كلمات متتابعة في عجز البيت الأول «تحكي الحنايا، نواحلا»، ويعتمد أحيانا على التقطيع الصوتي كقوله «نفرت، نبهت» كما يعمد الى تكرار «لذا اليوم» في مستهل عدد من الأبيات المتتابعة ليشكل صورة سمعية تجاور صورته البصرية في الأبيات. ومن ألوان البديع التي استغلها في تشكيل صورته المطابقة بين «حق وباطل».

ومما يلاحظ على تصوير متاعب الرحلة الى الممدوح عند شاعرنا، تجاور صورة رحلة البر، وصورة رحلة البحر. ولا نستبعد أن رحلاته من الاحساء واليها كانت تتطلب منه أن يركب البحر تارة، ويعتسف الصحراء تارة أخرى، لذا تجاورت الصورتان. ومن بين تلك الصور المتجاورة قوله:

كم جبت دونك من تيه وحاويه
يشكو الكلال بها النجاءة التعب
ومزبد يتراءى الموت راكبه
سلامة المتخطيه له عجب
وكم طرقت رجالا ينذرون دمي
أسقيتهم علقما غصبا له شربوا
كم قلت للنفس إذ لج الهلوع بها
وكالدماء دموع العين تنسكب(١٥٨)

وبعد العصر الجاهلي عرفت قصيدة المديح صورة الممدوح الذي ينشر العدل ويحمي رعيته وأرضه، كقول ابن المقرب في مدح شمس الدين باتكين:

أرضي إله العرش في خلقه
مذولي الأمر وأرضي الإمام
عف فما بات أخو ثروة
يلصق منه صدره بالرغام
كم رد من حال مخيف وقد
صار من الهم كذات الوحام
إذا ما رأى ما نال اخوانه
من البلايا صاح صمي صمام
فظل منكبا على وجهه
وذاب غما وتمنى الحمام
منذ تولى لم يبت مسلم
منه على نعمته ذا اهتمام
راش ذوي الفقر وأحياهم
واحترم المثرين أي احترام(١٥٩)

ونلاحظ الى جانب الحس التراثي في صورة الممدوح هذه، أنها صورة تقريرية مباشرة، كما ان الصنعة البديعية التي استعان بها في تشكيل صورته لا تخرج عن كونها صنعة لفظية زخرفية لا تؤدي أية وظيفة فنية، كالتلاعب بالألفاظ «صاح،

صمى، حمام» المشتركة في حرف «الصاد» وتكرار كلمة «احترام» التي أشاعت روح النثر في أبياته.

كما تتكرر في مدائحه صورة الممدوح الذي يشبه الجبال في رزانته، كقوله:

ملوك هم الشم الرواسي رزانة
إذا ما استخف الحلم حق وباطل(١٦٠)

ومثل هذه الصورة قوله مادحا بدر الدين لؤلؤا:

فقد عهدتك طودا ما تزعزعه
نكباء عاد فكيف القيل والقال(١٦١)

وقوله مادحا راثيا معا:

ان كان ذاك العرش ثل فقد رسى
في إثره علم من الأعلام(١٦٢)

وطالما تغنى الشاعر العربي بحرص ممدوحه على عرض جاره، وعفته عن التطلع الى جارته، ونجد هذه الصورة التراثية في مدائح ابن المقرب ومنها قوله:

وتبيت جارته ولم يرفع لها
كسرا بعلة قائل متضلل(١٦٣)

وقد عرفت صورة الممدوح في الشعر العربي عموما بتركيزها على جانب العطاء والكرم. وابن المقرب كأسلافه يجعل ممدوحه – في صورة الكرم – يهين ماله ويهيله على سائليه، وقد علت محياه ابتسامة الرضى، ومنه قوله:

ترى الجود والاحسان فيه غريزة
وطبعا به ساد الورى لا تكلفا
وما ذاك إلا أنه هان ماله
عليه فأعطى بابتسام وأضعفا
يهيل على سؤاله من نواله
اذا ما الجواد الغمر كال وطففا
ضحوك اذا ما العام قطب وجهه
عبوسا وخوى كل نجم واخلفا(١٦٤)

فالجود طبع في ممدوحه لا يتكلفه، فهو يهين ماله، فيهيله على سائليه مبتسما راضيا، وفي سنى المحل تتهلل أساريره وكأنه يسعد بدوره في تفريج الأزمات وتنفيس الكرب، ومع أن الاسلام قد أبقى على الكثير من عادات العرب بعد أن هذبها وقننها، لكن شعراءنا أبوا ألا أن يكون الكرم اسرافا وتجاوزا لحدود الاعتدال والتوسط في الانفاق، الى الحد الذي أصبحت فيه صورة الممدوح أقرب الى الحمق الذي يثير السخرية، ولا يبعث على الاعجاب الذي يتوهمونه. ولكن الشاعر العربي لم يكن له بد من محاكاة الأنماط الموروثة والتي غدت لها قداستها عند معشر النقاد، وصارت معيارا للفحولة والتفوق عندهم في باب المديح.

وقد استغل ابن المقرب ألوان البديع في تشكيل صورته، من التجنيس بين «سؤاله ونواله» والاعتماد على التقطيع الصوتي في «ضحوك، عبوس» وكان للطباق دوره في الربط بين جزئيات الصور مثل

«طبع وتكلف» و«ضحوك وقطب وجهه وعبوس»، كما استعان بالمبالغة في تشكيل صورته كما في البيت الثالث.

وفي صورة الكرم يعفي طالبي المعروف من مذلة السؤال، لأن ممدوحه يبادرهم بالعطاء قبل أن يسألوه:

تعفي العفاة من السؤال فقلما
تلقاه يوم عطائه مسئولا
يعطي الجزيل من النوال فلا يرى
الا كعابرة عليه سبيلا
ويعم في اعطائه فتخاله
بجميع أرزاق العباد كفيلا(١٦٥)

وبمثل هذه الصورة قوله :

يرون الندى قبل السؤال فريضة
وبعد السؤال زلة ليس تغفر(١٦٦)

لا يخفى من هاتين الصورتين وسابقتهما مدى تقدير الشاعر للموروث، وميله لمحاكاة صورة الكرم النمطية عند أسلافه. ويجعل – في صورة الكرم – أموال ممدوحه تشكو ظلمه لها :

أمواله من ضيمه تشتكي
وجاره في نجوة لا يضام(١٦٧)

وتصل درجة كرم الممدوح الى حد تنبيه السائلين ودفعهم اليه:

نبه طلاب الندى جوده
اليه تنويها وكانوا نيام(١٦٨)

بل قد تصل درجة كرم ممدوحه حدا يجعله فيه ملتقى سبل السائلين:

أقام الى نداه به سبيلا
يرى المعتفين به ارتيادا(١٦٩)

يشبه هذا قول زهير بن أبي سلمى:

قد جعل المبتغون الخير في هرم
والسائلون الى أبوابه طرقا(١٧٠)

وقد تتجاور صورة الكرم والشجاعة عنده، كقوله:

تلقاه أثبت ما يكون جنانه
والخيل تعثر بالقنا المتكسر
وأحب يوم عنده يوم به
يعطي الهنيدة للفقير المقتر
جرار كل كتيبة فرسانها
أوفى وأمضى من كتيبة دوسر(١٧١)

وقوله :

فقد جزت مقدار الشجاعة والندى
وتربك في لعب الصبا متشاغل(١٧٢)

ومن بين تلك الصور التي تمتزج فيها صورة الكرم والشجاعة قوله:

واذا المحول تتابعت ألفيته
مثبجح العافي وزاد المرمل
واذا لظى الحرب الزبون تأججت
أطفى لوافحها بحملة فيصل(١٧٣)

كما يستغل ابن المقرب صورة صنائع الممدوح الحربية وانتصاراته لتشكيل صورة الممدوح النمطية، ومن بين تلك الصور قوله:

مقدام معركة كشاف تهلكة
طلاب مملكة تسمو بها الدول
ويوم نحس يواري الشمس عثيره
حتى يخال الضحى قد غاله الأصل
كانما البيض راحت وهي مصلته

فيـه بـوارق غيث رعـده زجل
والسمر قد جعلت تحكي أسنتها
كواكب القذف والفرسـان تتصل
والنبل في الجو تحكي للمشبه الـ
ـكبريت في روسه النيران تشتعل
سما لـه معية الرئبال لاخور
يشينـه في تهاديـه ولا كسل
بصارم لو علا ضربا به حضنا
لقيل كـان قديما هـا هنـا جبل
اذا بدا ضاحكا في يوم معركة
بكفـه بكت الأعنـاق والقلل
فصك هـام العـدى صكا مقل
قرت لأن سخنت من وقعه مقل(١٧٤)

يستعين الشاعر في تشكيل صورته بعدد من الصور الجزئية، كالصورة التشبيهية «والسمر قد جعلت تحكي أسنتها كواكب القذف» و«النبل في الجو تحكي للمشبهـه الكبريت..» والصورة التمثيلية في البيت الثاني وتاليه، والتي تذكرنا بصورة بشار المشهورة:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

كما استعان بالتشخيص في «غاله الأصل» و«بدا ضاحكا» و«بكت الأعناق والقلل»، ويلاحظ في هذه الصورة ومثيلاتها أن ملكة الشاعر المصورة قد انطلقت الى مدى أبعد وأرحب من الصور الأخرى التي عرضنا لها، لما تحقق لها من عناصر الصورة الكلية، من حركة ولون وشكل.. ولكن صورة الشمس التي يواريها غبار المعركة، والسيوف اللامعة التي تعلو وتهبط خلال سحب الغبار وكأنها برق يتبعه رعد، هي صورة تراثية، وكذلك صور الأسلحة من رماح ونبال وسيوف، وصورة الممدوح في لقائه لأعدائه.

كما يستغل بعض ألوان البديع في تشكيل صورتـه، كاعتماده على التقطيع في ألفاظ البيت الأول «مقدام، كشاف، طلاب» و«معركة تهلكة، مملكة»، واعتماده على التصريع الذي يكسب شعره رنينا موسيقيا جميلا فيجعل الألفاظ مستوية الأوزان، متفقة الفواصل، كما في البيت الأول، وللموسيقى في هذه الصورة نماذج أخرى، فتلاعب في اختيار ألفاظ تشترك في أحد الحروف مثل «بكفه، وبكت» و«الأعتاق والقلل» و«مقل قرت.. وقعه مقل».

ومن ألوان البديع التي استغلها في تشكيل صورته «الطباق» الذي يهب الألفاظ قدرة على الأداء الفني للصورة، فيطابق بين متناقضات الصور الجزئية كما في «ضاحكا وبكت» و«مقل قرت، وخفت مقل».

وقد كان البديع من الوسائل الفنية الجديدة التي تفنن شعراء بني العباس في تحلية المعاني بها، أو عرضها عرضا جميلا جديدا، لأن اتساق اللفظ

مع المعنى هو جزء أساسي في محاولة الشاعر استكمال معالم صورته الفنية. ولكن ابن المقرب قد يبالغ - أحيانا - في استخدام ألوان البديع، حين يكثفها في تشكيل صورة ممدوحه، فيجمع في البيت الواحد عددا من ألوانه، كقوله:

ندس ردس شكس نكس
شوس مرس وافي الذمم
لهج بهج بفواضله
سمح طمح عالي الهمم
يسر عسر فرح ترح
والخيل تعثر باللمم(١٧٥)

فالصنعة البديعية في هذه الصورة لا تزيد عن كونها صنعة لفظية زخرفية متكلفة، أو قل صورة سمعية متكلفة، لا تؤدي أية وظيفة فنية، ففي البيت الأول يجمع عددا من ألوان البديع، كالتجنيس، والتقطيع الصوتي، والترصيع، والتلاعب بعدة ألفاظ مشتركة في حرف السين، وفي البيت الثاني وتاليه يستغل الطباق الى جانب التجنيس والتقطيع الصوتي.

ومن المشاهد التقليدية في صورة المعركة وصورة جيش العدو كثير العدد والعدد كقول ابن المقرب في وصف جيوش الصليبيين التي أغارت على «دمياط»، وذهب ممدوحه الأمير الأيوبي الأشرف للقائهم:

وقد جاءت الافرنج من كل وجهة
كأن تداعيها السيول الدوافق
كتائب ملء البر والبحر من بدت
له قال ذا جنح من الليل غاسق
تسير بسد من حديد لو انه
هو السد لم يخرقه للوعد خارق(١٧٦)

ومن تلك المشاهد التقليدية، صور الأعداء وقد بددهم الممدوح بين قتيل وجريح وفار، كقول ابن المقرب في وصف ما انجلت عنه معركة «دمياط» بين الأمير الأشرف والغزاة الصليبيين:

ومالوا لقذف المال في اليم بالضحى
وبالليل ثارت في الرحال الحرائق
وأزعجهم من ذاق للجرح بعدهم
بامس وهل يستعذب الموت ذائق
فولوا فمنكب على أم رأسه
لدن ذاك لم ينفق وآخر نافق
مستعصم بالبحر منه وعائذ
بأخلق تنبوا عن صفاه المطارق
ولم يبق يثني من عنان جواده
أب لابنه والموت للقوم خانق
فسال دم لو سال في الأرض لاستوى
بها ردغ ما عمرت ومزالق
جرى منه فوق البحر بحر فموجه
الى الآن من بعد الأقاحي شقائق(١٧٧)

ومن تلك الصور التقليدية، صورة ممدوحه الواثق من نفسه لحظة اشتداد المعركة:

تلقاه أثبت ما يكون جنانه
والبيض تختطف الرؤوس وتجتلي(١٧٨)

وقد بدا واضحا حس الشاعر التراثي بعد هذا العرض لصورة

الممـــدوح عنـــده، وسننتقل الآن الى تنـاول صـورة نمطيـة أخـرى وهي صورة الرثاء.

والـرثـــاء - كما نعلم - ضرب من المديح، ولكنــه ثنــاء على الــراحلين، ويشكل ابن المقرب صورة الرثاء وفقا لتقاليد موروثـة مرعية، فهو يثني على مرثيه ثناءه على ممدوحه، ويخلع عليه صفات مثالية تـواضع الشعراء عليها في هـذا الباب، فمن بين صـور الرثـاء عنده قوله في رثـاء ابن عمه مذكور بن عبدالله ابن منصور العيوني:

لقد كان غيظا للأعادي وباذخا
يلـوذ بـه جـان ويامله عـان
فمن بعـده من للـرمـاح يعلهـا
وينهلهـا من كل أشـوس مطعـان
ومن لتـــوالى المرهقين اذا غـدت
تعاطى وأبدى الشر صفحة عريان
ومن لجليل الخطب يـومـا اذا أتت
هـوازن تـردى بين بيض وأبدان
ومن لمضيم مضـه الضيم والتوى
بـه ذو ظـلامـات تعـد وعـدوان
ومن لأسير غـارم قل مـالـه
وآب من المولى الشفيق بحرمان(١٧٩)

فقد كـان ابن عمـه الفقيد نمـوذجا فـريدا في الشجـاعة والكـرم، ونصرة المظلـوم، وفـداء الأسرى.. ويستعين بعـدد من الصــور الجزئيـة لتشكيل صورتـه، كالصورة التشبيهيـة «كان باذخا» والتشخيص «من للرماح يعلها وينهلهــا» و«أبـدى الشر صفحــة عريان» و«مضـه الضيم» ولاحساسه بجلل المصــاب يعمـد الى التحسين، فيكـرر كلمـة (من) في مطلع الأبيـات كلها عدا الأول منها، وقـد يوالي ثلاث كلمات تشترك في أكثر من حرف واحد (كمضيم، ومضه، والضيم).

صـورة الفقيد الـذي يشبه الطـود تتكـرر عنـده كقـولـه في رثـاء الأمير العيوني مقدم بن ماجد:

ومقـــدم لا شـك طـــود بـــاذخ
يعلـــو على الهضبــات والاكـــام(١٨٠)

كما يستغل في تشكيـل صـــورة الـرثـاء صـورةالقبر الـذي اشتمل في جوفه على عظيم من العظماء كقوله:

ولابـد لي من وقفـــة قبل رحلــة
أذيـل بها دمعـي فينهـل وابلــــه
على جـدث أضحى به المجد ثاويـا
بحيث يـرى شط العـذار مقـابلـه
لأســأل ذاك القبر هــل غير البلى
محاسن مجد غيبتهـــا جنـادلـــه
وهل همت الموتى بـاشعــاء غـارة
يثـــار بها من كـل جـــو قسـاطلــه
فقد نـامت الأحيا عـن الغزو فـاستوى
بكل سبيـل أســده وخيـــاطلــه
فيـا عجبـا من ملحد ضم فيلقـا
وبحـراً وطـودا يـركب المزن عـاقلـه(١٨١)

ونلتقي في صورة الـرثاء النمطية، بصـورة الفقيـد الذي سـاءت أحـوال رعيتـه لفقـده، كقولـه في رثـاء الأمير

العيـــوني محمـــد بن أبي الحسين العيوني:

وكتيبـة رعنـاء يخشـاهـا الـردى
أبكي فــوارسهـا على ســاداتها
يـا سـوء حظ بنـي نـزار بعـده
وشقــاء حــاضرهـا وشـؤم بـداتها
فمن للمكــارم والصـوارم والقنــا
والمرمــلات ومن لفك عنــاتها
رجفت لمهلكـه البـلاد وزلـزلت
وغـدا منـاخ الـذل في حجـراتها
ان نبك مصرعــه أسى فلقـد بكت
جــزعــاً عليــه الجن من ستراتها
ويحق أن يبكي عليــه بحـرقــة
وحش الفــلا والطير في وكنــاتها
كـانـت بـه البحـرين جنــة مأرب
أيــام بهجتهـا وطيب حيــاتها
حتى إذا مــا الترب وارى شخصـه
أبـدت يـد الأيـــام عن ســوآتها
تبــاً لــدنيـا كلما وهبت ثنت
فاسترجعت منا نفيس هباتها(١٨٢)

يشكل الشاعر صورته من عدد من الصور الجزئيـة، كالتشبيه «كـانت به البحرين جنة مأرب» ولكنه يعتمد أكثر على الصــورة الاستعــاريــة بهدف التشخيص في «رجفت لمهلكه البلاد» و «يبكي عليــه بحـرقــة وحش الفــلا والطير»، و «الترب وارى شخصـه» و «أبدت يـد الأيام» و «دنيـا كلما وهبت ثنت» و «استرجعت منا نفيس هباتها»، وقـد أشرنــا ســابقــاً الى أن الصــورة الأخيرة قد أخذها من أبي الطيب.

ويستعين الشاعر بالبديع الصوتي في تشكيل صورته، فيأتي بكلمات على وزن واحد زيادة في الايقــاع «كالمكارم والصوارم»، ويلجأ الى التـلاعب بفعل «بكى» فيأتي به ماضيا ومضارعاً.

أما الصـورة الغزليـة فقد وردت ـ كثيراً عنــد الشعــراء في مقــدمــات قصــــائدهم، أو في أجـــزاء مـن تلك القصـائد. وقـد ســار شعــراء بني العبـاس في الغزل على النمط التقليـدي خاصــة في المقدمات، لذا فقـد آثروا أن يختاروا لأدائها بعض الألفاظ الوعرة والتراكيب القوية المتينـة. وربما كانت هـذه مـلاحظـة عامـة على شعـرائنـا القدامى، إذ كانـوا يميلون الى الوعورة والخشونة عندما ينظمون في موضـوع تقليدي. ويرى الـدكتور طه حسين أن عصر بني العبـــاس «لم تكـن فيــه مدرســة غزلية، حيث أن شعـراءها لم ينقطعوا للغزل، ولم يسلكوا فيه سبيل أصحـابنا من الأمـويين، وانما كـانـوا كـالجاهليين يتخذون الغـزل وسيلـة شعـرية أو يتعـاطونــه كما يتعاطـون غيره من الفنـون، وإذا كـان الشعـراء العبـاسيـون قد استحـدثـوا في الأدب العربي شيئاً فهم لم يستحدثوا الغزل، أكاد أقول انهم انصرفـوا الى شيء آخر هو العبث والمجون(١٨٣).

لذا فقـد تردد شعـراء بني العباس

بين صـــورتين تـــراثيتين للغـــزل، احداهما ظهرت في مقدماتهم الطللية، وهي الصـــورة التراثيـــة الجاهليـــة، والأخرى صـورة تراثيـة أقرب عهداً بهم ـــ من تلك الصـورة الموغلـة في القدم.

أما الصورة الجاهليـة التراثية عند ابن المقرب فقد عـرضنا لها من خلال حـديثنا عن الصورة الطللية عنـده، وطـالما نحن بصدد الحديث عنهـا فيجدر بنا أن نشير الى ايثاره ـــ أحياناً ـــ لأدائها ببعض الألفـاظ الـوعـرة والتراكيب القويـة المتينة، ويتخلص في أحيان أخرى من كل هذا فيغير المنوال الى آخر أكثر خفة ورشاقة كقوله:

دعـوه فخير الـراي أن لا يعنفـا
فلو كـان يشفي داءه اللوم لاشتفى
ورفقاً بـه يـا عـاذليه فـانـه
شجي وقد قاسى من اللوم ما كفى
فلولا هـوى لا يملك العزم عنده
لكـان حمي الأنـف أن يتعطفـا
ولكن من يعشق ولـو كـان ذا على
فـلابد أن يعنـوا وأن يتلطفا(١٨٤)

أمـا الصـورة التراثيـة الأخرى، ونعني بها تلك الصـورة الماديـة التي تفيض فحشـا، فهـو متـأثر فيهـا بالصورة الغزلية عند بشار، ومن بين تلك الصور قوله:

فكم ليلـة بتنا ضجيعين في الدجى
وقـد غـاب واش نتقيـه وكـاشح
متى رمت تـرشـافـا لها فكانما
لفيهـا فمي من خمر عـانـة مـاتح
الى أن وشى جـرسي الحلى بها وبي
فشتت شمليـنـا صـديع وصـادح(١٨٥)

يعتمد الشاعـر في هذه الأبيات على الحركـة كعنصر هـام في تشكيل صورته، ويستعين بالقليل من الصور الجزئيـة كالتشبيـه في البيت الثـاني، والصـورة الاستعـاريـة «وشى جـرسهـا» و «شتت شمليـنـا». كما يستعين بـالقليل من ألـوان البـديع، فيعمـد الى التـلاعب بتكـرار بعض الألفـاظ المشتركـة في حـرف «الشين» كما في البيت الأخير، وحـرفي «الصـاد والدال» في «صديع وصادح».

ومثل هذه الصورة قوله:

فكم لـذة قضيت في حجـراتها
مع الغـانيات المائسـات النـواعم
عـذاب الثنـايـا نـاهـدات خـرائد
حسان الثـدايا واضحـات المعاصم
أجـرر لهـــوا بينهن ذلاذلي
وأضرب صفحاً عن ركـوب المآثم(١٨٦)

يـرسم الشاعـر من خـلال أبياتـه صورة للمرأة التي يحبهـا، فهي عذبة الأسنان بكر، ذات صدر نـاهد، ممتلئة الجسم بـاديـة المعصم، ولكن هـذه الخطـوط لا تشكل الصـورة العـامـة للمرأة في غـزله، فهناك الفتـاة النحيلة الخصر، والأشبـه بخيط البـان في ليونتها، ورشاقتها، وتثنيها..

فتاة كخوط البان لكن خصرها
لدقته تحويه حلقة خاتم[187]

وهناك الفتاة البيضاء، ساحرة الطرف، رشيقة القد:

يضيء الدجى من وجهها في خمارها
وتفضح قرن الشمس أيان تسفر
تبطل سحراً سحر هاروت ان رنت
وتخجل غصن البان أيان تخطر[188]

كما يستعين على تشكيل صورته الغزلية بوصف لحاظ فتاته، فيصورها مرة كالسهم:

رمت بسام اللحظ عن قوس حاجب
أعارض ما بين الحشا والحيازم[189]

ويصورها مرة أخرى بحد السيف:

على دار من تصمى القلوب بأسهم
مواخي الظبى من لحظها حين تنظر[190]

ومن بين تلك الصور الحسية التي لا تخلو من فحش بشار وأضرابه قوله:

يا طيب الوصل ودار الحي
بحيث الأبطح ذو الحرم
والدهر بعينيه سدر
عن شمل الحي الملتئم
نغدو ونروح ومذهبنا
شرب الصهباء على النغم
وأزور الحب علانية
ويزور جنابي عن أمم
وأعلله ويعللني
من ذي أشر عذب شيم
والمال يمد رواق الستر
على المثرين من التهم
فترى الرقباء طلائعنا
وشهود العفة والكرم
سقيا لليالي اللهو لقد
كانت وتولت كالحلم
يا خضرتها يا نضرتها
يا حسرتها إذ لم تدم[191]

يستعين الشاعر في تشكيل صورته ببعض الصور الجزئية كالتشبيه التقليدي «ليالي اللهو كالحلم» والصور الاستعارية «والدهر بعينه سدر» و «المال يمد رواق الستر»، وقد بدت الصنعة جلية في تشكيل الصورة، إذ استغل الشاعر ألوانا من البديع الصوتي لتشكيل صورته السمعية، فيكرر أكثر من لفظ في عجز بيت واحد، «فحشا لحشا» و «فما لفم»، ويعمد الى تكرار فعل، فيأتي به ماضياً ومضارعاً كقوله «أعلله ويعللني»، ويلجأ الى التلاعب بألفاظ مشتركة في حرف الشين مثل «أشر وشيم».

كما يؤدي التقسيم الموسيقي دوراً ملحوظاً في الصورة كما في البيت الأخير، والذي جمع فيه أكثر من لون بديعي واحد، فقد تألق فيه الجناس أيضاً بالاضافة الى التقسيم الموسيقي في «ياخضرتها، يا نضرتها، يا حسرتها». كما ينبغي أن ننوه باختيار الشاعر لبحر المتقارب ذي الايقاع

السريع، مما أعان الشاعر على تشكيل صورته السمعية، وكان الطباق من بين ألوان البديع التي استغلها الشاعر في تشكيل الصورة في قوله «نغدو ونروح».

فالملاحظ أن صورة المرأة ـ موضوع الغزل ـ عند شعراء العصر العباسي أصبحت مغايرة لها عند أسلافهم الجاهليين، وغيرهم من العذريين في صدر الاسلام، وعصر بني أمية، فقد أصبحت الجارية هنا ـ أمة وساقية وقينة ـ لها وضعها عند شعراء اللهو، مما ساعدهم ـ في أغلب الأحيان ـ على التدني في الغزل حتى وصل بعضهم الى نمط عار مكشوف(١٩٢).

وقد رأينا شيئاً من ذلك عند شاعرنا، وخاصة في مدائحه التي نظمها في العراق ابان رحلاته المتكررة اليها.

ولا يخفى ـ بعد ما عرضناه من صوره الغزلية ـ الحس التراثي عند شاعرنا، ومدى تأثره بالصورة النمطية التقليدية، وقد وقفت في تناولي لموضوع غزله عند صدق تجربته، وتساءلت عن حقيقة مشاعره، وهل صدر فيما نظم عن تجارب حقيقية، أم نظم ما نظم في هذا الباب انسياقاً، وراء محاكاة أسلافه، وضربا على أوتارهم؟ وخرجت بنتيجة مفادها أن بعض ما نظمه في هذا الموضوع قد صدر فيه عن معاناة حقيقية، وأن أكثره جاء محاكاة وتقليداً كما أشرنا الى أن تلك الصورة اليتيمة من الغزل بالمذكر لم تكن الا مجاراة لذوق العصر، وتقليداً لأسلافه من شعراء بني العباس.

أما الصورة الخمرية فقد كان للأعشى حق الريادة والسبق في رسم الاطار العام لها في الشعر العربي، فأبدع فيها وأجاد حين ألم بما يتعلق بها من أحوال وأوصاف كالشعاع، والطيب، واللون، والقدم، والصفاء، فضلاً عن الكأس، والندماء، والسقاة، والمجالس، والبائعين وغير ذلك فيما يتعلق بها كموضوع لفنه. وكان طبيعياً ـ بعد ذلك ـ أن يتأثر شعراء الخمر اللاحقون فيفيدوا من صوره، حتى أن أبا نواس ـ الذي يعد زعيماً لهذا الفن في عصره ـ متأثر في صوره بالحس التراثي، أو بالصورة الخمرية الموروثة. ومع أن شعراء الخمرة المحدثين حاولوا التجديد فيها إلا أنهم لم يستطيعوا التخلص فيها من الموروث.

ولا يميل ابن المقرب الى رسم مثل هذه الصورة، بل لم يحاول ذلك إلا في موضوعين في شعره، افتتح بهما مدحتين من عراقياته، ولم يكن موضوع الخمرة مقصودا لذاته، فقد جاء كتوطئة للمدح وهو غرض

القصيدتين الأساسي، في احدى الموضعين يقول:

قم فاسقنيها قبل صوت الحمام
كرمية تجمع شمل الكرام
صهباء مما عتقت بابل
مزاجها الأرى وماء الغمام
مما أدير الكأس منها على
كسرى ونمرود بن كوش بن حام
لو احتساها ابن الزبير اغتدى
أكرم من كعب وأوس بن لام
تذهب باليأس وتدني المنى
وتنشر اللهو وتطوي الغرام(١٩٣)

فهي خمرة مصنوعة من العنب، قديمة معتقة من العصر البابلي، لها طعم العسل والماء العذب، ويلح على قدمها ليبالغ في أثرها القوي على نفس شاربها حتى لتغير من طباع حياته، وتبعث الأمل في نفس محتسيها، وتدفع عنه اليأس، وتبعث السعادة في نفسه، وتنسيه آلام الحب.

وقد استعان على تشكيل صورته بعدد من الصور الاستعارية في البيت الأخير، كما بدا تكلفه واضحا في التلاعب بلفظي «كرمية، وكرام»، وتقسيم شطري البيت الأخير الى وحدات متساوية في عدد الألفاظ، ولكنه لم يوفق في تحقيق التوازي الموسيقي لها، ولا يخفى دور الطباق - وان بدت صنعته - في تشكيل الصورة في قوله «تذهب وتدني» و «تنشر وتطوي».

وقد اكتفى في الصورة الخمرية الثانية بوصفها بالجودة وشدة الأثر إذ يقول فيها:

خليلي قوما فاسقياني رعيتما
سلافة خمر مرة الطعم قرقفا(١٩٤)

ولكنه يخرج من هذه الصورة الى رسم صورة للساقي:

بكف نديم لو تراءى بحسه
ليعقوب لم يأسف لفقدان يوسفا
ولو أنه للبدر ليلة تمه
تجلى لأبدي غيرة منه واختفى
نظل بعينيه نشاوى وثغره
فما نتحسى الكاس إلا ترشفا

ولعل التقليد - وحده - كان وراء تحوله الى رسم هذه الصورة البغيضة، فقد جرت العادة في خمريات بعض شعراء بني العباس أن يستعينوا برسم صورة الساقي في تشكيل صورهم الخمرية.

وما بين أيدينا من نماذج هذه الصورة التراثية عنده لاينبيء عن خبرة بها ودراية بمجالسها، وأحوال محتسيها، ولا يزيد عن كونه استمراراً وتقليداً لتلك الصورة الموروثة.

ويلاحظ أن صور شاعرنا - بعامة - شديدة الارتباط بحسه، ملتصقة بالمظاهر المادية التي تقع عليها حواسه، ويصدق ذلك على ما كان منها

تصويراً للأفكار والمشاعر، فهو لا يعبر عن الشجاعة أو الكرم ــ مثلاً ـ باعتباره فكرة مجردة معنوية لا ترتبط بمظهر من المظاهر المادية، بل يلجأ الى تصويرها في صورة مادية محسوسة. فقد ربط بين صوره وحواسه فالصورة عنده تثير في مخيلتنا مادة محسوسة لتناولها بالبصر أو السمع، أو الذوق أو اللمس، ومع أن التصوير عماده العقل إلا أن الحواس تبقى شاخصة وراءه فهي سيدة الموقف، ونحن نتابع، الصور بدليل من عمل حواسنا، وبما تثيره من أشياء ندركها بالحس قبل الفكر.

وتمثل صوره كذلك واقع البيئة البدوية من حوله، فقد استمد عناصر صوره المختلفة من طبيعة هذه البيئة ومشاهدها. وهذه الملاحظة تدفعنا للتساؤل عن أثر الحاضرة في تصوره، فقد عاش فيها ردحاً من الزمن وكثر تردده عليها، وتجواله فيها، بل أنه أمير ينحدر من الأسرة الحاكمة، عاش حياته متنقلاً بين حواضر البحرين. إذا فلماذا غلب على صوره طابع البداوة؟

من المعلوم لدينا أن شاعرنا قد نشأ وترعرع في الاحساء، وتمكن من أداته الشعرية ولمع نجمه كشاعر ولما يتجاوز ـ حدود وطنه الاحساء وحين ارتحل الى حواضر بني العباس في العراق، كان مخزونه وافراً من رؤى البادية. كما أنه قد تتلمذ على دواوين أسلافه ممن تخرجوا في البادية العربية، وكانت حافظته تلبيه وتمده بما أبدعته قرائحهم، فجاء شعره انعكاساً لثقافته الى حد بعيد.

لذا فقد غلب طابع البيئة البدوية على صوره، بالاضافة الى التصاقها بالمظاهر المادية التي تقع عليها حواسه، فإذا ما أراد أن يعبر عن معنى مجرد كالخضوع والاذعان، قفزت الى مخيلته تلك الصورة البدوية للشاة الجرباء المستسلمة لطاليها:

يلوذ معاديهم بهم وهو خاضع
كما تخضع الجرب العجاف لطال(١٩٥)

وإذا أراد أن يصور نفور قومه منه، وازورارهم عنه، لجأ الى هذه الصورة البدوية:

رأيت لكلهم عني ازورارا
جنوح العجل مال عليه عجل(١٩٦)

فالحسية عند شاعرنا تعد احدى مظاهر تقديره للموروث، واستمراراً لتأثير القدماء في المتأخرين من شعراء بني العباس. ويذهب الدكتور عز الدين اسماعيل الى أن الصورة في الشعر القديم ـ وكذلك الذوق النقدي والبلاغي ــ كانت تتسم بالنزعة الحسية، فكل من الشاعر والناقد كان ينزع نزعة حسية في فهم الجمال، وفي تصويره، فكان الجمال عنده فيما ترضى عنه الحواس، كل حاسة وما

يـوافقهــا[١٩٧] كما يـرى أيضــاً أن الصورة القـديمة تتصف ــ الى جانب الحسيـة ــ بـالحرفيـة والشكليـة والجمـود.. ومن بين الصـور التي تتصف بـالحرفيـة عنـد ابن المقـرب قوله:

ونـؤي كجذم الحوض غير رسمـه
وجيف الحصا بـالموجفات الحواشك[١٩٨]

أما الصور التي تتصـف بالشكلية عند شاعرنا فكثيرة، ومنها قوله:

كأن العجــاجــة عــارض وكأنما
بـه المشرفيـات المواضي عقـائق [١٩٩]

وقوله:

تقـول ودمع العين منهــا كأنـه
جمان هـوى من سلكـه متـوابل[٢٠٠]

وطالما نحن بصدد الحديث عن قيم التصـوير التقليـدية عنـد شـاعرنـا، فيجـدر بنـا ألا نغفـل الـوقـوف ازاء الصـورة التشبيهيـــة، والصـــورة الاستعـاريـة، باعتبـارهما صـورتين بـلاغيتين جـزئيتين، استعـان بهما في تشكيل صـــوره الفنيـة، محاولين أن نضع أيـدينـا على الملامـح التقليـديـة التراثية فيهما.

يقول ابـن طباطبـا «ان التشبيهات على ضروب مختلفـة، فمنهـا تشبيـه الشيء بـالشيء صورة وهيئـة، ومنهـا تشبيهه بـه معنى، ومنها تشبيهـه به حركة، وبطئا وسرعـة، ومنها تشبيهه به لـونا، ومنهـا تشبيهه بـه صوتـا، وربما امتزجـت هذه المعـاني بعضها ببعض، فـإذا اتفق في الشيء المشبـــه بالشيء معنيان أو ثلاثـة معان من هذه الأوصـاف قـوى التشبيـه، وتـأكـد الصـدق فيـه، وحسـن الشعـر بـه للشواهد الكثيرة المؤيدة له [٢٠١]، كقول ابن المقرب:

من بأسـه تذهب الفرسان شـاردة
شرود سرب القطا من أجدل قطم[٢٠٢]

فالمشبه في هـذا البيت أشبه المشبه به صورة، ومعنى، وسرعة.

ومن ذلك قوله:

فصمت رجال عـن دعائي وأحجمت
كمثل بغاث الطير عاين أجدلا [٢٠٣]

كما يتحـول التشبيـه ـ أحيـانـاً ـ عنـده الى وسيلة مـن وسائل الاقنـاع كقوله:

فإن ساءني القـوم الكرام وضيعوا
حقوقي وهـدى المجد فيهم وكـاهله
فقبلي أخو شن بن أفصى [٢٠٤] أضاعه
بنـو عمه دون الـورى وفضائلـه[٢٠٥]

وتفقد أمثال هذه التشبيهات كل ما يمكن أن تتيحـــه للقـارىء من ثـــراء عـاطفـي وتعـدد في الادلـــة، وتنميـة للتجـربـة التي تقـدمهـا القصيـدة، وتصبح ثانوية القيمة ازاء الفكرة التي هي الأساس، والصورة مجرد وسيلة ثانوية، والاقناع لـه وسائله المتنوعة، فقـد يلجـأ الشـــاعـــر الى الشرح والتـوضيح أو التحسين والتقبيح أو

الاستـــدلال والتمثيل وضرب المثل، وفي جميع هـــذه الحالات لا يكــــون للصورة أية وظيفة تعبيرية [٢٠٦] كقول ابن المقرب مخاطباً نفسه:

فانت الفتى حزما وعزما ولم تضق
بمثلك في كل النـــواحي مـــذاهبـــه
فما يقطع الصمصـــام إلا إذا انتحى
عن الغمـد لـو كـانت حـداداً مضـاربـه
وما دام ليث الغاب في الغـاب كامنا
فإن حــــرامـــا أن تـــدمى مخالبــه
كذا البدر لـــولا سيره وانتقالـه
عن النقص لاستعلت عليـه كـواكبـه [٢٠٧]

كما لا يفـوتنا أن نشير الى التشبيـه المكرر الـذي يلجأ اليه في تفصيل شيء واحـد في بيت واحد، أو عـدد قليل من الأبيات، كقوله مادحاً الأمير محمد بن أبي الحسين العيوني:

بـــرد وظل للصـديق وجنــة
وعلى أعـــــاديـــــه حميم آن [٢٠٨]

ومن ذلك قوله في مدح الأمير ذاته :

هـو البحـر لكـن مـده غير جـازر
هـو البـدر الا أنـه الـدهـر كـامل
هو الشمس في جو السماء ونورها
على كل من فـوق البسيطة شـامل
هـــو المزن الا أنـه فـــوق ســابح
وفي كل أرض منـــه ســح ووابل
هـــو الليث الا أن عـرينـه القنــا
وصيداته الصيد الملوك العباهل [٢٠٩]

ويـلاحظ أن الأبيـات ذات التشبيـه المكرر تكـون متشابهة المطـالع عنده، كما تجدر الاشـارة إلى اعجاب النقـاد القـدامى بهذا الضرب من الصـــورة التشبيهيـة، إذ يـرون أن الالحاح على علاقـة التشبيه بـالتفصيل، يؤدي إلى الاعجـاب الشديـد بحشد التشبيهات وتكـرارهـا داخل البيت الـواحـد أو الأبيـات، ذلك أن الحشــد يـؤدى إلى استقصــاء عنـاصر المشـابهة، كما أن التكـــرار يـــؤدي إلى اقتنـــاص كل المشابهات الممكنة عقلا. [٢١٠]

أمـــا حظ ابن المقـرب من الصـــور الجاهـزة فوافـر، وهـي التي يأخذهـا الشاعر ممن قبله جاهزة لم يبدع فيها شيئـاً، ويكثـر في هـــذه الصــورة الاستعـانـة بـــالتشبيهات الجاهـزة المعـروفـة لـدى الأقـدمين كتشبيـه الممـدوح بالبحـر، والبـدر والشمس، والليث.. أو تشبيـه الشـاعـر نفسـه بالسيف، والجواد.. إلخ، ومن بين تلك الصور التشبيهية الجاهزة قوله :

فحيـــاه صبح للهـدى وبـدتـه
بحار غزار للندى لا ضحاضح [٢١١]

وقوله :

وإذا تشـاجرت الخصـوم فـانني
سيف على الخصم الألد مجرد [٢١٢]

أمـا الصـورة البـلاغيـة الجزئيـة الأخرى عند شاعـرنا، فهي «الصورة الاستعـــاريـــة» ومن المعلـــوم أن الاستعارة «مركب صعب، وضرب من

البيان عسر، وبها يكشف الشاعر عن مدى قوة خياله»[٢١٣]، ويرى أرسطو «أنها أعظم الأساليب في الشعر، وانها آية الموهبة التي لا يمكن تعلمها من الآخرين»[٢١٤] فهي أمعن في الخيال من التشبيه، لأن الاستعارة «علاقة لا منطقية، وعبث بالحدود، وخلط بين الفكر والاحساس خلطا نافعا يؤدى ما تقصر عنه الحواجز، وبهذا تستحيل إلى تشابه بين غير المتشابهات».[٢١٥]

وإذا كان النقاد المعاصرون يميلون إلى تفضيل الاستعارة الأصلية على التشبيه من حيث القيمة الفنية «فهم ـ أيضاً ـ متفقون على مكانة الاستعارة الفطرية من الشعر، فكل ما عدا الاستعارة من خواص الشعر يتغير، من مثل مادة الشعر، وألفاظه، ولغته، ووزنه، واتجاهاته الفكرية، ولكن الاستعارة تظل مبدأ جوهرياً وبرهاناً جلياً على نبوغ الشاعر، فان كانت استعارات الشاعر قوية أصيلة حكم الناقد بأنه أشعر».[٢١٦]

وللاستعارة عند ابن المقرب مكان الصدارة بين سائر صوره الجزئية، وله فيها باع طويل، ومرد هذا إلى عقليته الناضجة، وصلته القوية بالحاضرة. واستعاراته ـ في معظمها ـ قريبة واضحة، تجرى على الطريقة العربية، وتتفق مع الذوق العربي، ولا تكلف متذوقيها شططا وكدا للذهن، ولكنه يلجأ ـ في أحيان قليلة ـ إلى الخروج على تلك المنطقية ـ التي اشترطها النقاد القدامى، والتزم بها شعراؤنا الأول ـ بين طرفي الصورة، وقد مهد أبو تمام السبيل إلى تجاوز تلك الحدود المصطنعة، والعبث بها، واهدارها، ولكنهم استنكروا عليه ذلك، وعدوه مخالفا لعمود الشعر العربي، وقدموا عليه من هو دونه من شعراء عصره. ومثل هذه الاستعارات قول شاعرنا :

غداة تداعى الحي بالبين بعدما
جلا الصبح اعجاز النجوم الدوالك[٢١٧]

فقد شخص النجوم على غير المألوف، ومثل هذا الخروج على المألوف قوله :

وما رمتني بكر من نوائبه
الا صككت بصبري هامة الجزع[٢١٨]

فقد جسم الصبر، وشخص الجزع متجاوزا بذلك حدود الواقع إلى حد بعيد ومثل هذا قوله :

واصفح ببعلك رأس الدهر واسط على
أحداثه سطو ضرغام على حمر[٢١٩]

وقوله :

له هيبة ملء الصدور فلورنا
إلى الموت مزوراً لمات من الذعر[٢٢٠]

ويبدو من هذه الاستعارات انها نابعة من حسية ابن المقرب، وان هذه

الاستعـــارات ومثيـــلاتها لهي دليل شاعريـة وقدرة على التخيل والابتكار «لأن أهم ما يميـز الشاعـر البارع عن غيره هـو تلك القـدرة الـذهنيـة التي تجعله ينظر إلى أبعد ممـا ينظر سواه، ويكشف عـلاقات لم يلتفت إليهـا معا صروه، أو أسلافه، ان الشـاعر انسان متخيل، والتخيل قدرة ذهنية إذا عملت في رعـايـة عقل مفـرط الـذكـاء، دائم الوعي والجهد، انتهى صـاحبها إلى ما لم ينته إليه سواه».(٢٢١)

وهكـذا فقد نـالت الاستعارة حقهـا من اعجـاب النقـاد العـرب القـدمـاء وكذلك نقاد الغـرب المحدثين. كصورة فنيـة تظل بـرهـانـا جليـا على نبـوغ الشـاعر.

لقد ظلت أشبـاح الصورة التقليـدية الموروثـة تـلاحق ابن المقـرب في أغلب موضوعـاته الشعرية، وامتـد تقديره للتراث من مفردات اللغة إلى تشبيهاتها واستعارتها، حتى انتهى فيه إلى رسم الصـورة العامـة. بل قد يمتـد تقديـر الشـــاعـــر للتراث بشكـل طبيعي من «مفردات اللغة وقواعـدها إلى تراكيبها وأمثالها، إلى تشبيهـاتها واستعاراتها حتى تنتهي إلى فـن الشعـــر بكل مـــا يشتمل عليه من أوزان ومـوضوعات وأخيلة ومعـان».(٢٢٢) لـذا وجدنـا أن بعض الموضـوعات القـديمة مـا زالت سائدة في شعر العصر العباسي بسبب التقليـد والمحـاكـاة في الغـالب واتجه الشاعـر إلى معالجة تلك الموضـوعات على طرق المتقـدمين، فللطلل صـورته النمطيـة، وللنـاقـة والـرحيل عليهـا صـورها المتشـابهة، وكـذا في وصف الرحيل وما ينشأ عنه من مثلهم العليا كالكـرم والشجاعة والنجدة والـوفاء وغيرهـا من مكـارم يصور الشعـراء أضـدادهـا في الهجـاء. ويعـد معظم شعـــراء بني العبـــاس ـــ من حيث مـــذاهبهم في النظـم، والأغـــراض الشعـريـة ــ امتـداداً لأسـلافهم من شعـراء الجاهليـة» لأن نهوض الأدب العـربي لم يكن نـوعـــاً من النسيـان للماضي، أو التنكـر لـــه، أو الغض من شأنـــه، فـــالأمـر واضـح، حيث ظل الشعـراء يصطنعـون لغـة الأطـلال، ويبكـون الـديار، ويـذكـرون منـازل الأحبـة بعـد انقضـاء العصر الجاهلي، وظلت المادة التي يصنع منها الشعراء خيـالهم متشـابهة أو كـالمتشـابهة، فالشمس والنجوم والجبال والوديان وأنماط الشجــر والنبـــات والظبـــاء والأبقـار والنـاقة والفـرس والبحـر والسفن، كـل أولئك وغيره كثير، ظـل مـــادة تفكير أدبـاء العـربيـة عصـوراً طـــوالا، فقـد أرسى شعـــراء العصر الجاهلي دعـائم هـذه المادة الفكـريـة

والجمالية».[٢٢٣]

ويضعنا هذا الامتداد والتقدير للموروث أمام الازدواجية الثقافية التي عانى معظمهم منها في تشكيل صورهم أو بعضها، وابن المقرب واحد ممن عانوا ذلك الصراع بين حياتهم وما يتصل بها من معان وتجارب حقيقية، وبين محاولاته لابراز فحولته من خلال الاسراف في التقليد بكل أنواعه، حتى تلاقت فيه مدارس مختلفة سابقة عليه، ومعاصرة له، وقد لاحظنا كيف استعبده التراث، وخاصة عند تكرار التشبيهات أو الاستعارات الجاهزة، وفي هذا الخضوع استنزاف - ولا شك - لملكاته المبدعة.

وقد لاحظنا أن الصورة التشبيهية تغلب عليها الحسية، وهي ذات طابع بدوي، كما أشرنا إلى الصورة التشبيهية المكررة التي يلجأ إليها في تفصيل صفات شيء واحد في بيت واحد، أو عدد قليل من الأبيات، وأنه يكثر من الصور الجاهزة، والاستعانة بالتشبيهات المعروفة الشائعة لدى الأقدمين وأنه يميل كثيراً إلى المبالغة في رسم صورة ممدوحه، اما مجاراة لذوق عصره، أو ارضاء لممدوحيه مستعينا بتلك التراكيب الشائعة والصور الجاهزة.

كما لاحظنا كيف استغل ابن المقرب ألوان البديع في تشكيل صوره وكان البديع من الوسائل الفنية الجديدة التي تفنن شعراء بنى العباس في تحلية المعاني بها أو عرضها عرضا جميلا. ولا ينكر ما يكمن في البديع من طاقات تصويرية تجعله قادراً على مد الشعراء بصورهم الناعمة مما يمنح شعرهم رونقاً وجمالاً.

ويجعل النقد الحديث الصنعة البديعية في الصورة الشعرية مكملا للاطار الفني العام الذي يهدف الشعراء من ورائه إلى نقل التجربة إلى المتلقين، وان كنا نجد ناقداً يرى أن التجنيس، والمطابقة، ورد اعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي «ما هي إلا محسنات لفظية، أو طريقة من طرق التفكير الذي يغلب عليه العقم، انها ليست أشياء من جوهر الشعر، ولا هي حتمية فيه».[٢٢٤] ولعله يعنى — ولا شك - ألوان البديع المتكلفة لذاتها، لأنه يقول في موضع آخر من مؤلفه : «والبديع شيء قديم اهتدى إليه الشعراء بقريحتهم، وبحكم طبيعة الشعر ذاته، وذلك لأن الشعر — إلى حد كبير - صياغة، وفي طرق هذه الصياغة تتركز عادة أصالة الشاعر إذ بفضلها يقيم علاقات بين الأشياء، وكلما ازدادت

كمية تلك العلاقات ودقتها وجدتها وقوة ايحائها ازداد شعره جودة».(٢٢٥)

وقد أجاد ابن المقرب ـ في أحيان كثيرة ـ ادخال البديع ضمن نسيج صوره الشعرية، فأضفى عليها من الزينة والزخرف الشيء الكثير، وحقق لشعره زينة محكمة ليست عبثا ولا تلاعبا، ولعله في هذا يتفق وروح العصر الذي صار فيه الأدب صناعة، «فان الاهتمام بالبديع أصبح من مميزات الشعر المتأخر كله، ومعروف ان هذا البديع يصطنع صوره وطرائقه اصطناعا، فأول بحاثه له قد حسب منها خمسة فقط، ثم تجاوز العدد المئة فيما بعد».(٢٢٦)

وقد خان التوفيق شاعرنا ـ في أحيان قليلة ـ فتجاوز حدود الاعتدال في استخدام ألوان البديع، فطغت الزينة على بقية عناصر صنعته. «فالفن الحقيقي للشاعر يكمن في صنعته الشعرية في شقيها المعنوي واللفظي، ويحسن به ألا يترك للألفاظ عنان الزخرف والتنسيق، فتطغى على بقية عناصر صنعته الفنية، ولكن حاجته إلى هذه الزركشة تعد أمراً ضرورياً إذا ما نجح في استخدامها عنصرا مساعدا يساعده على خلق الصورة الشعرية أو يزيد من تأثيرها في المتلقى».(٢٢٧)

فالبديع مكمل لشكل القصيدة، والشكل لا ينفصل عن المضمون، ولكن موطن الخطورة على الصورة الفنية حين يتحول الشاعر إلى صائغ يصنع أشكالا من الزينة كان قد درسها في كتب البديع ليحلى بها ما يشاء من دمى الأغراض الفنية التي يسعى إلى تصويرها.(٢٢٨)

ومن المؤسف ألا يدرك المتأخرون من شعرائنا موطن الخطر «فغلبت الصنعة على الشعر. وأخذت هذه الصنعة تزداد إلى أن أصبح الشعر في أواخر العصر العباسي زخرفة مقيتة».(٢٢٩)

قيم الموسيقى التقليدية :

لم يقف تقدير شاعرنا للموروث عند محاكاة أسلافه في تعبيرهم وتصويرهم، بل تجاوز ذلك إلى موسيقاهم الظاهرة المتمثلة في أوزانهم وقوافيهم. ويدفعنا الحديث عن أوزانه إلى التساؤل، هل كان الشاعر القديم يتخير لشعره من الأوزان ما يتلاءم وعاطفته؟ وهل اختلفت تلك الأوزان تبعا لاختلاف الشعور عند الناظمين من القدماء؟ وهل اتخذ القدماء لكل موضوع من الموضوعات وزنا خاصا أو بحرا خاصا؟

لقد شغلت هذه التساؤلات عددا من الباحثين المعاصرين، وأفردوا لها كتبا متخصصة، ولكننا لم نقف منهم على اجابة محددة، نظراً لاختلافهم في النتائج التي توصلوا إليها، ففي الربط بين عاطفة الشاعر ووزنه يرى الدكتور إبراهيم أنيس أنه «قد يكون من العسير أن نجيب عن مثل هذا التساؤل اجابة مقنعة».(٢٣٠) ويقول في الربط بين موضوع الشعر ووزنه: «ان استعراض القصائد القديمة وموضوعاتها لا يكاد يشعرنا بمثل هذا التخير أو الربط، فهم كانوا يمدحون ويفاخرون أو يتغزلون في كل بحور الشعر التي شاعت عندهم»(٢٣١) ولكنه يعود فيقرر مطمئنا(٢٣٢). أن الأوزان الطويلة تستدعيها حالات نفسية معينة، تختلف عن الحالات النفسية التي تتطلب أوزانا قصيرة، كما تتفاوت أوزان بعض الموضوعات طولا وقصرا.

فصاحب المرشد جد معنى ببيان التناسب بين أوزان الشعر ومعانيه.(٢٣٣) في حين يرى الدكتور عز الدين اسماعيل أن «الربط يكون بين الحالة النفسية والايقاع، وليس بين هذه الحالة والوزن. وعندئذ نجد الرثاء في البحر القصير، ونجد الغزل في البحر الطويل».(٢٣٤) ثم يضرب مثلا بديوان الخنساء، وهو في الرثاء كله، ولكن الخنساء لم تلتزم واحدا أو نوعا واحداً من البحور الطويلة. فهي كما نظمت في الطويل، والبسيط، والمديد، والكامل نظمت كذلك في البحور القصيرة المجزوءة.. ثم يعقب قائلاً: «وذائع مستفيض أن الشاعر حين يريد أن يقول شعراً لا يحدد لنفسه بحرا بعينه، وانما هو يتحرك مع أفاعيل نفسه، فيخرج الشعر في الوزن الذي يصدف له من الأوزان، ومعنى هذا كله أن الوزن المجرد لا يعطى لونا بعينه من الموسيقى».(٢٣٥)

إذن فالصلة بين العاطفة والوزن، أو بين الوزن والموضوع هي من قبيل الملاحظات الجزئية، وليست قاعدة عامة. فما يصدق منها على شاعر قد لا ينطبق على شاعر آخر.

(يتبع)

الهوامش

١) د. يوسف خليف : ذو الرمة شاعر الحب والصحراء : ٣٩٠.

٢) راجع : الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ص١٥-١٦ : تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي البجاوي، الحلبي: القاهرة (بدون تاريخ)، وأنظر: العمدة ١/١٩٦-١٩٧: تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد: المكتبة التجارية: القاهرة ١٩٥٥.

٣) ابن طباطبا : عيار الشعر : ٨-٩ : تحقيق طه الحاجري، ومحمد زغلول سلام: المكتبة التجارية: القاهرة ١٩٥٦.

٤) قراءة جديدة لشعرنا العربي: ٢٣.

٥) د. جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : ١١٠ : دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة : الطبعة الأولى : ١٩٧٤م.

٦) ابن أبي الأصبع : تحرير التحبير : ٤٧٥ : تحقيق حفني شرف : المجلس الأعلى للشئون الاسلامية : القاهرة ١٣٨٣ هـ.

٧) عيار الشعر : ١٠.

٨) أنظر : قراءة جديدة لشعرنا القديم : ٢٣.

٩) الديوان : ٤٧ وجاء في صدر هذه القصيدة أنه قالها عام ٩٩ هـ، وهي أصل شعره (أنظر : نسخة المتحف العراقي: تسلسل ٨٩٨٩) وهذا يعني أنه بدأ نظم الشعر وله من العمر سبعة وعشرون عاما. ولكنني أميل الى القول بأن هذه القصيدة أول شعره الذي اطمئن الى سلامته وجودته، أما شعره الدكر فيبدو أنه قد حجبه، كما فعل أكثر شعرائنا، ولا سيما أن هناك ما يشير الى نظمه الشعر مبكرا قبل أوان الحلم. ولم تزد سنه على عشر.
(أنظر : مقدمة الديوان: ٥).

١٠) الديوان : ٢٧-٢٨، بنيك أصلها في الديوان (بنوك).

١١) المصدر نفسه : ١١٩ .

١٢) المصدر نفسه : ٦١ .

١٣) ديوانه : ٣٠٥ .

١٤) المصدر نفسه : ١٢١ .

١٥) ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ٣٧٣ .

١٦) محمد جابر الانصاري : مجلة الدوحة : مقالة بعنوان «ابن المقرب العيوني» متنبيء الخليج : قطر ديسمبر ١٩٧٧م.

١٧) الديوان : ٦٦ .

١٨) الديوان : ١٩ .

١٩) ديوان المتنبي : ٥٥ .

٢٠) ديوان المتنبي : ١٥ .

٢١) الديوان : ٤٨ .
٢٢) ديوان المتنبي : ح٤ / ٩١ : بعناية عبدالرحمن البرقوقي : دار الكتاب العربي ببيروت ١٩٣٨م (نسخة مصورة).
٢٣) ديوان المتنبي : ١٠٢ .
٢٤) الديوان : ٢٤٥ .
٢٥) ديوان المتنبي : ٢٥٣ .
٢٦) الديوان : ٢٩٩ .
٢٧) الملحق : ١٤ .
٢٨) ديوان المتنبي : ٢٥٣ .
٢٩) الديوان : ١١٠ .
٣٠) ديوان المتنبي : ٢٠٥ .
٣١) الديوان : ٢٠٢ .
٣٢) ديوان المتنبي : ٤ / ٣٧٨ (البرقوقي).
٣٣) ديوان المتنبي : ٧٢ .
٣٤) الديوان : ٣٨١ .
٣٥) ديوان المتنبي : ٢٠٣ .
٣٦) الديوان : ٧٠ .
٣٧) المصدر نفسه : ٥١٣ .
٣٨) ديوان المتنبي : ٢ / ٢٩٩ (البرقوقي) .
٣٩) د. طه حسين : مع المتنبي : ٨٠ : دار المعارف بمصر ١٩٤٩.
٤٠) الديوان : ٥٨٢-٥٨٣ .
٤١) أنظر : مع المتنبي : ٥١ .
٤٢) العمدة : جـ٢ / ٥٤ .
٤٣) المصدر نفسه جـ٢ / ٥٣ .
٤٤) نفس المصدر ص ٢ / ٥٥ .
* أنظر : البديع في نقد الشعر : لأسامة بن منقذ : ١٠٤ : تحقيق د. أحمد بدوي وآخرين، مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة ١٩٦٠م.
٤٥) أنظر : ابن حجة الحموي : خزانة الأدب : ٢٢٧ : ط ١ المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٤ هـ، وأنظر عبدالعزيز عتيق : علم البديع : ٧٦ : دار النهضة العربية ببيروت ١٩٧١م.
٤٦) الديوان : ٧٨ .
٤٧) أنظر : خزانة الأدب : ٢٢٧ وعلم البديع : ٨٧ .
٤٨) الديوان : ١٩٦٣ .
٤٩) المصدر نفسه : ٢٧١ .
٥٠) أنظر : خزانة الأدب : ٢٢٩ : وعلم البديع : ٨٧ .

٥١) أنظر : علم البديع : ٩٩ .
أنظر : العمدة : جـ٢ / ٦٠ .
٥٢) الديوان: ٢٠٢ – ٢٠٣.
٥٣) المصدر نفسه: ٤٢٥.
٥٤) الديوان: ١٧٩.
٥٥) المصدر نفسه: ٢٩٩.
٥٦) المصدر نفسه: ٢٧١.
٥٧) المصدر نفسه: ٩٦.
٥٨) مع المتنبي: ٧٦.
٥٩) ديوان المتنبي: ٥٥.
٦٠) ديوان البحتري: بعناية عبدالرحمن البرقوقي: ص ٢: مطبعة هندية بالموسكي بمصر ١٩١١م.
٦١) الملحق: ٢٤.
٦٢) الديوان: ٤١٠.
٦٣) ديوان المتنبي: ٢٥٣.
٦٤) الديوان: ٣٤١.
٦٥) د. النعمان القاضي: كافوريات أبي الطيب دراسة نصية: ٣١٧: مركز كتب الشرق الأوسط بالقاهرة ١٩٧٥م.
٦٦) ديوان المتنبي: ٥٥.
٦٧) الديوان: ٢٣٠.
٦٨) الديوان: ١٠٠ـ١٠١.
٦٩) الديوان: ١٦٨.
٧٠) مختار الشعر الجاهلي: ١/ ٢٣٤.
٧١) الديوان: ٣٣٨.
٧٢) مختار الشعر الجاهلي: ٢٣٤.
٧٣) الديوان: ٢٢٦.
٧٤) مختار الشعر الجاهلي ٢٣٤.
٧٥) الديوان: ٤٣٧.
٧٦) العمدة: ٢ / ١٧٨.
٧٧) الديوان: ٣٩٠.
٧٨) مختار الشعر الجاهلي: ٣٢٠.
٧٩) الديوان: ٢٧٣.
٨٠) شرح ديوان عنترة: بعناية يوسف البستاني ص ١٥٦ ـ المطبعة الرحمانية (د.ت) .
٨١) الديوان: ٢٣٢.

٨٢) جمهرة أشعار العرب: أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي: ص ٨١، مطبعة بولاق بالقاهرة ١٣٠٨هـ
٨٣) الديوان ٨٦.
٨٤) الأغاني (الهيئة المصرية العامة للكتاب: ١٩٧٣) : جـ ٢٢ / ٣٥٧.
٨٥) الديوان: ٢٣٤.
٨٦) جمهرة أشعار العرب: ٢٢٨.
٨٧) الديوان: ٤٨.
٨٨) أبو علي الحسن المرزوقي الأصفهاني: شرح ديوان الحماسة: تحقيق أحمد أمين وعبدالسلام هارون: جـ ١ / ص ٤٨: لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١م.
٨٩) الديوان: ٤٧٦.
٩٠) شرح ديوان الحماسة: جـ ١ / ص ٧٣.
٩١) الديوان: ٢٦٧.
٩٢) طبقات فحول الشعراء: ١ / ١٠١.
٩٣) سورة الرحمن: ٢٦.
٩٤) سورة آل عمران: ١٨٥.
٩٥) سورة الرعد: ٣٨.
٩٦) الديوان: ٩٧.
٩٧) العمدة: ١ / ٥٠.
٩٨) الديوان ٢٤٩ وانظر: بيت الحطيئة في التمثيل والمحاضرة للثعالبي: تحقيق د. عبدالفتاح الحلو: ٦٣: دار احياء الكتب العربية بالقاهرة.
٩٩) الديوان: ٣٢٤.
١٠٠) ديوان بشار بن برد: بعناية محمد الطاهر عاشور: جـ ١ ص ٣١٧: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٥٠.
١٠١) ديوان أبي نواس: بعناية محمد واصف: ٦٤: المطبعة العمومية بمصر: ط ١ ١٨٩٨م.
١٠٢) الديوان: ٦٢٢.
١٠٣) نفسه: ٩٨.
١٠٤) الديوان ٥٥.
١٠٥) ديوان أبي نواس: ٩٩.
١٠٦) ديوان بشار بن برد: جـ ١ / ٣١٨.
١٠٧) الديوان: ٤٩.
١٠٨) المصدر نفسه: ٧٢.
١٠٩) المصدر نفسه: ٨٧.
١١٠) المصدر نفسه: ١٨٦.

١١١) ديوان أبي فراس الحمداني: بعناية سامي الدهان: جـ ١ / ص ٣٢: بيروت ١٩٤٤م.
١١٢) الديوان: ١٤٣.
١١٣) نفسه: ١٧٦.
١١٤) نفسه: ١٨٤.
١١٥) شرح قصيدة ابن عبدون: محي الدين صبري الكردي: ص ٣٠٢: مطبعة السعادة: ط ١ بالقاهرة: ١٣٤٠هـ.
١١٦) الديوان ٦٠٩.
١١٧) نفسه: ٨٩.
١١٨) الديوان: ٦٩٤، وانظر: مجمع الأمثال) للميداني: ١/ ٦٠: المطبعة الخيرية: ١٣١٠ هـ.
١١٩) الديوان: ٥٩٨، وهي بن بي، وهيان بن بيان يضرب مثلاً لمن لا يعرف أصله ولا فصله (اللسان: بيي).
١٢٠) الملحق : كأنه علم في رأسه نار، يضرب مثلاً للشهرة، وهو عجز بيت للخنساء في رثاء أخيها صخر (انظر: البيت في العمدة لابن رشيق جـ٢ / ٥٨).
١٢١) د. مصطفى ناصف: الصورة الأدبية: ٢٤١: مكتبة مصر بالقاهرة: ط ١ ١٩٥٨م.
١٢٢) ديوان الحماسة لأبي تمام: ٢١.
١٢٣) الديوان: ٢٦٧.
١٢٤) الديوان: ٢٦٧ ـ ٢٦٨.
١٢٥) ديوان أبي تمام: بعناية شاهين عطية اللبناني: المطبعة الأدبية ببيروت، ١٨٨٩، ص ١٥.
١٢٦) المصدر نفسه: ٧٤.
١٢٧) القصيدة ذاتها: ٧٨.
١٢٨) ديوان أبي تمام: ص ١٦.
١٢٩) ابن المقرب حياته وشعره: ١٤٩.
١٣٠) حديث الأربعاء: جـ٢ / ٨.
١٣١) د. شوقي ضيف : في النقد الأدبي: ١٧٧: دار المعارف بمصر ١٩٦٦.
١٣٢) د. محمد مصطفى هدارة: مشكلة السرقات الادبية في النقد العربي: ٢٨٠: الانجلو المصرية بالقاهرة ١٩٥٨.
١٣٣) العمدة: جـ٢ / ٢٨١ .
١٣٤) .د. أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي: ٢٦٠ــ ٢٦١: مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٧٣ ٩م.
١٣٥) أنظر: عبدالله التطاوي: الصورة الفنية في شعر مسلم بن الوليد: ٧٦: رسالة

ماجستير مخطوطة بآداب القاهرة ١٧٦ ٩١م.

١٣٦) الديوان: ٦١٨، وماوان: قرية في أودية العلاة من أرض اليمامة. (معجم البلدان:٧ / ٣٦٩).

١٣٧) الديوان: ٦١٨.

١٣٨) د. شفيع السيد: التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية ص ١٥٨: مكتبة الشباب، القاهرة ١٩٧٧م.

١٣٩) الديوان: ٦١٩.

١٤٠) الديوان: ٣٠٥.

١٤١) الديوان : ٣٠٥والقصيدة ذاتها.

١٤٢) المصدر السابق: ٣٠٦.

١٤٣) الديوان : ١٢٠.

١٤٤) المصدر نفسه ٣٠٥ .

١٤٥) الديوان : ٦٠١.

١٤٦) المصدر نفسه: ٦١٨.

١٤٧) د. ايليا حاوي: فن الوصف: ٢١: دار الكتاب اللبناني ببيروت: ط٢: ١٩٦٧م.

١٤٨) حنا فاخوري: تاريخ الادب العربي: ٣٦٨: المطبعة البوليسية ببيروت ط٢: ١٩٥٣م.

١٤٩) الديوان : ١٠٨ ـ ١٠٩.

١٥٠) أنظر الديوان: ١٩، ٢٦، ٨٤، ١٢٠، ١٦٠، ٢٨٣، ٤٠٦.

١٥١) المصدر نفسه: ١٠٠.

١٥٢) وأرت السحابة: أي دام مطرها، والرباب: واحدته ربابه: وهو السحاب.

١٥٣) الديوان : ٤٩٤ ـ ٤٩٥.

١٥٤) الديوان : ٥١٩ .

١٥٥) الديوان : ٤٤٧ .

١٥٦) القلوص : الناقة النجيبة السريعة، وابل عباهل، لا راعي لها ولا حافظ، وقيل ترد متى شاءت، والعباهلة الأقيال، وفي الصحاح ملوك اليمن. (تاج العروس ٨ / ٤) والحنايا : مفردها الحنية وهي القوس (اللسان: مادة حنا).

١٥٧) الديوان : ٣٩٥-٣٩٨، والرئل : فرخ النعام، والبخت: هي الابل الخراسانية.

١٥٨) الديوان : ٩٨-٩٩، والتيهاء : الأرض التي لا يهتدي فيها، والتيهاء: المضلة الواسعة التي لا أعلام فيها ولا جبال ولا أكام. (اللسان : تيه) .

١٥٩) المصدر نفسه : ٥٧٥، ويقولون : صمى صمام، أي زيدي يا داهية.

١٦٠) الديوان : ٣٤٩ .

١٦١) المصدر نفسه : ٣٩١ .
١٦٢) المصدر نفسه : ٤٤٩ .
١٦٣) المصدر نفسه : ٤١٥ .
١٦٤) المصدر نفسه : ٢٨٦ .
١٦٥) الديوان : ٤٠٨ .
١٦٦) الملحق : ١٥ .
١٦٧) الديوان : ٥٧٤ .
١٦٨) الموضع نفسه ، والقصيدة ذاتها .
١٦٩) المصدر نفسه : ١٨٧ .
١٧٠) ديوان زهير بن أبي سلمى : ٤٩ : مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤.
١٧١) الديوان : ٢٢٠ -٢٢١ ، وكتيبة دوسر : كتيبة كانت للنعمان بن المنذر.
١٧٢) المصدر نفسه : ٣٤١.
١٧٣) المصدر نفسه : ٤١٥ ، ومتبجج العافي : أي مكان فرحه.
١٧٤) الديوان : ٤٤٤-٤٤٥ .
١٧٥) الديوان : ٥٨٢ ، وندس ندسا : كان فهما كيسا، وردس القوم يردسهم ردسا: أي رماهم بحجر (تاج العروس ٤ / ١٦٠).
والشكس : الصعب الخلق، وماكسه الرجل مماكسه: شاكسه (تاج العروس ٤ / ٢٤٩) والشرس: الشديد الخلاف، الجرىء في القتال، ومرس مرسا، كان شديدا في معالجة الأمور، والمراس: الشدة والقوة.
١٧٦) الديوان : ٣٠٠ .
١٧٧) المصدر نفسه والقصيدة ذاتها.
١٧٨) الديوان : ٤١٦ .
١٧٩) المصدر نفسه : ٥٩٧ .
١٨٠) الديوان: ٤٩٩.
١٨١) المصدر نفسه: ٣٣١: والخياطل: مفردها خيطل وهو السنور، وقيل المهر، والكلب (اللسان: خطل).
١٨٢) المصدر نفسه: ١١٠.
١٨٣) حديث الأربعاء: ٢ / ١٢٨.
١٨٤) الديوان: ٢٨٣.
١٨٥) الملحق: ١١.
١٨٦) الملحق: ٢١.
١٨٧) المصدر نفسه: ٢٠.
١٨٨) المصدر نفسه: ١٤.
١٨٩) المصدر نفسه: ٢٠.
١٩٠) المصدر نفسه: ١٤.

١٩١) الديوان: ٥٨١. وفم ذو أشر: في أسنانه تحزيز يكون خلقة ومستعملاً. (اللسان: أشر) وفم شبم: بارد البريق. والأبطح: بفتح الطاء، كل مسيل فيه دقاق الحصا فهو أبطح، وقيل الرمل المنبسط على وجه الأرض، والأبطح: موضع يضاف الى مكة والى منى وربما كان الى منى أقرب. (معجم البلدان: ١ / ٨٥).
١٩٢) أنظر: الصورة الفنية في شعر مسلم بن الوليد: ١١٧.
١٩٣) الديوان: ٥٧١.
١٩٤) الديوان: ٢٨٣ ـ ٢٨٤.
١٩٥) الديوان: ٣٧٧.
١٩٦) المصدر نفسه: ٣٩٤.
١٩٧) أانظر: د. عز الدين اسماعيل: الأدب وفنونه: ١١٦: دار الفكر العربي: ط٥ ١٩٧٣م.
١٩٨) الديوان: ٣٠٥.
١٩٩) المصدر نفسه: ٢٩٩.
٢٠٠) المصدر نفسه: ٣٥٤.
٢٠١) عيار الشعر: ١٧.
٢٠٢) الديوان: ٥٥٧، والأجدل: الصقر (اللسان: جدل).
٢٠٣) المصدر نفسه: ٣٦٦.
٢٠٤) قال لبعض بني عمه: احفروا لي حفرة وادفنوني فيها، واذهبوا عني بعيداً فإذا رأيتم الوحوش قد اجتمعت على تلك الحفيرة فاتركوها حتى تذهب فإذا ذهبت فاكشفوا عني، فلما حفروا له، لم يحفروا عنه حتى مات، فقيل هذا بيت ضيعه أهله وقومه وأصحابه (نقلاً عن ديوان ابن المقرب ص وشن بن أفصي: هو بن عبدالقيس بن أفصي بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار (الجمهرة: ٢٩٩).
٢٠٥) المصدر نفسه: ٣٢٨.
٢٠٦) نعيم اليافي: مقدمة في دراسة الصورة الفنية: ١٣٤ رسالة دكتوراه، مخطوطة بآداب القاهرة.
٢٠٧) الديوان: ٥٤.
٢٠٨) المصدر نفسه: ٦٢٢.
٢٠٩) الديوان : ٣٥٣.
٢١٠) انظر : ابن قتيبة : الشعر والشعراء: تحقيق أحمد محمد شاكر : ١ / ١٣٩ ـ ١٤٠ دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٧م.
وانظر : قدامة بن جعفر : نقد الشعر : تحقيق س. أ. يونيباكر ص٥٩ مطبعة بريل، لندن ١٩٥٦م.
٢١١) الديوان : ١٢٧.

٢١٢) المصدر نفسه : ١٦٢.
٢١٣) د. صلاح الدين الهادي : الشماخ حياته وشعره ٢٧٤ ـ ٢٧٥ دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٨م.
٢١٤) انظر : أرسطو طاليس : فن الشعر : ١٢٨ : ترجمة شكري عياد، دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٩٦٧م.
٢١٥) د. مصطفى سويف : الأسس النفسية للابداع الفني : ٣٠٢، دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٩م.
٢١٦) د. مصطفى ناصف : الصورة الأدبية : ١٢٤ : مكتبة مصر بالقاهرة ١٩٥٨م.
٢١٧) الديوان : ٣٠٦.
٢١٨) المصدر نفسه : ٢٧٤.
٢١٩) المصدر نفسه : ٢٣١.
٢٢٠) المصدر نفسه : ٢٠٢.
٢٢١) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : ٢٢٦.
٢٢٢) د. عبدالعزيز الأهواني : ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر : ص ٢٧ : الانجلو المصرية ١٩٦٢م.
٢٢٣) د. مصطفى ناصف : قراءة ثانية لشعرنا القديم : ٤٢٠ : الجامعة الليبية ـ كلية الآداب (بدون تاريخ).
٢٢٤) د. محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب : ٥٠، دار نهضة مصر ١٩٦٩م.
٢٢٥) المرجع ذاته : ٤٨.
٢٢٦) كراتشكوفسكي : دراسات في تاريخ الأدب العربي : ٢٠ ـ ٢١ : موسكو ١٩٦٥م.
٢٢٧) الصورة الفنية في شعر مسلم بن الوليد : ٣٦.
٢٢٨) المرجع ذاته : ٣٨.
٢٢٩) تاريخ الأدب العربي ـ لحنا فاخوري : ٣٦٩.
٢٣٠) د. إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر : ١٧٦ : مكتبة الانجلو المصرية : القاهرة ١٩٧٢م.
٢٣١) المرجع نفسه : ١٧٧ وانظر د. شوقي ضيف : في النقد الأدبي : ص ١٥٢، دار المعارف بمصر ١٩٦٦م.
٢٣٢) انظر موسيقى الشعر : ١٧٧.
٢٣٣) انظر د. عبدالله الطيب : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها : دار الفكر بالقاهرة ١٩٧٠م.
٢٣٤) أانظر د. عز الدين اسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي : دار الفكر العربي : القاهرة ١٩٧٤م. (ص ٢٧٧، ٢٧٨).
٢٣٥) انظر : نفس المرجع والموضع.